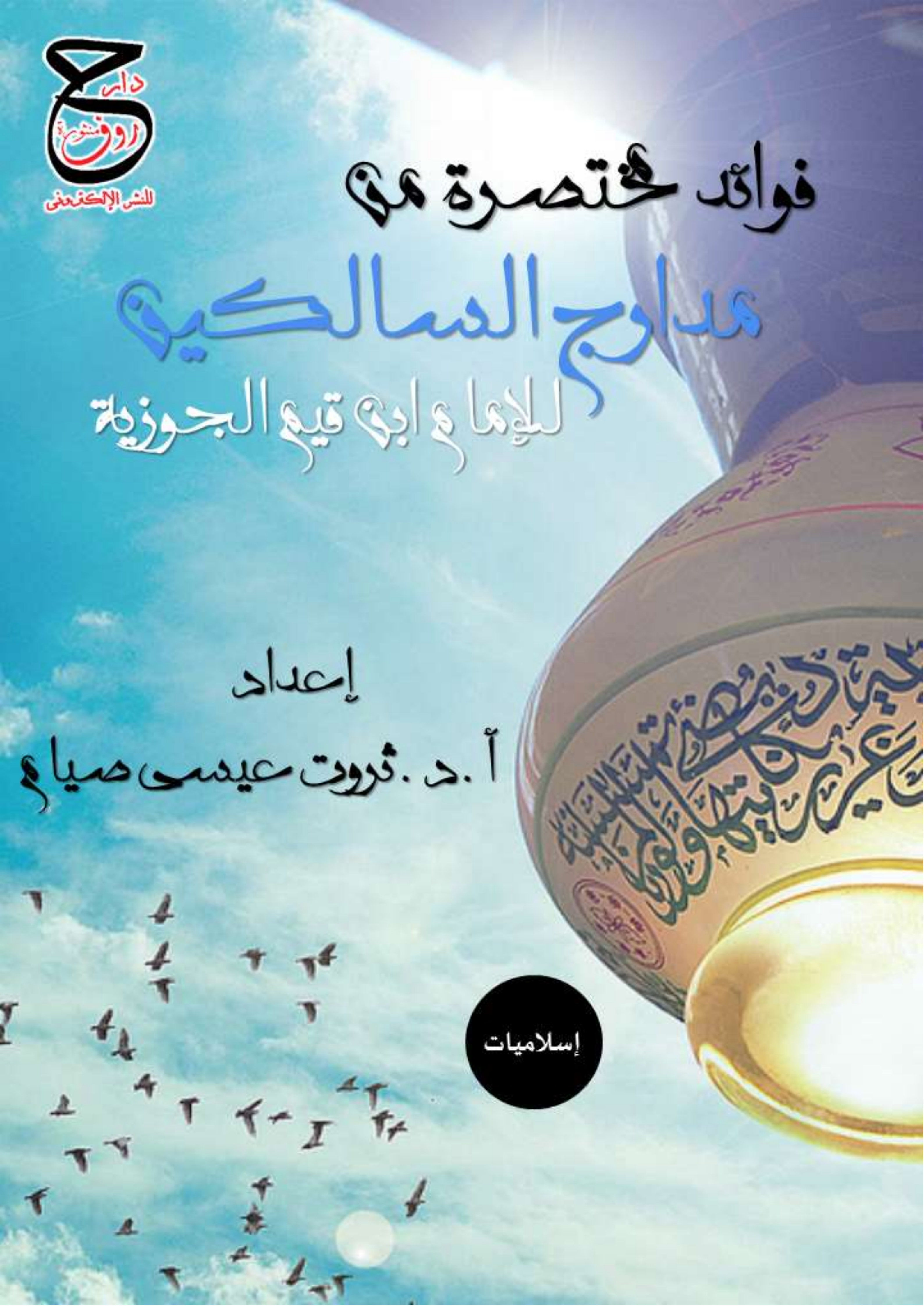

دار
روف
منشورة
للنشر الإلكتروني
فوائد مختصرة من
مدارج السالكين
للإمام ابن قيم الجوزية
إعداد
أ .د .ثروت عيسى صيام
إسلاميات

نوع العمل: إسلاميات

اسم العمل: مدارج السالكين

اسم المؤلف: ثروت عيسى صيام

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى ستمبر ٢٠١٧

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: الكاتب نفسه

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura٢٠١١.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم و مقترحاتكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura٢٠١١@gmail.com

رجوع للفهرس

رجوع للفهرس

فوائد مختصرة من

مدارج السالكين

للإمام ابن قيم الجوزية

إعداد

الأستاذ الدكتور/ ثروت عيسى صيام

رجوع للفهرس

الفهرس

الإهداء .... - ١٨ -

مقدمة .... - ١٩ -

فوائد مختصرة من مدارج السالكين .... - ٢١ -

هداية القرآن: .... - ٢١ -

المطالب التى إشتملت عليها سورة الفاتحة: .... - ٢٢ -

دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات: .... - ٢٥ -

دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات: .... - ٢٥ -

دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات: .... - ٢٦ -

الاستواء على العرش: .... - ٢٦ -

إرتباط الخلق والأمر بأسمائه (الله – الرب – الرحمن): - ٢٧ -

إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء:................ - ٢٨ -

مراتب الهداية: .... - ٢٨ -

إشتمال الفاتحة على شفاء القلوب وشفاء الأبدان: ... - ٣٤ -

إشتمال الفاتحة على جميع معانى القرآن: .... - ٣٥ -

تقسيم الناس إلى أهل عبادة ومعرِضون: .... - ٣٧ -

فضل أهل مقام " إِيَّاكَ نَعْبُدُ " .... - ٤٢ -

رجوع للفهرس

بناء "إياك نعبد" .... - ٤٨ -

مقام العبودية: .... - ٤٩ -

إنقسام العبودية:.. - ٥٠ -

مراتب "إياك نعبد" علماً وعملاً: .... - ٥٠ -

قواعد العبودية: .... - ٥١ -

عبوديات اللسان: .... - ٥٣ -

عبوديات الجوارح: .... - ٥٤ -

أول منازل العبودية اليقظة: .... - ٥٩ -

منزلة القصد: .... - ٦٢ -

المقامات: .... - ٦٣ -

منازل العبودية: .... - ٦٥ -

منزلة المحاسبة: .... - ٦٩ -

أركان المحاسبة: .... - ٧٠ -

حقيقة التوبة: .... - ٧٣ -

شروط التوبة: .... - ٧٥ -

شروط التوبة: الندم والإقلاع والاعتذار.................. - ٧٥ -

حقائق التوية:.. - ٧٦ -

أعذار الخليقة: .... - ٧٧ -

رجوع للفهرس

أسرار حقيقة التوبة: .... - ٧٨ -

لطائف أسرار التوبة:.................................... - ٨٠ -

فرح الله بتوبة التائب: .... - ٨٠ -

إقامة الحجة على العبد بتبليغ الرسالة: .... - ٨١ -

توبة الخواص من تضييع الوقت: .... - ٨٢ -

النفس الأمارة بالسوء: .... - ٨٣ -

تدرج الشيطان فى الإغواء: .... - ٨٣ -

تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه: .... - ٨٥ -

هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره ..... - ٨٦ -

أحكام التوبة:.. - ٨٧ -

هل يعود الذنب إذا رجع إليه بعد التوبة منه:........... - ٨٩ -

توبة العاجز عن الذنب: .... - ٩٠ -

التوبة وخطر الإصرار والتسويف: .... - ٩١ -

توبة العامة ومفاسدها عند الخاصة: .... - ٩٢ -

التوبة وأداء الحقوق: .... - ٩٤ -

حقوق العباد:.. - ٩٦ -

توبة الغاصب: .... - ٩٧ -

رجوع للفهرس

هل يرجع العبد إلى الدرجة التى كان عليها قبل الذنب:.......- ١٠١ -
تفضيل الطائع على التائب توبة نصوحاً: ....- ١٠٢ -
التوبة والاستغفار: ....- ١٠٦ -
سيد الاستغفار: ....- ١٠٨ -
حقيقة التوبة النصوح: ....- ١٠٩ -
النصح فى التوبة: ....- ١١٠ -
الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب:..........- ١١١ -
أصل الذنوب: ذكر الإمام ابن القيم ()..................- ١١٣ -
آراء السلف فى اللمم: ....- ١١٥ -
آراء السلف فى الكبائر:...............................- ١١٦ -
عقوبات المعاصى: ....- ١١٩ -
١ - الختم على القلب: ....- ١١٩ -
٢ - خسف القلب: ....- ١٢٠ -
٣- مسخ القلب: ....- ١٢٠ -
٤- نكس القلب: ....- ١٢١ -
٥- حجب القلب عن الرب: ....- ١٢١ -
٦- المعيشة الضنك: ....- ١٢١ -

رجوع للفهرس

فى مشاهد الخلق فى المعصية:........................- ١٢٣ -
فى أجناس ما يُتاب منه: ....- ١٢٩ -
الكفر الأكبر: ....- ١٣٠ -
كفر الجحود: ....- ١٣٠ -
الشرك:..- ١٣١ -
النفاق: ....- ١٣١ -
الفسوق: ....- ١٤٠ -
منزلة التوبة ومنزلة الإنابة: ....- ١٤٤ -
أنواع الإنابة: ....- ١٤٥ -
الرجوع إلى الله: ....- ١٤٨ -
علامات الإنابة:.................................- ١٤٩ -
منزلة التذكر: ....- ١٥١ -
أبينة التذكر:....................................- ١٥٢ -
تفسير الحكمة والموعظة الحسنة:......................- ١٥٣ -
جنى ثمرة التفكير: ....- ١٥٦ -
فوائد تدبر القرآن: ....- ١٥٦ -
مفسدات القلوب: ....- ١٥٨ -
منزلة الاعتصام: ....- ١٦٢ -

رجوع للفهرس

درجات الاعتصام:..- ١٦٥ -
٢ـ اعتصام الخاصة: ....- ١٦٦ -
٣ـ اعتصام خاصة الخاصة: ....- ١٦٧ -
منزلة الفرار: ....- ١٦٨ -
فرار خاصة الخاصة: ....- ١٧٠ -
منزلة السماع:...- ١٧٢ -
درجات السماع: ....- ١٧٦ -
سماع الخاصة: ....- ١٧٧ -
منزلة الحزن: ....- ١٨٠ -
درجات الحزن: ....- ١٨٢ -
منزلة الخوف: ....- ١٨٤ -
درجات الخوف: ....- ١٨٦ -
منزلة الإشفاق:...- ١٨٨ -
منزلة الخشوع: ....- ١٩٠ -
تعريف الخشوع: ....- ١٩١ -
الصلاة وعدم الخشوع: ....- ١٩٤ -
منزلة الإخبات: ....- ١٩٧ -
درجات الإخبات:..- ١٩٨ -

رجوع للفهرس

منزلة الزهد: ....- ٢٠٠ -

تعريف الزهد:..- ٢٠٣ -

درجات الزهد: ....- ٢٠٣ -

منزلة الورع: ....- ٢٠٥ -

تعريف الورع: ....- ٢٠٧ -

درجات الورع:.......................................- ٢٠٨ -

منزلة التبتل: ....- ٢١٠ -

درجات التبتل: ....- ٢١٠ -

منزلة الرجاء: ....- ٢١٢ -

درجات الرجاء:......................................- ٢١٣ -

منزلة الرغبة: ....- ٢١٥ -

درجات الرغبة:......................................- ٢١٦ -

منزلة الرعاية: ....- ٢١٧ -

درجات الرعاية:.....................................- ٢١٨ -

منزلة المراقبة:......................................- ٢٢٠ -

درجات تعظيم حرمات الله عز وجل: ....- ٢٢٥ -

منزلة الإخلاص: ....- ٢٢٧ -

تعريف الإخلاص: ....- ٢٢٩ -

رجوع للفهرس

درجات الإخلاص: ....- ٢٢٩ -
منزلة التهذيب: ....- ٢٣١ -
درجات التهذيب: ....- ٢٣١ -
منزلة الاستقامة: ....- ٢٣٥ -
تعريف الاستقامة: ....- ٢٣٧ -
درجات الاستقامة: ....- ٢٣٧ -
منزلة التوكل: ....- ٢٣٩ -
معنى التوكل: ....- ٢٤١ -
درجات التوكل: ....- ٢٤٢ -
منزلة الصبر: ....- ٢٤٨ -
تعريف الصبر: ....- ٢٥٢ -
أنواع الصبر: ....- ٢٥٣ -
درجات الصبر: ....- ٢٥٦ -
منزلة الرضى: ....- ٢٥٨ -
درجات الرضى: ....- ٢٦٢ -
شروط الرضا: ....- ٢٦٣ -
حقيقة الرضى: ....- ٢٧٣ -
منزلة الشكر: ....- ٢٧٤ -

رجوع للفهرس

الفرق بين الحمد والشكر: ....- ٢٧٨ -

تعريف الشكر: ....- ٢٧٩ -

درجات الشكر:..- ٢٨٠ -

منزلة الحياء: ....- ٢٨١ -

تعريف الحياء:..- ٢٨١ -

درجات الحياء: ....- ٢٨٥ -

منزلة الصدق: ....- ٢٨٧ -

كلمات فى حقيقة الصدق:................................- ٢٩١ -

درجات الصدق: ....- ٢٩٢ -

منزلة الإيثار: ....- ٢٩٤ -

مراتب الإيثار: ....- ٢٩٥ -

مراتب الجود:..- ٢٩٦ -

درجات الإيثار: ....- ٢٩٧ -

منزلة الخُلُق: ....- ٢٩٨ -

الدين كله خُلُق:......................................- ٣٠١ -

درجات الخُلُق:..- ٣٠٣ -

منزلة التواضع: ....- ٣٠٨ -

تعريف التواضع:......................................- ٣١٢ -

رجوع للفهرس

درجات التواضع:.. - ٣١٢ -

منزلة الفتوة: .... - ٣١٥ -

درجات الفتوة:.. - ٣١٧ -

منزلة المروءة: .... - ٣١٩ -

درجات المروءة:.. - ٣٢١ -

منزلة البسط: .... - ٣٢٢ -

درجات البسط:.. - ٣٢٣ -

منزلة العزم: .... - ٣٢٥ -

درجات العزم:.. - ٣٢٥ -

منزلة الإرادة:.. - ٣٢٧ -

مراتب الإرادة:.. - ٣٢٨ -

درجات الإرادة: .... - ٣٣١ -

منزلة الأدب: .... - ٣٣٢ -

أنواع الأدب: .... - ٣٣٣ -

تعريف الأدب:.. - ٣٣٦ -

الأدب مع الرسول: .... - ٣٣٧ -

الأدب مع الخلق: .... - ٣٣٨ -

درجات الأدب: .... - ٣٣٩ -

رجوع للفهرس

منزلة اليقين: ....- ٣٤١ -
أعلام اليقين:..- ٣٤٣ -
تعريف اليقين: ....- ٣٤٤ -
درجات اليقين:..- ٣٤٤ -
منزلة الأنس بالله: ....- ٣٤٦ -
درجات الأنس:..- ٣٤٦ -
منزلة الذكر: ....- ٣٤٩ -
الذكر فى القرآن: ....- ٣٥٠ -
تعريف الذكر: ....- ٣٥٥ -
درجات الذكر:..- ٣٥٥ -
منزلة الفقر:..- ٣٥٨ -
تعريف الفقر: ....- ٣٦١ -
درجات الفقر: ....- ٣٦١ -
منزلة الغنى العالى: ....- ٣٦٣ -
درجات الغنى:..- ٣٦٤ -
منزلة الإحسان: ....- ٣٦٦ -
درجات الإحسان:..- ٣٦٦ -
منزلة العلم: ....- ٣٦٨ -

رجوع للفهرس

تعريف العلم: .... - ٣٧١ -

درجات العلم: .... - ٣٧١ -

منزلة الحكمة: .... - ٣٧٤ -

درجات الحكمة: .... - ٣٧٥ -

منزلة الفراسة: .... - ٣٧٨ -

تعريف الفراسة: .... - ٣٨٠ -

درجات الفراسة: .... - ٣٨٠ -

منزلة التعظيم: .... - ٣٨٢ -

درجات التعظيم: .... - ٣٨٣ -

منزلة السكينة: .... - ٣٨٦ -

تعريف السكينة: .... - ٣٨٩ -

درجات السكينة: .... - ٣٩٠ -

منزلة الطمأنينة: .... - ٣٩٣ -

درجات الطمأنينة: .... - ٣٩٤ -

منزلة الهمة: .... - ٣٩٧ -

درجات الهمة: .... - ٣٩٨ -

منزلة المحبة: .... - ٤٠٠ -

رسوم وحدود المحبة: .... - ٤٠١ -

رجوع للفهرس

مراتب المحبة:..- ٤١٠ -

وجوب محبة الله:....................................- ٤١٤ -

منزلة الغيرة: ....- ٤١٥ -

باب الغيرة:..- ٤١٦ -

درجات الغيرة:.......................................- ٤١٧ -

منزلة الشوق: ....- ٤١٩ -

تعريف الشوق: ....- ٤٢٠ -

درجات الشوق:.......................................- ٤٢١ -

منزلة الوجد:...- ٤٢٣ -

مراتب الوجد:..- ٤٢٥ -

درجات الوجد: ....- ٤٢٥ -

الدعاء والقدر:..- ٤٢٨ -

من موانع الإجابة: ....- ٤٣٨ -

أحوال الدعاء: ....- ٤٤٠ -

باب الغربة: ....- ٤٤٣ -

أنواع الغربة: ....- ٤٤٤ -

درجات الاغتراب: ....- ٤٤٥ -

باب المكاشفة:.......................................- ٤٤٨ -

رجوع للفهرس

المكاشفة الصحيحة: ....ـ ٤٤٨ ـ

باب الحياة: ....ـ ٤٥٢ ـ

مراتب الحياة:.......................................ـ ٤٥٤ ـ

أنفاس الحياة:.......................................ـ ٤٦٦ ـ

باب الفناء: ....ـ ٤٧٠ ـ

باب المعرفة:.......................................ـ ٤٧٤ ـ

الفرق بين العلم والمعرفة: ....ـ ٤٧٦ ـ

وقالوا فى المعرفة: ....ـ ٤٧٨ ـ

باب الوجود: ....ـ ٤٨٣ ـ

توحيد رسل الله: ....ـ ٤٨٨ ـ

أوجه التوحيد: ....ـ ٤٩٠ ـ

توحيد العامة:.......................................ـ ٤٩٥ ـ

اعتماد التوكل على التوحيد: ....ـ ٥٠٠ ـ

جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية: ....ـ ٥٠٣ ـ

رجوع للفهرس

الإهداء

إلى

روح أمى الطاهرة (رحمة الله عليها) التى ضحت بروحها ومالها لتدفع بى إلى طريق العلم نسأل الله العلى العظيم أن يسكنها فسيح جناته ويجزيها خير الجزاء والثواب

وإلى

أبى (أطال الله عمره) الذى زلزل جبال الصعاب وفتح لى طريق العلم والمعرفة نسأل الله العظيم له حسن الخاتمة وحسن الثواب

ثروت عيسى صيام

رجوع للفهرس

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب العالمين وأن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد

عندما قرأت كتاب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية عجبت بمادته العلمية الدينية النافعة للدنيا والآخرة فهو الكتاب الغانى المغنى فى علوم الدين والهادى إلى طريق الحق الموصل لمرضاة الله ومحبته فهو يعلى الهمم ويقوى الإرادة ويجعل العبد على طريق الاستقامة لله ويحبب إليه الطاعة ويقربه من خالقه سبحانه وتعالى ويبعده عن طريق الهوى وطريق الشيطان فعندما تقرأ هذا الكتاب تجد نفسك سائراً إلى الله عاملاً بما يحبه الله منفذاً لأوامر الرحمن مجتنباً لما يبغضه الله فهو الكتاب الذى يسعد به الإنسان ويجعله يعيش فى بلاد الأفراح لأنه أصبح محباً لربه لا يعبأ بهموم الدنيا ويجد فى ذلك حلاوة لأنها من قدر الله عليه

رجوع للفهرس

ويستوى عنده النعمة والبلوى لأنها من الله ليختبر بها العباد ويصبر الصابر فيفوز بالجنة ويحزن القانط فيبعد عن طريق الله فهيا بنا نقرأ الكتاب فى صورته المختصرة لنفع المسلمين فى هذا الزمان الذى انشغل فيه الناس بالجدل وتركوا العمل المفيد فى الدنيا فبعدوا عن طريق الله إلا من رحم الله ونسأل الله أن ينفعنى وينفع به جميع المسلمين.

اللهم إهدنا إلى الصراط المستقيم وثبتنا على دين الاسلام فهو الطريق الواضح الموصل إلى رضوان الله الذى دلنا عليه الرسول صلى الله عليه وسلم فلا سبيل للسعادة إلا بالإستقامة عليه بتنفيذ الأوامر وإجتناب النواهى للفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم تولى أمرنا وأدخلنا الجنة برحمتك مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، والله الموفق والمستعان.

إعداد

الأستاذ الدكتور/ ثروت عيسى صيام

رجوع للفهرس

فوائد مختصرة من مدارج السالكين

هداية القرآن:

يتحقق كمال الإنسان بالعلم النافع والعمل الصالح وهما الهدى ودين الحق وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين كما قال الله تعالى فى سورة العصر " وَالْعَصْرِ {العصر/١} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ {العصر/٢} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ {العصر/٣} وأقسم الله سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان وقوته العملية بالعمل الصالح وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه فالحق هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصبر عليهما والتواصى بهما فكان حقاً على الإنسان أن يفنى ساعات عمرهِ فيما ينال به المطالب العالية التى هى الإيمان والعمل الصالح ليُخلص نفسهُ من الخسران المبين ولا يتم ذلك إلا بالإقبال على القرآن وفهمه وتدبره والعكوف عليه بالهمة فإنه الكفيل بمصالح العباد فى المعاش والمعاد والموصل لهم إلى سبيل الرشاد فالحقيقة والطريقة لا تقتبس إلا من مشكاتة ولا تستثمر إلا من شجراته.

رجوع للفهرس

والكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن وما تضمنته هذه السورة من منازل السائرين ومقامات العارفين والفرق بين وسائلها وغاياتها ولم ينزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن مثلها.

المطالب التى إشتملت عليها سورة الفاتحة:

التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء هى الله – الرب – الرحمن وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة. إياك نعبد مبنى على الالهية وإياك نستعين على الربوبية والهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود فى إلهيته وربوبيته ورحمته والثناء كمالان لجده وتتضمن إثبات المعاد وجزاء العباد بأعمالهم حسنها وسيئها والحكم بالعدل بين الخلائق.

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة:

١- كونه رب العالمين فلم يترك عباده سدى لا يعرفهم ما ينفعهم فى معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيها.

٢- اسم الله وهو المألوه المعبود.

رجوع للفهرس

٣- اسم الرحمن فإن رحمته لعباده لم يهملهم وأرسل الرسل وأنزل الكتب وأنزل الغيث وأنبت الكلأ وأخرج الحب اقتضاء لرحمته.

٤- ذكر يوم الدين فذلك يوم الحساب للعباد على الأعمال.

٥- إياك نعبد فإن ما يعبد به الرب يكون على حبه ورضاه وشكره وخشيته.

٦- "اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ" فالهداية هى البيان والدلالة والتوفيق والإلهام والبيان والدلالة للرسل يؤدى إلى هداية التوفيق والإيمان فى القلب يرضى ويتأثر به ويرغب فيه ومرتبة الهداية هى طريق الجنة وهو الصراط الموصل إليها.

٧- الصراط المستقيم يتضمن خمسة أمور الاستقامة والإيصال إلى المقصود والقرب وسعته للمارين عليه وتُعِينهُ طريقاً مقصوداً ويعنى الصراط شرع الله.

٨- ذكر المنعم عليهم وهم المؤمنين وتمييزهم عن طائفتى الغضب والضلال وهم اليهود والنصارى.

رجوع للفهرس

"اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ" هو صراط واحد كما فى قوله تعالى "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "{الأنعام/١٥٣} فوحَّد لفظ "الصراط" و"سبيله" وجمع "السبل" المخالفة له. وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً وقال "هذا سبيل الله ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال هذه سبل على كل سبيل شيطان يدعو إليه" ثم قرأ قوله تعالى "وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ "{الأنعام/١٥٣} (مسند الإمام أحمد ٤١٤٢) والطريق الموصل إلى الله واحد هو مابعث به رُسُلَهِ وأنزل به كتبه وقال الله تعالى "قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ "{الحجر/٤١}، وقوله "وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ"{النحل/٩} والصحيح فى الآيتين السابقتين أن السبيل القاصد وهو المستقيم المعتدل يرجع إلى الله ويوصل إليه.

رجوع للفهرس

دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات:

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها هى الله، الرب الرحمن، الرحيم والملك مبنى على أن أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كمالهِ فهى أسماء وأوصاف وبذلك كانت حسنى ولو تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يخبر عنه بأفعالها ولو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة وكانت كلها سواء ولم يكن فرق بين مدلولاتها وهذا مكابرة صريحة وبهت بيّن ونفى معانى الأسماء من أعظم الالحاد فيها.

دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات:

أن الإسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفات التى اشتق منها بالمطابقة فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن وكذلك على الذات المجردة عن الصفة ويدل على الصفات الأخرى باللزوم ومثلاً اسم السميع يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة وعلى الذات وحدها وعلى السمع وحده بالتضمن.

رجوع للفهرس

دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات:

واسم الله الدال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث فإنه دال على إلهيته المتضمنه لثبوت صفات الإلهية وهى صفات الكمال المنزه عن التشبيه والمثال والعيوب والنقص ويتضمن ربوبيتة ورحمته المتضمه لكمال الملك والحمد وإلهيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله.

الاستواء على العرش:

وصفات الجلالة والجمال أخص بإسم الله وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخشية والقوة والتدبير أخص باسم الرب.

وصفات الإحسان كالجود والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص بأسماء الرحمن فالرحمن الذى وصفه بالرحمة والرحيم الراحم لعباده.

وصفات العدل والقبض والبسط والخفض والرفع والعطاء والمنع والاعزاز والإذلال والقهر والحكم بأسماء الملك

رجوع للفهرس

وخصه بيوم الدين وهو الجزاء بالعدل لتفرده بالحكم فيه ولأنه اليوم الحق.

إرتباط الخلق والأمر بأسمائه (الله – الرب – الرحمن):

هذه الأسماء الثلاث نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب وجمعت الخلق وفرقتهم فاسم "الرب" له الجمع الجامع لجميع مخلوقاته فهو رب كل شيئ والقادر عليه لا يخرج عن ربوبيته شيئ وكل من فى السموات عبد له فى قبضته وتحت قهره فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعاً بإلهيته وله العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والخشية والتذلل والخضوع.

فصار الناس إلى فرقتين مشركين فى النار وموحدين فى الجنة، فالدين والشرع والأمر والنهى مظهره وقيامه من صفة الإلهية والخلق مظهره وقيامه من صفة الإلهية. والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية والجزاء والثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك فهو ملك يوم الدين فأمرهم بإلهيته وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم

رجوع للفهرس

بروبيبيته وأثابهم وعاقبهم بمُلكه وعدله وأما الرحمة فهى التعلق والسبب الذى بين الله والعباد فالتأليه منهم له والربوبية منه لهم فمن رحمته أنزل عليهم كتبه وهداهم بها ورزقهم وعافاهم لعبوديته وبين الله وبين العباد والرحمة.

إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء:

لأن الله سبحانه محمود فى إلهيته ورب محمود ورحمان محمود وملك محمود والقرآن مليئ بهذه المعانى.

مراتب الهداية:

١- تكليم الله لعبده بلا وساطة بل منه إليه وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى بن عمران صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه.

٢- الوحى المختص بالأنبياء: قال الله تعالى: " إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ" {النساء/١٦٣}.

٣- إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه وهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء فقط.

رجوع للفهرس

٤- مرتبة التحدث وهذه دون مرتبة الوحى وتكون دون مرتبته الصديقين كما كانت لعمر بن الخطاب كما قال النبى صلى الله عليه وسلم "إنه كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب.

والمحدث: هو الذى يحدث فى سره وقلبه بالشيئ فيكون كما يحدث به. والصديق أكمل من المحدث لأنه استغنى بكمال صِدِيقته ومتابعته عن التحديث والالهام فإنه قد سلم قلبه وسره وظاهره وباطنه للرسول فاستغنى به عما منه ومرتبة الصِدِيقية فوق مرتبة التحديث.

٥- الإفهام وكانت لداود وسليمان. كما فى قوله تعالى " وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ {الأنبياء/٧٨} فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ "{الأنبياء/٧٩}.

٦- البيان العام وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه بحيث يصير مشهوداً للقلب كشهود العين للمرئيات. وهذه هى حجة الله على خلقه التى لا

رجوع للفهرس

يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها قال الله تعالى: " وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" {التوبة/١١٥} .

٧- البيان الخاص وهو المستلزم للهداية الخاصة وقال الله تعالى " إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" {القصص/٥٦} .

٨- السماع: قال الله تعالى: " وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ" {الأنفال/٢٣}، وقوله " وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ {فاطر/١٩} وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ {فاطر/٢٠} وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ {فاطر/٢١} وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ {فاطر/٢٢} إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ {فاطر/٢٣}". وهذا السماع لقيام الحجة ولا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه.

٩- الإلهام: قال الله تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا {الشمس/٧} فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا {الشمس/٨}" ، والإلهام عام للمؤمنين يحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد

رجوع للفهرس

ألهمه الله رُشدهِ الذى حصل له به الإيمان. والإلهام على ثلاث درجات.

الدرجة الأولى: نبأ يقع وحياً قاطعاً مقروناً بسماع إذ يطلق النبأ الخبر الذى له شأن فليس كل خبر نبأ وهو نبأ خبر عن غيب معظم. ويريد بالوحى والإلهام: الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه وإما بواسطة سمع أو هو الإعلام بلا واسطة وحصوله بواسطة سمع فليس إلهاماً بل هو الخطاب وهو للأنبياء وخص الله به نبيه موسى عليه السلام وخاطب الله به موسى. وما تبع من سماع فأعلاها مخاطبة الملك خطاباً جزئياً ويقع لغير الأنبياء مثل عمران بن حصين وله نوعان خطاب يسمعه بأذنه وهو نادر بالنسبة لعموم المؤمنين والآخر خطاب يلقى فى القلب يخاطب الملك روحه كما فى قوله تعالى " إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ {الأنفال/١٢} فقد قوت الملائكة قلوب المؤمنين وبشروهم بالنصر وقيل إن الملائكة حضرت القتال والقولان حق فإن الملائكة حضرت

رجوع للفهرس

القتال وثبتت المؤمنين. ومن هذا الخطاب واعظ الله فى قلوب عباده المؤمنين وهو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة وأما وقوعه بغير واسطة فلم يتبين بعد والنوع الآخر من الخطاب هو خطاب الهواتف من الحق وقد يكون جنياً صالحاً أو شيطان وهو إما خطاباً يسمعه بأذنه أو يلقى فى قلبه عندما يلم به ويعد الإنسى ويمنيه ويأمره وينهاه كما قال الله تعالى " الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {البقرة/٢٦٨} وقوله " يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا {النساء/١٢٠}. وللقلب خطاب وللأذن نصيب والعصمة منتفية إلا عن الرسل ومجموع الأمة. والنوع الثالث من الخطاب خطاب حالى تكون بدايته من النفس وعودة إليها فيتوهمه من خارج وإنما هو من نفسه منها بدأ وإليها يعود. ويحدث للسالك فيغلط فيه ويعتقد أنه خطاب من الله كلمه به منه إليه وهذا غلط ولكن سماع الخطاب فى نفسه وليس من الخارج ومن سمع نفسه غيرها فإنما هو غرور وخدع وتلبيس.

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: إلهام يقع عياناً وعلامة صحته أنه لا يخرق ستراً ولا يجاوز حداً ولا يخطئ أبداً.

والمراد أنه لا يخرق ما ستره الله من نفسه عن الناس بل يستر نفسه ويستر من كوشف بحاله ولا يتجاوز به إلى حد إرتكاب المعاصى وتجاوز حدود الله مثل الكهان وأصحاب الكشف الشيطانى أو لا يقع على خلاف الحدود الشرعية مثل التجسس على العورات فإذا تتبعها كان شيطانى لا رحمانى. وهذا الإلهام لا يخطئ أبداً بخلاف الشيطان فخطأه كثير.

الدرجة الثالثة: إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً وينطلق عن عين الأول محضاً والإلهام غاية تمتنع الإشارة إليها. وحاصل هذا الإلهام أنه إلهام ترتفع معه الوسائط وتضمحل وتنعدم لكن فى الشهود لا فى الوجود.

١٠- الرؤيا الصادقة وهى من أجزاء النبوة "الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة" (أخرجه البخارى عن أبى سعيد) ورؤيا الصديقين من ستة وأربعين ورؤيا المؤمنين من سبعين والله أعلم ومن أراد أن تصدُق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال والمحافظة

رجوع للفهرس

على الأمر والنهى ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة ويذكر الله حتى تغلبه عيناه فإن رؤياه لا تكاد وتكذب وأصدق الرؤيا رؤيا الأسحار وعكسه رؤيا العتمة، وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه "رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام".

إشتمال الفاتحة على شفاء القلوب وشفاء الأبدان:

ويشتمل شفاء القلوب واعتلالها وأسقامها على أصلين فساد العلم وفساد القصد ويترتب على ذلك داءان قاتلان وهما الضلال والغضب فالضلال نتيجة فساد العلم والغضب نتيجة فساد القصد فهداية الصراط المستقيم تتضمن الشفاء من مرض الضلال وسؤال الهداية أفرض دعاء على كل عبد كل يوم وليلة.

وتحقيق (إياك نعبد وإياك نستعين) علماً ومعرفة وعملاً وحالاً يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد وأما فساد القصد فيتعلق بالغايات والوسائل فمن طلب غاية منقطعة فانية وتوسل إليها بالوسائل الموصلة إليها كان قصده فاسداً كالمشركين ومتبعى الشهوات وأما أصحاب

رجوع للفهرس

الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان حقاً أو باطلاً وإن كان الحق معارضاً لهم طحنوه وداسوه بأرجلهم وإن كان ناصراً لهم صالوا به وجالوا وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق بل لموافقته غرَضهم وأهوائهم وانتصارهم به وأما من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ولم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة إليه بل توسل بالوسيلة ظناً منه بهذه الوسيلة فهو فاسد القصد ولا شفاء من هذا إلا بدواء "إياك نعبد وإياك نستعين) وهذا الدواء مركب: من عبودية الله لا غيره- الأمر والشرع –لا للهوى – لا بآراء الرجال وأوضاعهم ورسومهم وأفكارهم – الاستعانة على عبوديته به – لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره.

ومرض القلب هما الرياء والكبر فدواء الرياء "إياك نعبد" ودواء الكبر "إياك نستعين" كما قالها ابن تيمية. ومرض الضلال والجهل بـ "اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ".

إشتمال الفاتحة على جميع معانى القرآن:

وسر الخلق والأمر والكتب والشرائع والثواب والعقاب وأنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب جمع معانيها فى التوراة

رجوع للفهرس

والإنجيل والقرآن وجمع معانى هذه الكتب الثلاث فى القرآن وجمع معانى القرآن فى المفصل وجمع معانى المفصل فى الفاتحة ومعانى الفاتحة فى "إياك نعبد وإياك نستعين" وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين فنصفهما له تعالى وهو إياك نعبد ونصفهما لعبده وهو "إياك نستعين" والعبادة تشتمل فى أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع والتعبد هو التذلل والخضوع فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً.

والاستعانة تشمل أصلين الثقة بالله والاعتماد عليه فإن العبد قد يثق بأحد من الناس ولا يعتمد عليه وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه لعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به.

والتوكل يأتى من أصلين: الثقة والاعتماد وهو حقيقة "إياك نعبد وإياك نستعين" وهذا الأصلان هما التوكل والعبادة وقد ذكر فى القرآن فى عدة مواضع وفرق بينهما. وتقديم العبادة على الاستعانة فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على

رجوع للفهرس

الوسائل إذ العبادة غاية العُباد والاستعانة الوسيلة إليها ولأنه "إياك نعبد" يتعلق بألوهيته وإسمه "الله" و "إياك نستعين" متعلق بربوبيته وإسمه الرب فقدم "إياك نعبد" على "إياك نستعين" كما قدم اسم الله على الرب فى أول السورة "وإياك نعبد" قسم الرب وهو الثناء على الله "وإياك نستعين" قسم العبد فكان من الشطر الذى للعبد وهو "اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {الفاتحة/٦} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ" {الفاتحة/٧}.

والعبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس فكل عابد لله عبودية تامة مستعين ولا ينعكس والاستعانة جزء من العبادة من غير عكس والاستعانة طلب منه والعبادة طلب له والعبادة طلب له والعبادة لا تكون إلا من مخلص والاستعانة تكون من مخلص وغير مخلص.

تقسيم الناس إلى أهل عبادة ومعرِضون:

فالناس فى هذين الأصلين وهما العبادة والاستعانة:

١ـ أجلّها وأفضلها أهل العبادة والاستعانة بالله عليها فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يُعينُهم عليها

رجوع للفهرس

مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم "يا معاذ والله إنى لأُحبك وأوصيك لتدعُن فى دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (صحيح الجامع الصغير ٧٩٦٩ عن معاذ بن جبل).

وقال ابن تيمية أنفع الدعاء سؤال العون على مرضاته وهو فى الفاتحة فى "إياك نعبد وإياك نستيعن".

٢- المعرضون عن العبادة والاستعانة به فلا عبادة ولا استعانة بل إن سأل أحدهم واستعان به فعلى حظوظه وشهوته لا مرضاة ربه فسبحانه يمد أولياؤه وأعداؤه وأعطى إبليس حاجته ولم تكن لمرضاة ربه فكانت زيادة فى شقوته وبعده عن الله. وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه لم يكون عوناً على طاعته كان مبعداً له عن مرضاته وليعلم العاقل أن إجابة الله لسائليه ليست لكرامة السائل عليه بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له لهلاكه وشقوته ولهوانه على الله ويمنعه لكرامته ومحبته وحفظاً له لا بخلاً فاحذر أن تسأل شيئاً معيناً خيرته وعاقبته مُغيبة عنك وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة من

رجوع للفهرس

لا علم له بمصالحه ولا قدرة له عليها ولا اهتداء له إلى تفاصيلها ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وإذا أعطاك بلا سؤال تسأل أن يجعلهُ عوناً لك على طاعته ومرضاته ولكن العطاء والمنع ابتلاء وامتحان لعباده أيشكر فيعطى فوق ذلك أو يكفر فيسلب.

٣- العبادة بلا استعانة وهما نوعان: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره ولم يبق فى مقدوره إعانة على فعل ونوع لهم عبادات وأوراد ولكنهم ناقصى التوكل والاستعانة ولم تتسع قلوبهم لإرتباط الأسباب بالقدر وقد قل نصيبهم من "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" {الفاتحة/٥} ولهم نصيب بحسب استعانتهم وتوكلهم ولهم من الخذلان والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه وكان مأموراً بإزالته لأزاله.

معنى التوكل والاستعانة هو حال القلب ينشأ عن معرفته بالله والإيمان بتفرده بالخلق والضر والنفع وأنه ما شاء كان

رجوع للفهرس

وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن ولو شاء الناس ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه.

٤- تفرد الله بالنفع والضر وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولم يرد ما يحبه ويرضاه فتوكل عليه واستعان به على شهواته وأغراضه وطلبها منه فقضيت له سواء كانت أموالاً أم غيرها فهذا ميسر ومعطى للبر والفاجر والمؤمن والكافر فمن استدل بذلك على محبة الله ورضاه عنه كان من أجهل الجاهلين وأبعدهم عن معرفة ربه فالمال فى الدنيا كالمُلك والمال إن أعانه على طاعة الله ومرضاته وتنفيذ أوامره الحقة بالملوك العادلين وإلا فهو وبال على صاحبه ومبعد له عن الله وملحقه بالأغنياء الظلمة والأغنياء الفجرة.

التحقق بـ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ"

التحقق بأمرين هما متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وإخلاص للمعبود

وينقسم الناس إلى ما يأتى:

رجوع للفهرس

١- أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة وهم أهل "إياك نعبُدُ " فأعمالهم وأقوالهم وعطائهم ومنعهم وحبهم وبغضهم لله وحد لا يريدون من الناس جزاءاً ولا شكوراً وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ولما يحبه ويرضاه، وهذا العمل لا يقبل الله من عامل سواه.

٢- من لا إخلاص ولا متابعة له فعمله ليس موافقاً للشرع ولا خالصاً للمعبود كالمرائين وهم شرار الخلق وأمقتهم لله فإنهم يرتكبون البدع والضلالات والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه فهم أهل الغضب والضلال.

٣- مخلص فى عمله غير متابع الأمر كجهال العباد والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر وكل من عبد الله بغير أمره معتقداً بأن عبادته قربة إلى الله كمواصلة صوم النهار بالليل قربة وصيام يوم فطر الناس.

٤- عامل على متابعة الأمر لغير الله كالمرائين ظاهر أعمالهم صالحة لكنها غير صالحة فلا تقبل والعبادة تكون

رجوع للفهرس

بأمر الله والإخلاص له وهم أهل "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ".

فضل أهل مقام " إِيَّاكَ نَعْبُدُ "

الصنف الأول: عندهم أنفع العبادات وأفضلها أشقها على النفوس وأصعبها لأنها أبعد الأشياء عن هواها وهو حقيقة التعبد وقالوا أيضاً الأجر على قدر المشقة وهم أهل المجاهدات والجور على النفوس لأنها لا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق.

الصنف الثانى: أفضل العبادات التجرد والزهد فى الدنيا والتقليل منها غاية الإمكان وطرح الاهتمام بها وعدم الإكتراث بكل ما هو منها والعوام منهم عملوا بذلك ودعوا الناس إليه وهو أفضل من العلم والعبادة ورأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة.

والخواص منهم يرون أن عكوف القلب على الله وجمع الهمة عليه وتفريغ القلب لمحبته والإنابة إليه والتوكل عليه ومرضاته وأفضل العبادات فى الجمعية على الله ودوام ذكره بالقلب واللسان ومراقبته بدون تفرق القلب عن الله.

رجوع للفهرس

والعارفون منهم يبادرون بالأمر والنهى ولو فرق جمعهم والمنحرفون منهم يجتمعون على الله ولا يتفرقون وإذا جاءهم ما يفرقهم على الله ولم يلتفتوا إليه فمنهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته ومنهم من يقوم بها ويترك السنن والنوافل وتعلم العلم النافع.

الصنف الثالث: رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدد فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر كخدمة الفقراء والاشتغال بمصالح الناس ومساعدتهم فعملوا بذلك محتجين بأن عمل العابد قاصر على نفسه وعمل النافع متعد إلى الغير وفى الحديث "لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم" (أخرجه البخارى حـ٤/٢٩٤٢ من حديث عن سهل بن سعد) واحتجوا بأن صاحب العبادة فى الحديث "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (صحيح الجامع الصغير ٧٩٣ عن أبى هريرة). واحتجوا بالأنبياء إنما بعثوا لهداية لناس ونفعهم ولم يبعثوا بالخلوات والترهب والانقطاع عن

رجوع للفهرس

الناس وأنكر النبى صلى الله عليه وسلم على النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد.

الصنف الرابع: أفضل العمل مرضاة الرب فى كل وقت بما يقتضيه الوقت فأفضل العبادات فى وقت الجهاد هو الجهاد وإن آل إلى ترك الأوراد من الصلاة والصيام وترك إتمام الصلاة، والأفضل فى وقت حضور الضيف القيام بواجبه عن الاشتغال بالورد وفى أداء حق الزوجة والأهل والأفضل فى أوقات السحر هو الصلاة والقرآن والدعاء والذكر والاستغفار والأفضل فى وقت استرشاد الطالب وتعليم الجاهل الإقبال على تعليمه. والأفضل فى وقت الآذان إجابة المؤذن وترك الورد. والأفضل فى وقت الصلوات الخمس أدائها على الوجه الأكمل بالمبادرة إليها فى أول الوقت فى صلاة الجماعة. والأفضل فى أوقات الضرورة مساعدة المحتاج وإغاثة لهفته عن الورد والخلوة. والأفضل فى وقت قراءة القرآن تدبره وفهمه والاجتماع عليه وتنفيذ أوامره أفضل على إجابة السلطان. والأفضل فى وقت عرفة التضرع والدعاء والذكر دون الصوم. والأفضل فى أيام عشر ذى

رجوع للفهرس

الحجة هو التعبد والذكر والتحميد والتهليل أفضل من الجهاد غير المتعين.

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان الاعتكاف فى المسجد وترك خلطة الناس وأفضل من تعلم العلم وعلمه وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء والأفضل فى وقت مرض أخيك أو موته عيادته وحضور جنازته مقدم على الخلوة. والأفضل فى وقت النوازل وأذاة الناس لك هو الصبر مع الخلطة فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالط ولا يؤذونه والأفضل خلطتهم فى الخير من اعتزالهم فيه واعتزالهم فى الشر فهو أفضل من خلطتهم فيه فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل فى كل وقت وحال: إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق والأصناف التى قبلهم هم أهل التعبد المقيد فهو يعبد الله على وجه واحد وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد يعينه بل يؤثر مرضاة الله

رجوع للفهرس

أين كانت ومداد تعبده عليها متنقلا فى منازل العبودية فهو مع العلماء والعباد والمجاهدين والذاكرين والمتصدقين المحسنين ومع العاكفين على الله بقلوبهم لم يتقيد بالقيود وعمله على غير مراد نفسه بل هو مراد ربه فهذا هو المتحقق بـ "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" حقاً القائم بها صدقاً مشتغلاً بما أمر الله لا يخالف أمر الله ويغضب إذا انتهكت محارم الله فهو لله وبالله مصاحب لله وصحب الناس بلا نفس غريب بين الناس مستوحش منهم مؤنساً بالله فرحاً به مطمأناً إليه ساكناً إليه والله المستعان وعليه التكلان.

فأصل العبادة محبة الله وإفراده بالمحبة فلا يحب إلا الله ولا يحب سواه ويحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه فمحبتنا لهم من تمام محبته وليس محبة معه متبعاً لأمره مجتنباً نهيه لأنها حقيقة العبودية كما فى قوله تعالى " قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" {آل عمران/٣١} فاتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله وشرطاً لمحبة الله ومتابعة الرسول هى حب الله ورسوله وطاعة أمره ولا يكفى ذلك فى العبودية حتى يكون الله

رجوع للفهرس

ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما فلا يكون عنده شيئ أحب إليه من الله ورسوله ومتى كان شيئ أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله لصاحبه ولا يهديه الله كما فى قوله تعالى " قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ" {التوبة/٢٤} فكل من قدم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله أو قول أحد على قول الرسول أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه أو معاملة أحد على معاملة الله ورسوله فهو ممن ليس الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وقد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه أو طاعته أو مرضاته ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ما قاله الرسول فيطيعه ويحاكم إليه ويتلقى أقواله فهذا معذور إذ لم يقدر على غير ذلك وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول وعرف خطأه ولم يلتفت إلى الرسول ولا من هو أولى به فهذا الذى يخاف عليه وهو

رجوع للفهرس

داخل تحت الوعيد فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله ولم يوافقه على اتباع شيخه فهو من الظلمة المعتدين.

بناء "إياك نعبد"

وبناء ذلك على أربع قواعد: التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح وهم جوامع العبودية فقول القلب هو إعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وملائكته ولقائه على لسان رُسُلِهِ وقول اللسان هو الإخبار عن ذلك والدعوة إليه وبطلان البدع المخالفة وذكره وتبليغ أوامره وعمل القلب هو المحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له وإخلاص الدين له والصبر على أوامره ونواهيه وعلى قدره والرضى به والموالاة والمعاداة فيه والذل والخضوع والإخبات إليه والطمأنينة به وأعمال الجوارح كالصلاة والجهاد وصلاة الجمعة والجماعات ومساعدة العاجز والإحسان إلى الخلق بـ "إياك نعبد" التزام الأحكام السابقة والإقرار بها و"إياك نستعين" طلب الإعانة عليها

رجوع للفهرس

والتوفيق لها و " اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ " يتضمن الأمر وإلهام القيام بهما وسلوك طريق السالكين إلى الله بها.

دعوة الرسل إلى التوحيد والعبادة:

جميع الرسل دعوا إلى " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" ودعوا كلهم إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم.

مقام العبودية:

جعل الله تعالى العبودية ووصف بها أكمل خلقه وأقربهم إليه فى مواضع كثيرة فى القرآن.

لزوم "إياك نعبد" لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى " وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ "{الحجر/٩٩} فالعبد فى عبوديته مادام فى دار التكليف وفى البرزخ عبودية أخرى فى سؤال الملكين والجواب عليهما وفى عبودية أخرى يوم القيامة يوم يدعو الله الخلق للسجود فيسجد المؤمنون ويبقى الكافرون والمنافقون لا يستطيعون السجود وينقطع التكليف فى دار الثواب والعقاب وعبودية أهل الثواب التسبيح بلا تعب ولا نصب ويكفر من زعم أنه

رجوع للفهرس

وصل إلى مقام يسقط عنه التعبد فهو كافر بالله ورسوله وكلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم والواجب عليه منها أكبر من دونه كالواجب على الرسل أعظم على الواجب من أممهم والواجب على أولى العزم أعظم على الواجب من دونهم والواجب على أولى العلم أعظم من الواجب على من دونهم وكل بحسب مرتبته.

إنقسام العبودية:

العبودية نوعان هما: العبودية العامة عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله برهم وفاجرهم ومؤمنهم وكافرهم فهذه عبودية القهر والملك وعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر فالخلق كلهم عبيد ربوبيته وأهل طاعته وولاته هم عبيد إلـهيتهِ.

مراتب "إياك نعبد" علماً وعملاً:

للعبودية مراتب بحسب العلم والعمل ومراتبها العلمية العلم بالله والعلم بالدين والعلم بالله فمراتبه العلم بذاته وصفاته وأفعاله وأسماؤه وتنزيهه عما لا يليق به والعلم بدينه مرتبتان هما دينه الأمر الشرعى وهو الصراط المستقيم

رجوع للفهرس

الموصل إليه والأخرى دينه الجزائى المتضمن الثواب والعقاب والعلم بملائكته وكتبه ورسله ولها مرتبتان مرتبة لأصحاب اليمين ومرتبة للسابقين المقربين ومرتبة أصحاب اليمين هى أداء الواجبات وترك المحرمات مع ارتكاب المباحات وبعض المكروهات وترك بعض المستحبات وأما مرتبة المقربين هى القيام بالواجبات والمندوبات وترك المحرمات والمكروهات زاهدين فيما لا ينفعهم فى معادهم متورعين عما يخافون ضرره وخاصة المقربين هى انقلاب المباحات فى حقهم طاعات قربات بالنية وترك المباحات انشغالاً بالعبادات ويأتونها طاعات وقربات. ولأهل هؤلاء المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله.

قواعد العبودية:

تدور العبودية على خمس عشرة قاعدة من كمَّلها كمل مراتب العبودية، وتنقسم العبودية على القلب واللسان والجوارح وللعبودية أحكامها الخمسة هى واجب ومستحب وحرام ومكروه ومباح فواجب القلب المتفق عليه هو الإخلاص والتوكل والمحبة والصبر والإنابة والخوف

رجوع للفهرس

والرجاء والتصديق الجازم والنية فى العبادة. وإن الإخلاص هو إفراد المعبود غيره ونية العبادة لها مرتبتان هما تمييز العبادة عن العادة وتمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض والأقسام الثلاثة واجبة وكذلك الصدق والفرق بينه وبين الاخلاص:

إن للعبد مطلوباً وطلباً فالإخلاص توحيد مطلوبه والصدق توحيد طلبه والإخلاص أن لا يكون المطلوب منقسماً والصدق أن لا يكون الطلب منقسماً فالصدق بذل الجهد والإخلاص إفراد المطلوب وهذه الأعمال موجبة على القلب والنصح فى العبودية ومدار الدين عليه وهو بذل الجهد فى إيقاع العبودية لمرضاة الرب وهو واجب وكماله مرتبة المقربين والصبر واجب باتفاق الأمة وأما المختلف فيه كالرضا وفى وجوبه قولين للفقهاء والصوفية والقولان لأصحاب أحمد ومن أوجبه قال السخط حرام ولا خلاص عنه إلا بالرضا وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

ومراتب الناس فى المقدور والقدر: أعلاها الرضا وأسفلها السخط والصبر عليه بدون الرضا وهو أوسطها فالأولى

رجوع للفهرس

للمقربين السابقين والثانية للظالمين والثالثة للمقتصدين وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط وهو غير راض به فالرضا أمر آخر.

والمحرمات على القلب هى الكبر والرياء والعجب والحسد والغفلة والنفاق وهو نوعان كفر ومعصية فالكفر كالشك والنفاق والشرك وتراجعها والمعصية نوعان كبائر وصغائر والكبائر كثيرة ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا بإجتنابها والتوبة منها وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد البدن ونشأة ذلك من الجهل بعبودية القلب فوظيفة "إياك نعبد" على القلب قبل الجوراح.

ومن الصغائر شهوة المحرمات وتمنيها وشهوة البدعة فسق وشهوة الكبائر معصية وإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب وان تركها عجزاً بعد بذل المقدور فى تحصيلها استحق عقوبة الفاعل.

عبوديات اللسان:

واجبها النطق بالشهادتين وتلاوة القرآن والتلفظ بالأذكار الواجبة فى الصلاة المأمور بها ورد السلام والأمر

رجوع للفهرس

بالمعروف والنهى عن المنكر من الواجبات ومن المستحبات تلاوة القرآن والذكر ومذاكرة العلم النافع ومحرمات اللسان النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله والقذف والسب وأذى المسلم والكذب وشهادة الزور والقول على الله بغير علم وهو أشد تحريماً.

عبوديات الجوارح:

هى الحواس الخمس وكل حاسة عليها خمس عبوديات.

يشمل السمع على الإنصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما واستماع القرآن وخطبة الجمعة ويحرم استماع الكفر والبدع إلا لرد الشهادة على قائله أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة واستماع من يهرب عنده بسره ولا يحب أن يطلعك عليه ما لم يكن متضمناً حقاَ لله يجب القيام به أو نصحاً لمسلم لرد الأذى عنه وتحذيره منه واستماع أصوات الأجانب من النساء التى تخشى منهم الفتنة إذا لم تدع إليه حاجة من شهادة أو معاملة أو استفتاء أو محاكمة واستماع المعازف والطرب واللهو وآلاته ويجب

رجوع للفهرس

عدم السماع رداً للذرائع ولا يتعمد الشم ولا يجب عليه سد أنفه كالنظرة الفجائية التى لا تحرم وتحرم عليه النظرة الثانية والسماع المستحب من العلم والقرآن والذكر وكل ما يحبه الله وليس بفرض والمكروه استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه.

النظر الواجب فى المصحف وكتب العلم والنظر لتعيين الحلال والحرام والأمانات التى يؤديها إلى أربابها والنظر الحرام إلى الأجنبيات بشهوة مطلقة ولغيرها إلا لحاجة كالخطبة والشاهد والحاكم والطبيب وذى المحرم والمستحب فى النظر فى كتب العلم والدين لزيادة الإيمان والعلم والنظر فى المصاحف ووجوه العلماء والصالحين والوالدين وفى آيات الله المشهودة للدلالة على التوحيد والمكروه فى النظر إلى الذى لا مصلحة فيه والمباح النظر فى الذى لا مضرة ولا منفعة له ومن النظر الحرام النظر إلى العورات وهى عورة الثياب وعورة وراء الأبواب ولو فقه عين الناظر من خلف الأبواب لم يكن عليه شيئ وإن لم يكن سبب للنظر لأجله

رجوع للفهرس

كعورة له هناك أن ينظرها أو ريبة مأمور أو مأذون له بالاطلاع عليها.

الذوق الواجب فهو تناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلا لنفسه وتناول الدواء للشفاء فهو مستحب مباح والذوق الحرام كذوق الخمر والسموم القاتلة والذوق الممنوع منه للصوم الواجب والمكروه هو ذوق المشتبهات والأكل فوق الحاجة وذوق طعام الفجاءة بغير دعوة وأكل أطعمة المرائين فى الولائم والدعوات ونحوها والذوق المستحب أكل ما يعين على طاعة الله مما أذن الله فيه والأكل مع الضيف والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب. والذوق المباح ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

والشم الواجب للتمييز بين الحلال والحرام كشم الخبيثة من الطيبة والشم الحرام كتعمد شم الطيب فى الإحرام والطيب المغصوب والمسروق وشم الطيب من النساء والأجنبيات.

والشم المستحب ما يعين على طاعة الله ويقوى الحواس والنفس للعلم والعمل كهدية الطيب والريحان والشم المكروه

رجوع للفهرس

شم طيب الظلمة وأصحاب الشهوات والشم المباح ما لا منع فيه من الله ولا فيه مصلحة دينية ولا تعلق له بالشرع.

واللمس الواجب كلمس الزوجة عند الجماع واللمس الحرام هو لمس ما لا يحل من الأجنبيات والمستحب إذا كان فيه غض بصره وكف نفسه عن الحرام وإعفاف أهله واللمس المكروه لمس الزوجة فى الإحرام للذة وفى الاعتكاف وفى الصيام إذا لم يأمن على نفسه ولمس بدن الميت لغير غاسله، والمشى بالرجل للتكسب المقدور للنفقة على النفس والأهل والعيال فهو واجب ولقضاء الدين ومن البطش الواجب إعانة المضطر ورمى الجمار والوضوء والتيمم والبطش المحرم قتل النفس بغير حق ونهب المال المعصوم وضرب ما لا يحل ضربه واللعب بالمحرم وكتابة البدع وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف والتشبه بالنساء الأجنبيات وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين وكتابة الفتوى بما يخالف حكم الشرع إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً فلا إثم عليه والمكروه العبث واللعب الذى ليس بحرام وكتابة ما لا فائدة فى كتابته ولا منفعة له فى الدنيا والآخرة.

رجوع للفهرس

والمستحب كتابة كل ما فيه منفعة فى الدين ومصلحة للمسلم والإحسان بيده يعين صانعاً أو يعين على حمل دابة أو معاونة المحتاج بيده ولمس الركن بيده فى الطواف وفى تقبيلها بعد اللمس وفيه قولان.

المشى الواجب للجماعات والجمع وحول البيت للطواف والسعى بين الصفا والمروة والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه والمشى لصلة الرحم وبر الوالدين والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه والمشى إلى الحج ما لم يكن فيه ضرر والمشى الحرام إلى معصية الله. والركوب المستحب فى الغزو والجهاد والحج الواجب والمستحب فى طلب العلم وصلة الرحم وبر الوالدين والوقوف بعرفة والمحرم فى الركوب لمعصية الله والمكروه للهو واللعب وكل ما تركه خير من فعله والمباح ما لم يتضمن فوت أجر ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء هى القلب واللسان والسمع والبصر والأنف والفم واليد والرجل والفرج والاستواء على ظهر الدابة.

رجوع للفهرس

منازل "إياك نعبُد" :

منازل "إياك نعبُد" التى ينتقل القلب منزلة فى حال سيره إلى الله وقد أكثر الناس فى صفة المنازل وعددها فمنهم من جعلها ألفاً ومنهم من جعلها مائة ومنهم من زاد ونقص فكل بحسب سيره وسلوكه، وفيما يأتى أمراً مختصراً جامعاً نافعاً إن شاء الله تعالى.

أول منازل العبودية اليقظة:

المرتبة الأولى: اليقظة وهى إنزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين وما أنفع هذه الروعة وما أعظم قدرها فتعين على السلوك ومن أحسن بها فقد فلح وإلا فهو فى سكرات الغفلة فإذا انتبه وشمر للسفر إلى منازله الأولى فاستعد للسفر فينتقل إلى منزلة العزم عاقداً العقد على المسير ومفارقة كل قاطع ومرافقة كل معين وموصل وبحسب قوة العزم يكون الاستعداد وإذا استيقظ القلب وجبت له الفكرة وهى تحديق القلب نحو المطلوب وإذا صلحت الفكرة وجبت البصيرة وهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد والجنة والنار وما أعد الله لأوليائه وأعدائه فأبصر

رجوع للفهرس

الناس يخرجون من قبورهم وتحيط بهم الملائكة وجاء الله ونصب الكرسى للقضاء وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيئ بالنبيين والشهداء ونصب الميزان وتطايرت الصحف واجتمعت الخصوم وتعلق كل غريم بغيريمه ولاح الحوض وأكوابه وكثر العطش ونصب الجسر للعبور وجمع الناس عليه ونجا بعض وسقط الآخرون فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك.

والبصيرة نور يقذفه الله فى القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل وهى تحقق الانتفاع بالشيئ والتضرر به وقال بعضهم "البصيرة: ما خلصك من الحيرة إما بإيمان وإما بعيان" والبصيرة ثلاث درجات فى الأسماء والصفات وفى الأمر والنهى وفى الوعد والوعيد ومن استكملها فقد استكمل البصيرة فالبصيرة فى الأسماء والصفات أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصف به رسوله وهو شهود القلب والرب مستوياً على عرشه متكلما بأمره ونهيه بصيراً بحركات العالم سميعاً رقيباً موصفاً بصفات الكمال والجلال منزهاً عن العيوب حى قيوم لا يخفى عليه

رجوع للفهرس

شيئ سميع بصير له الخلق والأمر وله النعمة والفضل وله الملك والحمد وله الثناء والمجد خلق الخلق لتوحيده وأسبغ عليهم نِعمهِ ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته تعرف على عباده بأنواع التعرفات والآيات والدلائل ودعاهم إلى محبته وكتب على نفسه الرحمة ويتفاوت الناس فى البصيرة بحسب العلم وأضعف أهل البصيرة أهل الكلام والباطل المذموم.

المرتبة الثانية: البصيرة فى الأمر والنهى فلا يعارض أمر الله ونهيه ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله وتعرف أهل البصائر من العلماء من غيرهم.

المرتبة الثالثة: البصيرة فى الوعد والوعيد: وهى قيام الله على كل نفس بما كسبت من الخير والشر فى دار العمل ودار الجزاء وذلك موجب إلهيته وربوبيته.

والطريقة الأخرى للبصيرة ما يخلصك من الحيرة وهى ثلاث درجات:

١- أن الخير القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لا يخاف عواقبها فيؤديه يقيناً وتغضب له غيرة. وقال شيخ الاسلام من تمام البصيرة المعرفة بالحق ومستحقة

رجوع للفهرس

ومحبته وإجلاله والغيرة عليه أن يضيع والغضب على من أضاعه وتلك عين البصيرة والغيرة على حقوق الله إذا ضيعت ومحارمه إذا انتهكت.

٢- شهود هداية الحق وإضلاله ويريد رحمة الله فى هداية من يهديه وإضلال من أضله وهو الله المتفرد بالخلق والهدى والضلال.

٣- تفجر المعرفة وتثبت الإشارة وتنبت الفراسة وتتفجر البصيرة من القلب وتثبت الإشارة وهو ما يشير إليه القوم من الأحوال ويثبتها أهل البصائر ولم يكن له بصيرة كان جاهلاً.

وتنبت الفراسة ويعنى أن البصيرة تنبت فى القلب الفراسة الصادقة وهو نور يقذفه الله فى القلب يفرق بين الحق والباطل والصادق والكاذب.

منزلة القصد:

فإذا انتبه وأبصر أخذ فى القصد وصدق الإرادة وأجمع القصد والهجرة لله وتعبئة الزاد ليوم المعاد وقطع العلاقة التى تمنعه من الخروج وهى ثلاث درجات:

رجوع للفهرس

الدرجة الأولى: التخلص من التردد ومجانبة الأغراض ويبعث ذلك على عدم التردد والعبودية متجنباً الرياء والسمعة والحمد والجاه.

الدرجة الثالنية: قصداً لا يلقى سبباً إلا قطعه ولا حائلاً إلا منعه ولا تحاملاً إلا سهله.

الدرجة الثالثة: الاستسلام لتهذيب العلم وإجابة داعى الحكم وهو الانقياد للعلم ليتهذب به ويصلحه وإجابة الحكم الدينى كلما دعاه متمسكاً بحكم الله.

المقامات:

- التوبة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف فهما متلازمان.

- التوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى وهى متلازمة مع بعضها

- الرجاء جامع لمقام الخوف والإرادة.

- الخوف جامع لمقام الرجاء والإرادة.

- الإنابة جامعة لمقام المحبة والخشية وهما متلازمان.

رجوع للفهرس

- الإخبات جامع لمقام المحبة والذل والخضوع ومكملة لبعضها.

- الزهد جامع لمقام الرغبة والرهبة والزاهد يرغب فيما يرجو نفعه ويرهب مما يخاف ضرره.

- المحبة جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة.

- الخشية جامع لمقام المعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته فمن عرف الله اشتدت خشيته.

- مقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

- مقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان وأرفعها وأعلاها وهو فوق الرضا ويتضمن الصبر. ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء فالإيمان نصفين نصف صبر ونصف شكر والصبر داخل فى الشكر والشاكرون هم أقل العباد.

- مقام الحياء جامع لمقام المعرفة والمراقبة.

- مقام الأنس جامع لمقام الحب مع القرب.

- مقام الصدق جامع للإخلاص والعزم.

رجوع للفهرس

- مقام المراقبة جامع للمعرفة مع الخشية.

- مقام الطمأنينة جامع للإنابة والتوكل والتفويض والرضى والتسليم وكذلك الرغبة والرهبة من الرجاء والخوف.

السالكون نوعان أبرار ومقربون فالأبرار فى أذياله والمقربون فى ذروة سنامه ومنازل العبودية تشير إلى معرفة حدودها ومراتبها ومعرفة ذلك من تمام حدود ما أنزل الله على رسوله ومن لم يعرف ذلك فهو جاهل أو منافق فقال الله تعالى: " الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ "{التوبة/٩٧} .

منازل العبودية:

إن العبد فى نوم الغفلة قلبه نائم وطرفه يقظان وأول المراتب اليقظة والانتباه من النوم ويقول الشيخ هى القومة لله كما فى قوله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ {سبأ/٤٦} وهى اليقظة من سِنة الغفلة والنهوض عن ورطة الفترة وهو استنارة قلب العبد بالحياة

رجوع للفهرس

لرؤية نور التنبيه أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة ليشاهد عظمتها وكثرتها لمشاهدة منة الله عليه بها فيرى تقصيره فى واجبها للقيام بشكرها.

وأما شهود المنة والتقصير من العبودية هى محبة الله واللهج بذكره والخضوع له ومعاتبة نفسه لعجزه عن شكر نعمة الله عليه مصداقاً لحديث سيد الاستغفار "أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" (أخرجه البخارى ٦٣٢٣) عالماً أن الله لو عذب أهل السموات والأرض لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم والعبد سائر إلى الله بين مطالعة المنة ومشاهدة التقصير. والعبد ينظر إلى الجناية واقفاً على الخطر فيها ويتخلص من رقها طالباً النجاة منها ناظراً إلى الإساءة السالف وقوعها منه وأنها خطر عليه مشرفاً على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه كما فى قوله تعالى "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا

رجوع للفهرس

إِذًا أَبَدًا "{الكهف/٥٧}. فإذا علم العبد ذلك هذا التقصير منه بفهم العلم ليتخلص من الجناية بالاستغفار والندم مخلصاً إيمانه من خبث الجناية وهذا يكون فى دار الدنيا بالتوبة والاستغفار وعمل الحسنات الماحيات والمصائب المكفرة فإن تخلص من الجناية كان من المبشرين بالجنة فى قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ {فصلت/٣٠} نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ "{فصلت/٣١} وإن لم تف التوبة والاستغفار وعمل الحسنات والمصائب فلم تكن التوبة والاستغفار النافع وضعف الحسنات ولم يبتلى بالمصائب أو عظم الجناية فيأتى التمحيص للتخلص من الجناية فى البرزخ بالآتى: صلاة أهل الإيمان فى الجنازة بالاستغفار والشفاعة وفتنة القبر وروعة الفتان وعصرة القبر وتوابع ذلك وما يهدى إليه إخوانه المسلمون من هدايا الأعمال من الصدقة والحج والصيام عنه والصلاة وجعل ثواب ذلك له وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء قال الإمام أحمد لا يختلفون فى ذلك

رجوع للفهرس

وماعداها فيه اختلاف والأكثرون بوصول ثواب الحج ويقول أبو حنيفة يصل إليه ثواب الإنفاق وأحمد ومن وافقه ومذهبهم فى ذلك أوسع المذاهب بوصول جميع القرب. وإن لم يمحص فى الدنيا وفى القبر. يمحص بين يدى ربه بأهوال يوم القيامة وشدة الموقف وشفاعة الشافعين وعفو الله عز وجل. فإن لم يمحص يتطهر فى النار ويمكث فيها على حسب خبثه وشدته وضعفه حتى يتطهر ثم يخرج من النار إلى الجنة. ويتيقظ العبد وينتبه من تضييع الأيام فيتدارك ما فاته فى بقية عمره ويبخل بساعاته وبأنفاسه عن ضياعها فى غير ما يقربه إلى الله فإن لم يفعل ذلك كان من الخاسرين المضيعيين لأن كل نفس يخرج فى غير ما يقرب إلى الله فهو حسرة على العبد.

معرفة النعمة: تصفو معرفة النعمة بنور العقل وشيم بروق المنة والإعتبار بأهل البلاء. وحقيقة مشاهدة النعمة فهى النور الذى أوجب اليقظة فاستنار القلب به وعلى حسبه قوة وضعفاً ومن لم ير نعمة الله عليه فليس له نصيب من هذا النور وكذلك شيمه بروق منن الله عليه والنظر إليها

رجوع للفهرس

ومطالعتها والنظر إلى أهل البلاء وهم أهل الغفلة عن الله والابتداع فى دين الله فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً.

والسالك على حسب علمه بمراتب الأعمال تكون معرفته بالزيادة والنقصان فى حالة وإيمانه وإجابة داعى حرمات الله من قلبه بالإسراع والإبطاء تكون زيادة الإيمان ونقصانه.

منزلة المحاسبة:

وهى التمييز ما له وما عليه فيستصحب ماله ويؤدى ما عليه لأنه مسافر سفر من لا يعود. ومن منزلة المحاسبة ينزل إلى منزلة التوبة وحقيقة التوبة تقديم المحاسبة عليها. وتتأخر المحاسبة بعد التوبة أيضاً لأن المحاسبة لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة.

والتحقيق أن التوبة بين محاسبة قبلها تقتضى وجوبها ومحاسبة بعدها وتقتضى حفظها وقد دل على المحاسبة فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ {الحشر/١٨} بنظر ما يقدم العبد لغد ومحاسباً نفسه على ذلك وهل يصح

رجوع للفهرس

ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصح والاستعداد ليوم المعاد بتقديم ما ينجيه من عذاب الله ويبيض وجهه عند الله وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر" وقال الله تعالى "يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ "{الحاقة/١٨}.

أركان المحاسبة:

١ ـ أن تقايس بين نعمتك وجنايتك وهو أن تقايس ما من الله وما منك فيظهر لك التفاوت وتعلم أن ليس إلا عفوه ورحمته أو الهلاك. وبهذه المقايسة تعلم أن كل نعمة من الله فضل عليك وكل نعمة منه عدل والعبد جاهل بنفسه وهذه النفس منبع كل شر وهى النفس الظالمة الجاهلة ولولا هدى الله ما اهتدينا ثم تقايس بين الحسنات والسيئات فتعلم أيهما أكثر وأرجح قدراً وصفة وتتوقف المحاسبة على نور الحكمة وهو العلم الذى يميز به العبد بين الحق والباطل والهدى والضلال والنافع والضار والكامل والناقص والخير والشر ويبصر به مراتب الأعمال وكلما كان حظه من العلم أقوى

رجوع للفهرس

كانت المحاسبة أكمل وأتم. وأما سوء الظن بالنفس فيحتاج إليه لأن حسن الظن يمنع من كمال التفتيش ليرى المساوئ محاسن ولا يسيئ الظن بنفسه إلا من عرفها ومن أحسن الظن بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه. وأما تمييز النعمة من الفتنة ليفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف لتحصيل السعادة وبين نعمة استدراج العبد والفتنة بثناء الجهال عليه مغرور بقضاء الله عليه وستره. ويعرف العبد نعم الله عليه نعمة حقيقية وما فرقه عنه منه فهو البلاء فى صورة النعمة والمحنة فى صورة المنحة فليحذر فإنما هو مستدرج ليميز بين منة الله وحجته وقال الله تعالى " يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ {الحجرات/١٧}، وقوله " قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ {الأنعام/١٤٩}.

٢- التمييز بين ما للحق عليك من العبودية والطاعة واجتناب المعصية وما لك وما عليك فلك المباح الشرعى فعليك حق ولك حق فأد ماعليك يؤتك ما لك.

رجوع للفهرس

٣ـ أن كل طاعة رضيتها منك فهى عليك وكل معصية عيرت بها أخاك فهى إليك ورضاء العبد بطاعته يدل حسن ظنه بنفسه وجهله بحقوق العبودية وعدم إجلال الرب وتعظيمه لأن الرضى بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها. وأرباب العزائم يستغفرون عقب الطاعات لشهود تقصيرهم وترك القيام بإجلال الله والاستغفار ويأتى بعد الطاعات كما فى قوله تعالى "} لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ {البقرة/١٩٨} ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {البقرة/١٩٩}، وقوله " رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ {آل عمران/٨}، وفى الحديث الاستغفار بعد الصلاة ثلاثاً "اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام" (أخرجه مسلم حـ١ مساجد/١٣٥) والاستغفار خاتمة الوضوء والصلاة والحج وقيام الليل وهو شأن العارفين بالله وقال بعض العارفين متى رضيت بنفسك وعملك لله فاعلم

رجوع للفهرس

أنه غير راض به. ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر وعمله عرضة لكل آفة ونقص كيف يرضى لله نفسه وعمله.

مقام التوبة:

ومنازل التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات فالتوبة هى بدايته ونهايته ويذكر القرآن التوبة فى مواضع كثيرة فلا يرجو الفلاح إلا التائبون جعلنا الله منهم وقسم الله العباد إلى تائب وظالم فقال الله تعالى " وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ "{الحجرات/١١} وقال الرسول صلى الله عليه وسلم "لن ينجى أحداً منكم عمله" قالوا "ولا أنت يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل" (أخرجه البخارى حـ١١/٦٤٦٣، ٦٤٦٧ ومسلم حـ٤- منافقين /٧١، ٧٣، ٧٥ من حديث عائشة).

حقيقة التوبة:

التوبة هى رجوع العبد إلى الله ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ويحصل ذلك بهداية الله إلى الصراط المستقيم وبإعانته وتوحيده وتتضمن سورة الفاتحة التوبة

رجوع للفهرس

فمن أعطاها حقها علماً وشهوداً ولا تصح قراءتها على العبودية إلا بالتوبة النصوح والهداية إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ولا مع الإصرار عليها ولا تصح التوبة إلا بعد معرفة الذنب والاعتراف به والتخلص من سوء عواقبه وأن تنظر فى الذنب وانخلاعك من المعصية حين إتيانه وفرحك عند الظفر به وقعودك على الإصرار عن تداركه مع تيقنك نظر الحق إليك وانخلاع العصمة فلو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة والفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه والجهل بسوء العاقبة وفرحه بها غطى عليه وذلك كله والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور به ومتى خلى قلبه من هذا الحزن وفرح بذلك فهو متهم فى إيمانه وموت قلبه فلو كان حياً لأخر به إرتكاب الذنب ولا يهتدى لذلك إلا القليل. والتعود على الإصرار عن تداركه والاستقرار على المخالفة والعزم على المعاودة فهذا ذنب آخر أعظم من الذنب الأول بكثير والإصرار على المعصية معصية أخرى والإصرار والرضى والطمأنينة بالمعصية هى الهلاك والأشد

رجوع للفهرس

من ذلك المجاهرة بالذنب فإن آمن بنظر الرب إليه واطْلاعه عليه فكفر وانسلاخ من الإسلام بالكلية وهى بين قلة الحياء ومجاهرة نظر الله إليه وبين الكفر والانسلاخ من الدين ويشترط فى صحة التوبة تيقنه بنظر الله إليه واطلاعه ويراه عند مواقعته للذنب ولا تصح التوبة إلا من مسلم إلا أن يكون كافراً بنظر الله إليه جاحداً له فتوبته دخوله فى الإسلام وإقراره بصفات الرب.

شروط التوبة:

شروط التوبة: الندم والإقلاع والاعتذار

وحقيقة التوبة: الندم على ما سلف فى الماضى والإقلاع عنه فى الحال والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل ويجتمع الندم والإقلاع والعزم على عدم العود وحينئذ يرجع إلى العبودية التى خُلق لها وهى حقيقة التوبة ولا تتحقق التوبة إلا بالندم. وأما الإقلاع تستحيل التوبة مع مباشرة الذنب. وأما الاعتذار هو إظهار الضعف والسكينة وغلبة العدو وقوة سلطان النفس وليس استهانة بحق الله ولا جهلاً به ولا إنكاراً لاطلاعك عليه والإستهانة بالوعيد وإنما غلبة الهوى

رجوع للفهرس

على النفس وضعف مقاومتها عن الشهوة وطمعاً فى المغفرة والعفو وحسن الظن ورجاء الكرامة وسعة الحلم والرحمة وإن النفس لأمارة بالسوء ولا سبيل إلا بالاعتصام بالله والاعتذار هو الاعتراف فذلك من تمام التوبة.

حقائق التوية:

١- تعظيم الجناية فإذا استهان بها العبد لم يندم عليها وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على إرتكابها.

٢- إتمام التوبة لأنها حق عليه ويؤديها على الوجه المطلوب عليه أن يؤديه فيخاف أن لا يوفيها حقها أو التوبة لعلة للمحافظة على حاله لا خوفاً من الله أو توبة طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ومخافة على عرضهِ ومالهِ ومنصبه أو لضعف الداعى على المعصية فى قلبه أو لمنافاة المعصية فى طلب الرزق والعلم أو أى شيئ يقدح فى التوبة خوفاً من الله وتعظيماً له ولحرماته وإجلال وخشية له والتوبة الصحيحة علاماتها أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها ولا يزال الخوف مصاحباً

رجوع للفهرس

له من مكر الله وانخلاع قلبه وتقطعه ندماً وخوفاً على قدر عظم الجناية وصغرها.

أعذار الخليقة:

المذموم : أن تطلب أعذارهم لحكم القدر عليهم شاءوا أم أبوا وقد أبطل الله هذا ومن له عذر من خلقه كالطفل الذى لا يميز والمعتوه والذى لم تبلغه الدعوة والأصم والأعمى الذى لا يبصر ولا يسمع فهؤلاء لا يعذبهم الله وفى الآخرة يرسل إليهم رسولاً يمتحنهم ويأمرهم وينهاهم فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه دخل النار ولا عذر لأحد فى معصية الله ومخالفة أمره مع علمه بذلك وتمكنه من العقل والترك ولو كان له عذر ما استحق العقوبة واللوم لا فى الدنيا ولا فى العقبى. فإن قيل هذا الكلام بلسان الحال بالشرع ولو نطقت بلسان الحقيقة لعذرت الخليقة وهم صائرون إلى قدر الله فيهم ومن غلب عليه الحكم الشرعى لم يطلب لهم العذر ومن غلب عليه الحكم الكونى لعذرهم والجواب من وجوه:

العذر: إن لم يكن مقبولاً لم يكن نافعاً والاعتذار بالقدر غير مقبول ولا يعذر أحد به ولو اعتذر فهو كلام باطل لا يفيد بل

رجوع للفهرس

يزيد فى ذنب الجانى وغضب الرب عليه وهذا شأن لا يشتغل به عاقل والاعتذار بالقدر يتضمن تنزيه الجانى نفسه، وهو الظالم الجاهل والجهل على القدر نسبة الذنب إليه ومرجع بلائه إلى نفسه ومصابه منها وأنها أولى بكل ذم وظلم ومأوى كل سوء وهو الذى يقطع الطريق على مصالح نفسه فإن كان للقدر حجة لك أيها الظالم الجاهل فى ترك حق ربك فانظر إذا أساء إليك مسيئ وجنى عليك جان واحتج بالقدر لاشتد غضبك عليه وتضاعف جرمه عندك ورأيته حجته داحضة ثم تحتج على ربك به وتراه عذراً لنفسك فمن أولى بالظلم والجاهل ممن هذه حالهُ.

أسرار حقيقة التوبة:

المقصود من التوبة تقوى الله وخوفه وخشيته والقيام بأمره واجتناب نهيه والعمل بطاعة الله على نور منه يرجو ثوابه ويخاف عقابه وينسى الجناية والذنب الذى ارتكبه ويعرض عنه منشغلاً بربه فهذا أولى بالتائب وأنفع له وقيل لا ينسى ذنبه يذكره فى كل وقت فيحدث له انكساراً وذلاً وخضوعاً أنفع له وقالوا لقد نقش داود الخطيئة فى كفه وكان ينظر

رجوع للفهرس

إليها ويبكى وقالوا إذا تهت عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق ومعنى ذلك أنك إذا رجعت لذنبك انكسرت وذللت وخشعت ذليلاً خائفاً وهذه طريق العبودية.

والتوبة من التوبة فهى من المجملات التى يراد بها حق وباطل والتوبة من أعظم الحسنات ولكن يتوب من رؤية التوبة فإنها حصلت له بمنة الله ومشيئته فإن رآها وشهد صدورها وغفل عن منة الله عليه تاب من هذه الرؤية والغفلة. وعليه أن يتوب من هذه الغفلة ويتوب من هذه الجناية كما تاب من الجناية الأولى فما تاب إلا من ذنب أولاً وآخراً. وقد يكون فى التوبة نقص وقد يشعر صاحبها بذلك أو لا يشعر فيتوب من نقصان التوبة وليس هذا من التوبة وإنما هو توبة من عدم التوبة وهناك وجه آخر أنه من حصل له أُنس مع الله وصفا وقته مع الله وأقبل على الله واشتغل بذكر الله وصفاته فيكون ذلك أنفع شيئ له حتى نزل عن هذه الحالة واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها وطالع الجناية واشتغل بها عن الله فهذا نقص ينبغى أن يتوب إلى الله منه وهى توبة من هذه التوبة.

رجوع للفهرس

لطائف أسرار التوبة:

١- النظر إلى الجناية والقضية ويعرف مراد الله فيها اذ خلاك وإتيانها ومرجع ذلك إلى أن يعرف عزته فى قضائه وبره وستره وحلمه فى إمهال راكبه وكرمه فى قبول العذر وفضله فى مغفرته ويقيم عليه الحجة فيعاقبه على ذنبه بحجته.

وإذا صدرت الخطيئة فمرجع ذلك النظر إلى أمر الله ونهيه فيغترف بالخطيئة ويقر بالذنب وينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له خوفاً وخشية تحمله على التوبة وينظر إلى تمكين الله له من الجناية وستره عليه وتقديرها عليه ولو شاء لعصمه منها فيعرف بذلك أسماء الله وصفاته وحكمته ومغفرته وعفوه وحلمه وكرمه فتوجب له عبوديته بهذه الأسماء.

فرح الله بتوبة التائب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلة بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة

رجوع للفهرس

فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ يحطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح" هذا لفظ مسلم (متفق عليه من حديث ابن مسعود أخرجه البخارى حـ١١/٦٣٠٨ ومسلم حـ٤ توبة ٨٠٣). وفى الحديث أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد أو غيظ شديد لا يؤخذ به ولم يكن كافراً به وتأثير الغضب يصل إلى هذه الحال أو أعظم منها فلا يؤاخذ الغضبان بما صدر منه فى حال شدة غضبه ولا يقع طلاقه ولا ردته ولا ينفتح قلب الغاضب لمعنى ما يقوله.

إقامة الحجة على العبد بتبليغ الرسالة:

اعتراف العبد بقيام الحجة عليه من لوازم الإيمان أطاع أم عصى وقد قامت حجة الله على عبده بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وبلوغ ذلك إليه وتمكنه من العلم به سواء علم أم جهل فكل من تمكن من معرفة أمر الله ونهيه فقصد عنه ولم يعرفه فقد قامت عليه الحجة والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا

رجوع للفهرس

بعد قيام الحجة عليه فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه.

توبة الخواص من تضييع الوقت:

إن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة فإذا أضاع الوقت لم يقف موضعه بل ينزل إلى درجات من النقص فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولابد فالعبد فإما سائر إلى فوق أو نازل إلى أسفل فهو أسرع طى إلى الجنة أو النار فمسرع ومبطئ ومتقدم ومتأخر وإنما يتخالفون فى جهة المسير قال الله تعالى " لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ "{المدثر/٣٧} ولم يذكر واقفاً فلا منزل بين الجنة والنار فمن لم يتقدم إلى الجنة بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى النار بالأعمال السيئة وكل مجد له وقفة وفتور ثم ينهض إلى طلبه ولصاحب الوقفة له حالان إما أن يقف ليجم نفسه ويعدها للسير فهذا وقفته سير ولا تضره الوقفة وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه فإن أجابه أخره فإن تداركه الله برحمته نهض نهضة الغضبان واشتد سعيه ليلحق الركب وان استمر مع داعى التأخير وأصفى إليه وأجاب داعى

رجوع للفهرس

الهوى حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دركاً فإن خلصه من عدوه وجذبه وإلا فهو فى تأخر إلى الممات.

النفس الأمارة بالسوء:

ينظر العبد فى الذنب إلى أمور: نظر إلى الأمر والنهى ونظر إلى حكم القضاء والنظر إلى محل الجناية ومصدرها وهى النفس الأمارة بالسوء ويعرف أنها جاهلة ظالمة وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح ومن وصفه الجهل والظلم يلزم له العلم ليخرج عن هذا الجهل والعمل الصالح يخرجه عن الظلم ومن عرف حقيقة نفسه وما طبعت عليه أنها منبع كل شر وسوء وأن كل خير فيها ففضل من الله مَنَّ به عليها لم يكن منها فالفضل والنعمة من الله على العبد ليكون من الراشدين ومن أحسن المعالم للعبد وأنفعها هو الاستغفار.

تدرج الشيطان فى الإغواء:

والنظر الرابع فى الأمر بالمعصية هو الشيطان الموكل به فيتخذه عدواً ويتحفظ منه. وعقبات الشيطان منها عقبة الكفر بالله وبدِينهِ ولقائهِ فإذا يئس منها انتقل إلى عقبة

رجوع للفهرس

البدعة باعتقاد خلاف الحق الذى أرسل به رسوله وأنزل كتابه أو التعبد بما لم يأذن به الله فإذا يئس منها انتقل إلى عقبة الكبائر فزينها له قائلاً له لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك حسنة فإن يئس منها انتقل إلى عقبة الصغائر قائلاً ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللمم أو ما عملت بأنها تكفر باجتناب الكبائر وبالحسنات ويهون عليه أمرها حتى يصر عليها فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالاً منه. فالإصرار على الذنب أقبح منه ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار فإذا يئس منها انتقل إلى عقبة المباحات ليشغل العبد بها عن الاستكثار من الطاعات وترك السنن ثم ترك الواجبات ليفوت عليه المنازل العالية باكتساب الحسنات فإذا يئس من ذلك انتقل إلى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات فأمره بها وحسنها له وزينها له وأداء ما فيها من الفضل والربح لشغله عما هو أفضل منها وأعظم كسباً وربحاً لأنه لما عجز عن تخسير أصل الثواب طمع فى تخسير كماله وفضله فشغله بالمفضول عن الفاضل وبالمرجوح عن الراجح وبالمحبوب لله عن الأحب إليه وبالمرضى عن

رجوع للفهرس

الأرضى له فإن نجا من هذه العقبة بفقه الأعمال ومراتبها عند الله ومعرفة مقاديرها ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم السائرين على جادة التوفيق فإذا نجا منها لم يبق له عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤها وأكرم الخلق عليه والتخلص من هذه العقبة فى الاستقامة والدعوة إلى الله والقيام بالأمر ومحاربة عدو الله فبعبوديته فيها عبودية خواص العارفين فمن تعبد لله بمراغمة عدوه فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر محباً لربه معاديا لعدوه.

تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه:

إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها فمتى أخرها عصى بالتأخير فإن تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى وهى توبته من تأخير التوبة وقل أن تخطر هذه ببال التائب بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيئ آخر وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم فإن

رجوع للفهرس

ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه وفى الحديث "اللهم اغفر لى ذنبى كله دقه وجله وخطأه وعمده وسره وعلانيته أوله وآخره" (أخرجه مسلم حـ١ صلاة/٢١٦ ، وأبوداود حـ١/٨٧٨ كلاهما من حديث أبى هريرة).

التوبة من ذنب دون آخر:

هل تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره

إن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على آخر من نوعه وأما التوبة من ذنب مع مباشرة آخر لا تعلق له به ولا هو من نوعه فتصح كمن إذا تاب من الربا ولم يتب من شرب الخمر فإن توبته من الربا صحيحة وأما إذا تاب من ربا الفضل ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليها أو بالعكس أو تاب من شرب الحشيشة وأصر على شرب الخمر أو بالعكس فلا تصح توبته كمن يتوب عن الزنا بإمرأة ويزنى بغيرها فهو غير تائب فالحقيقة لم يتب من الذنب وإنما عدل عن نوع إلى نوع آخر أو بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها فى الجنس لأى سبب فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس والسرقة وأكل أموال اليتامى ولم يتب من

رجوع للفهرس

شرب الخمر والفاحشة صحت توبته مما تاب منه ولم يؤاخذ به وبقى مؤاخذاً بما هو مصر عليه والله أعلم.

أحكام التوبة:

من أحكام التوبة أن لا يعود إلى الذنب أبداً أم ليس ذلك شرط.

قال بعض الناس عدم معاودة الذنب وإن عاد كانت التوبة باطلة غير صحيحة وقال الأكثرون إن صحة التوبة تتوقف على الإقلاع على الذنب والندم عليه والعزم الجارم على ترك معاودته وإذا تاب العبد من الذنب ثم عاوده بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن كان مصراً أو إن ذلك قد بطل بالكلية فلا يعود إليه إثمه وإنما يعاقب على الأخير فهناك قولان:

١- يعود إليه إثم الذنب الأول لفساد التوبة وبطلانها بمعاودتها لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة كما يشير الحديث: "من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن

رجوع للفهرس

أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر" (أخرجه البخارى حـ٦٩٢١/١٢ وابن ماجه حـ٤٢٤٢/٢ كلاهما عن بن مسعود).

فهذا حال من أسلم وأساء إسلامه ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإسلام فإذا أخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق كما لا تمنع الإثم اللاحق لأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها والموافاة عليها كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره وقالوا إن التوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر فوقتها مدة العمر فهى بالنسبة للعمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم فإذا أمسك معظم النهار ثم نقص إمساكه بالمفطرات بطل ما تقدم من صيامه ولم يعتد به.

واستقرت قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع ومنها ما يحبطها بالنص – جاز أن تحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة فتصير التوبة كأن لم تكن فليتقى العملان ولا حاجز بينهما فيكون التأثير لهما جميعاً ويدل

رجوع للفهرس

القرآن والسنة وإجماع السلف على الموازنة بإعتبار الراجح وقال ابن مسعود: يحاسب الناس يوم القيامة فمن كانت سيئاته أكبر من حسناته بواحدة دخل النار ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته دخل الجنة ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف وهناك قولان للقائلين بالموازنة إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة فيثاب على الحسنات كلها أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات فلا يثاب عليه ولا يعاقب على تلك السيئات فيبقى القدر الزائد لا مقابل له فيثاب عليه وحده وإن رجحت السيئات بواحدة هل يدخل النار بتلك الواحدة التى سلمت عن مقابل أو بكل السيئات التى رجحت على القولين هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم.

هل يعود الذنب إذا رجع إليه بعد التوبة منه:

قالوا بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة لارتفاع ذلك الإثم بالتوبة وصار بمنزلة من لم يعمله وكأن لم يكن وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات بل إذا ندم وأقلع وعزم

رجوع للفهرس

على الترك مُحى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك فإن استأنفه استأنف إثم الذنب والتوبة من أكبر الحسنات فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات وهذا باطل قطعاً وقالوا إن استمرار التوبة شرط فى صحة كمالها ونفعها لا شرط فى صحة ما مضى وليست كالعبادات التى لا تقبل إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها وأما التوبة فهى عبادات متعددة بتلك الذنوب فكل ذنب له توبة تخصه فإذا أتى بعبادة وترك أخرى لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل وأن التوبة المتقدمة حسنة ومعاودة الذنب سيئة فلا تبطل معاودته هذه الحسنة كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات ومعاودة الذنب مبغوض لله من جهة معاودة الذنب محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ولا يظلم مثقال ذرة.

توبة العاجز عن الذنب:

وإذا استغرقت سيئاته الحديثة حسناته القديمة وأبطلتها ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة عادت إليه حسناته ويقال له تبت على ما أسلفت من خير.

رجوع للفهرس

التوبة وخطر الإصرار والتسويف:

ومن أحكامها إن العاصى إذا حيل بينة وبين أسباب المعصية وعجز عن فعلها فهل تصح توبته فهذا كالكاذب والقاذف وشاهد الزور والسارق ومن وصل إلى حد بطلت دواعى المعصية التى كان يرتكبها فهذا قولان الأول: لا تصح توبته لأن التوبة تكون ممن يمكنه الفعل والترك ولأن التوبة فى لغة دواعى النفس وإجابة داعى الحق وهذا كالمكره على الترك قهراً ولا تصح توبته وإن المستقر فى فطر الناس أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائج (المصائب) غير معتبرة ولا يحمدون عليها ويدل على ذلك قول الله تعالى " إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً {النساء/١٧} وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {النساء/١٨}، وأجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل من عصى الله جاهل (قول قتادة).

رجوع للفهرس

وأما التوبة من قريب فجمهور المُفسرين على أن التوبة قبل الموت وقبل معاينة ملك الموت وقال السدى والكلبى: أن يتوب فى صحته قبل مرض الموت وفى الحديث "إن الله يقبل التوبة ما لم يغرغر" (أخرجه الترمذى ج٥/٣٥٣٧ عن ابن عمر).

والقول الثانى وهو الصواب أن توبته صحيحة ممكنه بل دافعة لإجتماع أركان التوبة فيه والمقدور له منها الندم وفى الحديث "الندم توبة" فإذا تحقق ندمه على الذنب فهو تائب.

توبة العامة ومفاسدها عند الخاصة:

يقول صاحب المنازل: "فتوبة العامة: الاستكثار من الطاعة. وهو يدعو إلى جحود نعمة الستر والإمهال ورؤية الحق على الله والاستغناء الذى هو عين الجبروت والتوثب على الله"

وتوبة العامة مدخولة عند الخواص منقوصة وتوبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات ويتضمن ثلاث مفاسد عند الخاصة.

رجوع للفهرس

الأولى: حسناتهم التى يأتون بها سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة وهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم باستكثارها بدون مطالعة عيب النفس والعمل معجبون بطاعاتهم الكثيرة بدون الحضور والمراقبة والجمعية فى العمل وخف عليه واستكثر منه فكثر فى عينه وصار بمنزلة العادة دون تخليص نفسه من الشوائب وتنقيتها من الكدر وما فى ذلك من شوك الرياء والإعجاب وجمعية القلب والهم على الله بكليته ومثال ذلك قراءة القرآن بدون تدبر وفهم وكثرة الصلاة بدون حضور القلب والخشوع والمراقبة وإذا خلا القلب من ذلك قرأت القرآن وختمته مرات ومرات بدون تدبر وزاد عدد ركعات الصلاة بدون خشوع.

الثانية: رؤية فاعلها أنه له حقاً على الله فى مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان وكثرت فى عينه مع غفلته عن حقيقة أعماله والأعمال لا تستقل بدخول الجنة ولا النجاة من النار ولن ينجو أحد من النار بعمله إلا بعفو الله ورحمته.

رجوع للفهرس

الثالثة: استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه لثواب حسناتهم وطاعاتهم الكثيرة ظانين النجاة والثواب بطاعاتهم لكثرتها فى عيونهم مستغنيين عن مغفرة الله وعفوه وهو عين الجبروت والتوثب على الله. ومجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة ولا إقبال على الله يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها وهو قليل المنفعة فى الدنيا والآخرة. وحق الله على العبد تنفيذ أوامره والقيام بها والاستكثار من طاعته بحسب الإمكان ومحاربة أعدائه فهذه هى العبودية التى هى مراد الله وحظ العبد ومراده هو الجمعية والمراقبة والاستغراق فى الفناء وتعطيل الحواس والجوارح وإرسالها فى الطاعات والاستكثار منها وهذا أطيب وأنعم للعبد من الاستكثار من الطاعات بدون الجمعية على الله.

التوبة وأداء الحقوق:

إذا كانت التوبة متضمنة لحق آدمى أن يخرج التائب إليه منه إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه كما فى الحديث:

رجوع للفهرس

"من كان لأخيه مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات" (أخرجه البخارى حـ٥/٢٤٤٩). وإن كانت المظلمة بقدح فيه بغيبة أو قذف فمذهب الشافعى وأبى حنيفة ومالك اشتراط الإعلام والتحلل ولا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه ولهذه الجناية حقين حقاً لله وحقاً للآدمى فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه وقالوا لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه بل يكفى توبته بينه وبين الله وأن يذكر المغتاب فى موضع غيبته وقذفه بضد ما ذكر به من الغيبة ويستغفر له بقدر ما اغتابه وهناك فرق بين الحقوق المالية وجنايات الأبدان لأن الحقوق المالية ينتفع بها فلا يجوز إخفاؤها عنه فإنه محض حقه فيجب عليه أداؤه إليه بخلاف الغيبة والقذف فإنه ليس هناك شيئ ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط وإذا علم أنها لا تؤذه ولم يرى منه غضباً ولا عداوة بل ربما سره ذلك وفرح به بخلاف إعلامه بما مزق من عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً.

رجوع للفهرس

حقوق العباد:

من غصب أموالاً ثم تاب وتعذر إليه ردها إلى أصحابها أو إلى ورثتهم لجهله بهم أو لانقراضهم أو لغير ذلك فاختلف فى توبة مثل هذا.

فقالت طائفة لا توبة له إلا بأداء المظالم إلا أربابها فإن تعذر عليه تعذرت عليه التوبة والقصاص يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا. فإن لم يصل حق للآدمى والله لا يترك من حقوق عباده شيئاً بل يستوفيها لبعضهم من بعض ولا يجاوزه ظلم ظالم فلابد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه مهما كان ولو لطمه أو كلمة أو رمية حجر فتدارك أيها المفرط من الإكثار من الحسنات للوفاء يوم القيامة يوم لا درهم ولا دينار واصبر على من ظلمك وأذاك وقذفك فى الدنيا لتستوفَى من حسنات من ظَلَمك فى الآخرة.

وقالت طائفة يوقف هذا المال ولا يتصرف فيه وقالت طائفة يدفعها إلى الإمام أو نائبه ليحفظها لهم.

وقالت طائفة بل باب التوبة مفتوح لهذا ولم يغلق عليه ولا عن مذنب وتوبته له أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها

رجوع للفهرس

فإذا كان يوم استيفاء الحقوق كان لهم الخيار بين أن يجيزوا ما فعل وتكون أجورهما لهم وبين أن لا يجيزوا ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ويكون ثواب تلك الصدقة له إذا لا يبطل الله سبحانه ثوابها ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض ويجعل أجرها لهم وقد غرم من حسناته بقدرها. وهذا مذهب جماعة الصحابة كابن مسعود ومعاوية وحجاج بن الشاعر.

وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربها بعد تعريفها ولم يرد أن يتملكها تَصَدَّقَ بها عنهُ فإن ظهر مالكها خيرهُ بين الأجر والضمان.

توبة الغاصب:

إذا غصب مالاً ومات ربهُ (رب هذا المال) وتعذر رده عليه تعين عليه رده إلى وارثه فإن مات الوارث رده إلى وارثه وهلم جرا فإن لم يرده إلا ربه ولا أحد من ورثته فهل تكون المطالبة به فى الآخرة للمورث إذ هو ربه الأصلى وقد غصبه منه أو للوارث الأخير فيه قولان للشافعى أحدهما المطالبة للموروث ولكل واحد من الورثة إذ كل منهم

رجوع للفهرس

يستحقه ويجب أن يدفع إليه فقد ظلمه بترك إعطائه ما وجب عليه إليه فيتوجه المطالبة فى الآخرة له وكيف يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء أن يتصدق عنهم بمال تجرى منافع ثوابه عليهم بقدر كل واحد لو مضى على المال سنون وقد كان ممكن تنميته بالربح فتوبته أن يخرج المال وقدر ربحه وإن كان ربح فيه بنفسه فالربح كله للمالك وهو قول الشافعى وظاهر مذهب أحمد وقيل كله للغاصب وهو مذهب أبى حنيفة ومالك وقيل المالك والغاصب شريكان فى الربح فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل المال ويتصدق بذلك.

ومثال ذلك لو غصب شاة فنتجت أولاداً فأولادها للمالك فإن ماتت أو شيئ من الناتج رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج هذا مذهب الشافعى وأحمد وقال مالك إذا ماتت فربها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وبترك نتاجها للغاصب وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها والقول الثالث الراجح يكون عليه قيمتها وله نصف النتاج والله أعلم.

الذنوب التى لا تُقبل التوبة منها:

رجوع للفهرس

التوبة تأتى على ذنب فكل ذنب يمكن التوبة منه ويُقبل وقالت طائفة لا توبة للقاتل وهذا مذهب ابن عباس والتوبة من قتل المؤمن عمداً متعذرة إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله أو إعادة نفسه التى فوتها عليه إلى جسده إذ التوبة من حق الآدمى لا تصح إلا بأحدهما وكلاهما متعذر على القاتل فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه ولم يستحله منه ولا يرد هذا عليهم هذا المال إذا مات ربه ولم يوفيه إياه لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

إن الشرك أعظم من القتل وتصح التوبة منه فإن ذلك محض حق الله فالتوبة منه ممكنة وأما حق الآدمى فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله وقد تعذر.

واختلف الناس فى النصوص القرآنية الواردة فى قتل النفس وقالوا:

مجامع طرق الناس فى نصوص الوعيد واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلم نفسه فقتل قصاصاً هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق فقالوا لا يبقى عليه شيئ لأن القصاص حده والحدود كفارة لأهلها وقد استوفى ورثة المقتول حق

رجوع للفهرس

مورثهم وهم قائمون مقامه فكأنه استوفاه بنفسة ولا فرق بين استيفاء الرجل حقه أو بنائبه وقالوا أيضاً المقتول قد ظلم وفاتت عليه نفسه ولم يستدرك ظلامته والوارث أدرك ثأر نفسه وشفاء غيظه وأى منفعة حصلت للمقتول وأى ظلامة استوفاها من القاتل والحقوق فى القتل ثلاثة:

حق لله وحق للمقتول وحق للوارث فحق الله لا يزول إلا بالتوبة وحق الوارث حق استوفاه بالقتل وهو مخير بين ثلاثة أشياء القصاص والعفو مجاناً أو إلى مال فلو أحله أو أخذ منه مالاً لم يسقط حق المقتول بذلك، فذلك إذا اقتضى منه لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين ولو قال القتيل لا تقتلوه لأطالب بحقى يوم القيامة فقتلوه فهل يسقط حقه أم لا يسقط فلو قلتم يسقط فباطل لأنه لم يرض بإسقاطه وإن قلتم لا يسقط فكيف تسقطونه إذا اقتضى منه مع العلم برضا المقتول باستقاط حقه فالصواب والله أعلم: إذا تاب القاتل من حق الله وسلم نفسه طوعاً إلى الوارث ليستوفى منه حق موروثه سقط عنه الحقان وبقى حق الموروث لا يضيعه الله

رجوع للفهرس

ويجعل من تمام مغفرته للقاتل تعويض المقتول لأنه مصيبته لم تجبر بقتل قاتله والتوبة النصوح تهدم ما قبلها فيعوض هذا عن مظلمته ولا يعاقب هذا لكمال توبته وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلماً فى الصف ثم أسلم وحسن إسلامه فإن الله يعوض هذا الشهيد المقتول ويغفر للكافر إسلامه ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الاسلام لما قبله.

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد وعفا عنه الولى وتاب القاتل توبة نصوحاً فالله تعالى يقبل توبته ويعوض المقتول فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم المجتهد والحكم بعد ذلك لله.

هل يرجع العبد إلى الدرجة التى كان عليها قبل الذنب:

إن العبد إذا تاب من الذنب فقالت طائفة يرجع إلى درجته لأن التوبة تَجُب الذنب بالكلية وتصيره كأن لم يكن ولأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح فإن كان الذنب قد حط من درجته فتحسنه التوبة. وقالت طائفة أخرى لا يعود إلى درجته وحاله لأنه لم يكن فى وقوف وإنما كان فى صعود وبالذنب

رجوع للفهرس

صار فى هبوط فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعداً به للترقى.

وقال ابن تيمية من الصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ومنهم من يعود إليها ومنهم من يعود إلى أعلى منها فيصبر خيراً مما كان قبل الذنب وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة وهذا بحسب حال التائب بعد توبته وجده وعزمه فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى ودرجة وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله فلم يعد إلى درجته وكان منحطاً عنها.

تفضيل الطائع على التائب توبة نصوحاً:

قالت طائفة من لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً وقالوا:

١- أن أكمل الخلق أطوعهم لله.

٢- أن الطائع يسبق العاصى بعده مراحل لإنشغال العاصى بمعصيتة ويسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق وتكون درجته أعلى.

٣- التوبة تمحو السيئات زمن المعصية بخلاف الطائع.

رجوع للفهرس

٤- أن العاصى ممقوت بمعاصيه ومخالفة الأمر مدة المعصية بخلاف المطيع المرضى عنه.

٥- أن الذنب كشرب السم والتوبة دواؤها والطاعة هى الصحة والعافية المستمرة.

٦- العاصى على خطر شديد.

٧- الطائع فى ازدياد ونمو أبداً.

٨- أن العاصى جاهل كما قال قتادة.

٩- المعصية تؤثر تأثيراً سيئاً والتائب يرفع هذه الآثار السيئة والمطيع يزداد لرفع الدرجات.

١٠-المقبل على الله المطيع يسير بجملة أعماله تزداد بإزدياد الطاعة.

وجوه ترجيح التائب المحسن على من لم يعصى:

١- أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله لأنه يحب التوابين.

٢- يفرح الله بتوبة العبد أعظم فرح كما جاء فى حديث الواجد لراحلته.

رجوع للفهرس

٣- عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار والخضوع والتملق لله.

٤- حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره لانكسار قلبه بالمعصية والله قريب منه.

٥- أن الذنب قد يكون للعبد أنفع إذا اقترن بالتوبة.

٦- قول الله تعالى " إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا "{الفرقان/٧٠} وهذا أعظم البشارة للتائبين إذا إقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح.

٧- أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة إذ هو توبة تلك السيئة والندم توبة والتوبة من كل ذنب حسنة فيزول كل ذنب بالتوبة.

٨- أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعًا وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب من رجوع إلى الله بذل وانكسار.

التوبة فى القرآن الكريم:

رجوع للفهرس

كثير من الناس يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب والإقلاع عنه فى الحال والندم عليه فى الماضى وإن كان فى حق آدمى فلابد من أمر رابع وهو التحلل منه وأن حقيقة التوبة الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره فهو رجوع من مكروه إلى محبوب كما قال الله تعالى " قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ "{النور/٣٠} فكل تائب مفلح وقال الله تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ "{الحجرات/١٠} وتارك التوبة ظالم فالناس قسمان تائب وظالم فالتائبون هم كما قال الله تعالى "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" {التوبة/١١٢} فإن التوبة هى حقيقة دين الاسلام والدين كله داخل فى مسمى التوبة والتائب حبيب الله فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وإنما يحب الله من فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

رجوع للفهرس

التوبة والاستغفار:

أما الاستغفار فهو نوعان مفرد ومقرون بالتوبة فالمفرد كقول نوح عليه السلام لقومه فى قوله تعالى "فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا {نوح/١٠} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا {نوح/١١}، وقول صالح لقومه فى قوله تعالى " قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ {النمل/٤٦}، وقوله تعالى " وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ {الأنفال/٣٣} والمقرون كقوله تعالى "وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {هود/٣}، وقول هود لقومه فى قوله تعالى " وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ {هود/٥٢} وقول صالح لقومه فى قوله تعالى " وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ {هود/٦١} وقول شعيب فى قوله تعالى

رجوع للفهرس

"وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ {هود/٩٠}. فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره وذلك يعنى الاستغفار الذى يمنع العذاب كما فى الآية الكريمة "وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ" {الأنفال/٣٣} وأما من أصر على الذنب وطلب من الله المغفرة فهذا ليس باستغفار مطلق ولا يمنع العذاب لأن التوبة تتضمن الاستغفار وأما عند اقتران أحدهما بالأخرى فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات الأعمال فالتوبة هى العزم على أن لا يفعله والرجوع إلى الله يتناول الرجوع إليه ليقيه شر ما مضى ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله فخصت التوبة بالرجوع وأما الاستغفار بالمفارقة وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين كما فى الآية الكريمة " وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {هود/٣} فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

رجوع للفهرس

والاستغفار لإزالة الضرر والتوبة طلب جلب المنفعة فالمغفرة أن يقيه شر الذنب والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده والله أعلم.

سيد الاستغفار:

"اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى فاغفر لى أنه لا يغفر الذنوب إلا أنت" (أخرجه البخارى حـ١١/٦٣٢٣).

ويتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبيته وإلهيته وتوحيده واعتراف بأنه خالقه العالم به وعجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته لا مهرب له منه ولا ولى له سواه والتزام الدخول تحت عهده وهو أمره ونهيه الذى عهده على لسان رسوله بحسب استطاعتى لا بحسب أداء حقك لأنه غير مقدور للبشر وإنما هو جهد المقل وقدر الطاعة وأنا مصدق بوعدك لأهل طاعتك بالثواب ولأهل معصيتك بالعقاب وأنا

رجوع للفهرس

مقيم على عهدك مصدق بوعدك مستعيذاً ومعتصماً بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك وإن لم تعيذنى أحاطت بى الهلكة وإضاعة حقك سبب الهلاك وأنا أقر لك والتزم بنعمتك على وأبخع بذنبى فمنك النعمة والإحسان والفضل ومنى الذنب والإساءة أسألك أن تغفر لى ذنبى وتمحهُ وتعفينى من شره وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

هذا الدعاء يتضمن محض العبودية فأى حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدة عيوب نفسه ومنة الله عليه فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصهِ.

حقيقة التوبة النصوح:

قال الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {التحريم/٨} فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها بزوال ما يكره العبد ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد منوطاً بحصول التوبة

رجوع للفهرس

النصوح لتخليصها من الغش والفساد والنقص وإيقاعها على الوجه الأكمل. وقد وصفها السلف السابق كعمر بن الخطاب وأبى بن كعب رضى الله عنهما: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه وقال الحسن البصرى الندم على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه وقال الكلبى أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن. وقال محمد بن كعب القرظى: الاستغفار باللسان والإقلاع بالأبدان وإضمار ترك العود بالجنان ومهاجرة سيئ الإخوان.

النصح فى التوبة:

١- تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

٢- إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار.

٣- تخليصها من الشوائب وإخلاصها خوفاً من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده لا كمن يتوب لحاجة معينة فى نفسه.

رجوع للفهرس

فالأول يتعلق بما يتوب منه والثانى يتعلق بذات التائب ونفسه وإخلاصها وتعميم الذنوب بها وتستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهى أكمل ما يكون من التوبة والثالث يتعلق بمن يتوب إليه.

الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب:

جاء فى كتاب الله تعالى السيئات والذنوب " رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ {آل عمران/١٩٣}، "وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ "{آل عمران/١٤٧}.

يوجد أربعة أمور: ذنوب، وسيئات، ومغفرة وتكفير.

فالذنوب المراد بها الكبائر والمراد بالسيئات الصغائر وهى ما تعمل فيه الكفارة والدليل على أن السيئات هى الصغائر والتكفير لها قوله تعالى "إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا" {النساء/٣١} وفى الحديث "الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة

رجوع للفهرس

ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهم إذا اجتنبت الكبار" (أخرجه مسلم جـ١/طهارة/١٦ عن أبى هريرة).

ولفظ المغفرة أكمل من لفظ التكفير ولهذا كان مع الكبائر والتكفير مع الصغائر، ولفظ المغفرة يتضمن الوقاية والحفظ، والتكفير يتضمن الستر والإزالة وعند الإفراد يدخل كل منهما فى الآخر كما فى قوله تعالى " وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ {محمد/٢}، يتناول صغائرها وكبائرها ومحوها ووقاية شرها والتكفير يتناول أسوأ الأعمال كما قال الله تعالى "ليكفر عنهم أسوأ الذى عملوا" وفى الحديث أيضاً: "ما يصيب المؤمن من هم ولا غم ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه" (أخرجه البخارى جـ١٠/٥٦٤١، ٥٦٤٢ ، وأحمد جـ٢/٣٠٣ عن أبى سعيد وأبى هريرة).

فإن المصائب لا تستقل بمغفرة الذنوب ولا تغفر جميعها إلا بالتوبة أو بحسنات تتضاءل فيها الذنوب.

رجوع للفهرس

أصل الذنوب: ذكر الإمام ابن القيم (١)

الذنوب أصلها نوعان: ترك مأمور وفعل محظور وتنقسم إلى أربعة أقسام:

١- الذنوب الملكية: هى تعاطى ما لا يصح من صفات الربوبية مثل العظمة والكبرياء والجبروت والقهر والعلو واستعباد الخلق ونحو ذلك ويدخل فى ذلك الشرك بالله تعالى وهو نوعان: شرك فى الأسماء والصفات واتخاذ آلهة أخرى معه وهذا يوجب النار أما الشرك فى المعاملة قد لا يوجب النار ويحبط العمل الذى أشرك فيه مع الله غيره. وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب لمنازعته لربه فى ربوبيته وملكه وهو أعظم الذنوب عند الله ولا ينفع معه عمل.

٢- الذنوب الشيطانية: هى التشبه بالشيطان فى الحسد والبغى والغش والغل والخداع والمكر والأمر بمعاصى الله وتحسينها والنهى عن طاعته والإبتداع فى الدين والدعوة إلى البدع والضلال.

---

(١) الداء والدواء لابن القيم الجوزية صـ ١٥٤.

رجوع للفهرس

٣- **الذنوب السبعية**: هى ذنوب العدوان والغضب وسفك الدماء والتوثب على الضعفاء والعاجزين ويتولد منها الأذى الإنسانى والجرأة على الظلم والعدوان.

٤- **الذنوب البهيمية**: هى الشره وقضاء شهوة البطن والفرج ويتولد منها الزنى والسرقة وأكل أموال اليتامى والبخل والشح والجبن والهلع والجزع. وأكثر ذنوب الخلق فى هذا الجزء ثم يدخلون بعد ذلك إلى الذنوب السبعية ثم إلى الذنوب الشيطانية ثم إلى منازعة الربوبية والشرك.

وتنقسم الذنوب إلى صغائر وكبائر بنص القرآن والسنة فى قوله تعالى "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ "{الزمر/١٧}، وقوله "الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى {النجم/٣٢}. وفى الحديث "الصلوات الخمس والجمعة إلى

رجوع للفهرس

الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر" (صحيح الجامع الصغير ٣٨٧٥ عن أبى هريرة).

آراء السلف فى اللمم:

اللمم: هو الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً.

ويقول الجمهور إن اللمم ما دون الكبائر وفى الحديث:

"إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا وأدرك ذلك لا محالة فزنا العينين النظر وزنا اللسان النطق والنفس تمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه" (أخرجه مسلم من حديث سهل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة وفيه العينان زناهما النظر والأذنان زناهما الاستماع واللسان زناه الكلام واليد زناها البطش والرجل زناها الخطى).

وقال الكلبى اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر عليه حداً فى الدنيا ولا عذاباً فى الآخرة فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الفواحش والكبائر والوجه الآخر هو الذنب العظيم الذى يسلم به المسلم المرة بعد المرة ثم يتوب منه وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب أى خطر عليه.

رجوع للفهرس

قال الحسين بن الفضيل: اللمم النظر من غير تعمد فهو مغفور فإن أعاد النظر فليس بلمم وهو ذنب.

والصحيح قول الجمهور: إن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم وهو قول أبى هريرة وعبدالله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبى ولا ينافى قول أبى هريرة وابن عباس فى الرواية الأخرى "إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها".

وقال ابن عباس من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها وحصلت منه فلته فى عمره فهى من اللمم. والله سبحانه يسامح العبد مرة ومرتين وثلاثة ويخاف العنت على من اتخذ الذنب عادة متكررة وقال على بن أبى طالب إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب فأول الذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه.

آراء السلف فى الكبائر:

جاء فى الحديث "الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس" (أخرجه البخارى

رجوع للفهرس

حـ١١/٦٦٧٥ من حديث الشعبى بن عامر بن شراحبيل عن عبدالله بن عمرو).

"ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً قالوا بلى يارسول الله قال "الإشراك بالله وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئاً فقال ألا وقول الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت" (أخرجه البخارى حـ١٠/٥٩٧٦ ومسلم حـ١/إيمان/ ١٤٣ عن أبى بكرة). والأحاديث المذكورة فى هذا الباب كثيرة:

والكبيرة كما قال على بن أبى طلحة "كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنةً من الله ورسولهِ أو عذاب" وقال الضحاك هى ما أوعد الله عليه حداً فى الدنيا أو عذاباً فى الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل ما سماه الله فى القرآن كبيراً أو عظيماً ما فى قوله تعالى " وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا {النساء/٢}، وقوله " وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا {الإسراء/٣١} " وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ {لقمان/١٣}، " فَلَمَّا رَأَى

رجوع للفهرس

قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ {يوسف/٢٨}، وقوله " وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ {النور/١٦}، " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا {الأحزاب/٥٣}.

قال سفيان الثورى: الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد والصغائر ما كان بينك وبين الله لأن الله كريم يعفو ومراد سفيان أن الذنوب بين العبد وبين الله أسهل أمراً من مظالم العباد لأنها تزول بالاستغفار والعفو والشفاعة وغيرها وأما مظالم العباد فلابد من استيفائها.

رجوع للفهرس

عقوبات المعاصى:

ذكر الإمام ابن القيم ([1])

العقوبات التى رتبها الله سبحانه وتعالى على الذنوب:

١ـ الختم على القلب:

الختم على القلب والأسماع والغِشاوة على الأبصار والإقفال على القلوب وجعل الأكنة عليها والرين عليها والطبع وتقليب الأفئدة والأبصار والحيلولة بين المرء وقلبه وإغفال القلب عن ذكر الرب وإنساء الإنسان نفسه وترك تطهير القلب وجعل الصدر حرجاً كأنما يصّعد فى السماء وصرف القلوب عن الحق وزيادة مرضها وانتكاسها بحيث تبقى منكوسة وكذلك التثبيط عن الطاعة والابتعاد عنها وجعل القلب أصم لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر كما قال الله تعالى " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج/٤٦}، وقوله " لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

([1]) الداء والدواء لابن القيم الجوزية صـ ١٤٧-١٥٤.

رجوع للفهرس

{النور/٤٦}، " عَبَسَ وَتَوَلَّى {عبس/١} أَن جَاءهُ الْأَعْمَى {عبس/٢}، والمراد عمى القلب لا عمى البصر والمقصود كله من ذلك جعل القلب أعمى أصم أبكم.

٢ـ خسف القلب:

الخسف بالقلب يجعل صاحبه مع السافلين يجول مع السفليات والقازورات والرذائل وكذلك البعد عن البر والخير ومعالى الأعمال والأقوال والأخلاق وقال بعض السلف إن القلوب جوالة منها ما يجول حول العرش ومنها ما يجول حول الحش.

٣ـ مسخ القلب:

ومسخ القلب فيصير القلب على قلب حيوان مشابهاً له فى أخلاقه وأعماله وطبيعته كأخلاق الكلاب والخنازير والحمير ومنهم من يختال فى ثيابه كالطاووس ويكون بليداً كالحمار ومؤثراً نفسه كالديك أو حقوداً كالجمل أو يروغ روغان الثعلب.

رجوع للفهرس

٤ـ نكس القلب:

ونكس القلب حتى يرى الباطل حقاً والحق باطلاً والمعروف منكراً والمنكر معروفاً ويفسد ويرى أنه يصلح ويشترى الضلالة بالهدى واتباع الهوى ويزعم أنه مطيع لمولاه.

٥ـ حجب القلب عن الرب:

وحجب القلب عن الرب فى الدنيا والحجاب الأكبر يوم القيامة كما فى قوله تعالى "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ {المطففين/١٤} كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ "{المطففين/١٥}.

٦ـ المعيشة الضنك:

المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة كما قال الله تعالى "اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى {طه/٢٤}، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر والمعيشة الضنك هى الإعراض عن ذكر الله تعالى وتكون المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله فى دنياه وفى البرزخ وفى يوم القيامة ومن قرت عينه بالله ومن لم تقر عينه بالله تقطع مرات وجعل الله الحياة الطيبة لمن آمن به

رجوع للفهرس

وعمل صالحاً كما فى قوله تعالى "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {النحل/٩٧}، " وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ {النحل/٣٠} وقوله " وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ {هود/٣}، والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة وسلم من كل آفة تبعده عن الله ومن كل شهوة تعارض أمر الله ومن كل قاطع يقطع عن الله فهذا هو القلب السليم فى جنة معجلة فى الدنيا وفى جنة فى البرزخ وفى جنة يوم الميعاد. وأن الدنيا مزرعة الآخرة ومنازل الناس فى الآخرة على حسب منازلهم فى الإيمان والعمل الصالح ومن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط المستقيم فى الدنيا والآخرة.

رجوع للفهرس

فى مشاهد الخلق فى المعصية:

أهم هذه المشاهد للعبد:

١- مشهد أهل الاستقامة (الحكمة) وهو مشهد حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه ويلوم ويعاقب عليه ولو شاء لعصمه ولا شيئ فى العالم إلا بمشيئته " أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ "{الأعراف/٥٤}. ولم يخلق الله شيئاً عبثاً ولا سدى وله الحكمة البالغة فى كل ما قدر وقضاه من خير وشر وطاعة ومعصية وحكمة باهرة تعجز العقول عن الاحاطة بها. فمصدر قضائه وقدره لما يبغيه ويسخطه: اسمه الحكيم الذى بهرت حكمته الألباب وفى قوله تعالى " أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ {البقرة/٣٠}. فظهور المعاصى والذنوب والجرائم وما يترتب عليها من الحكم وأنواع التعرفات لخلقه على دلائل ربوبيته ووحدانيته وإلهيته وحكمته وعزته وتمام ملكه وكمال قدرته وإحاطة عمله.

رجوع للفهرس

٢- مشهد التوحيد: انفراد الرب تبارك تعالى بالخلق والحكم وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه والخلق مقهورون تحت قبضته وقلوب العباد بين إصبعيه من أصابعه إن شاء أن يقيمه وإن شاء أن يزيغه فالقلوب بين يديه وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد وهو الذى آتى نفوس المؤمنين هداها وتقواها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها كما فى قوله تعالى " فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا "{الشمس/٨}. قال ابن عباس: "الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن كذَّب بالقدر نقص تكذيبه توحيده ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده" وفى هذا يتحقق للعبد مقام " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" فيثبت قدم العبد فى توحيد الربوبية ويترقى إلى قدم توحيد الإلهية فيتيقن أن الضر والنفع والعطاء والمنع والهدى والضلال والسعادة والشقاء بين يد الله وحده لا بيد غيره وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء وأصح القلوب من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً فكان أحب إليه من كل ما سواه وتتقدم محبته فى قلبه على جميع المحاب فينساق إلى محاب الله كلها. والعبد فى هذا المشهد يحصل له من

رجوع للفهرس

مطالعة الجنايات والذنوب وجريانها عليه وعلى الخلق بتقدير الله العزيز الحكيم ولا عاصم من غضبه وسخطه ولا سبيل لطاعته إلا بمعونته ولا سبيل لمرضاته إلا بتوفيقه وسرد الأمور كلها إلى الله وهو المعين للعباد وعليه يتوكلون كما فى قوله تعالى " وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ "{هود/٨٨}.

٣- مشهد الأسماء والصفات: يتعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى والصفات العلى وارتباطه بها وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة وكل صفة لها مقتض وفعل إما لازم وإما متعد ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه وهذا فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها وهذا مذكور فى القرآن فى مواضع كثيرة منها فى قوله " وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ {الأنعام/٩١}،

رجوع للفهرس

وقوله " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {الزمر/٦٧}، وقوله " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَّن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاء مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ {الجاثية/٢١}، وقوله " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {المؤمنون/١١٥} فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ {المؤمنون/١١٦}. ومن أسمائه الغفار – التواب – العفو – الخالق – الرزاق – المعطى – المانع. والرب سبحانه وتعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه فهو عفو يحب العفو ويحب المغفرة ويحب التوبة وهو سبحانه الحميد المجيد وحمده ومجده يقتضيان آثارهما لمغفرة الزلات وإقالة العثرات والعفو عن السيئات والمسامحة على الجنايات.

٤- مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده: أجمع السلف أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وجاءت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم فأمروا العباد بما فيه من

رجوع للفهرس

صلاح ظواهرهم وبواطنهم فى معاشهم ومعادهم ونهوهم عن فساد ظواهرهم وبواطنهم فى المعاش والمعاد. وقلوب أهل البدع والمُعرضين عن القرآن وأهل الغفلة عن الله وأهل المعاصى فى جحيم وقلوب الأبرار فى نعيم وهذا مذكور فى القرآن فى مواضع كثيرة منها فى قوله تعالى "إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ {الإنفطار/١٣} وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ" {الإنفطار/١٤}. وقد جعل سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبوبة لذتها فوق لذة المعصية وجعل للسيئات والمعاصى آلاماً وآثاراً مكروهة وقال ابن عباس "إن للحسنة نوراً فى القلب وضياء فى الوجه وقوة فى البدن وزيادة فى الرزق ومحبة فى قلوب الخلق وإن للسيئة سواداً فى الوجه وظلمة فى القلب ووهناً فى البدن ونقصاً فى الرزق وبغضاً فى قلوب الخلق" وهذا يعرفه صاحب البصيرة وما حصل للعبد حال مكروهة إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر كما فى قوله تعالى " وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ {الشورى/٣٠}، " أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ

رجوع للفهرس

شَيْءٍ قَدِيرٌ {آل عمران/١٦٥}، وقوله " مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا {النساء/٧٩}. والمراد بالحسنة والسيئة هنا النعيم والمصائب التى تصيب العبد من الله فكل نقص وبلاء وشر فى الدنيا والآخرة فسببه الذنوب ومخالفة أوامر الرب وأثار الحسنات والسيئات فى القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود فى العالم لا ينكره مؤمن ولا كافر ولا بر ولا فاجر وقال بعض الناس: إذا صدر منى ذنب ولم أبادره وأتداركه بالتوبة انتظرت أثره السيئ. وكل ما تراه فى الوجود من شر وألم وعقوبة وجدب ونقص فى نفسك وغيرك فهو من عدل الله وقسطه على العباد وإن أجراه على يد ظالم. والذنوب مثل السموم مضرة بالذات فإن تداركها من سقى بالأدوية المقاومة لها وإلا قهرت القوة الإيمانية وكان الهلاك. وشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه وتغيرت القلوب عليه وانسداد الأبواب فى وجهه وهوانه على الناس وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أتى ووقوعه على السبب الموجب لذلك مما يقوى إيمانه فإن أقلع عن المعصية تغيرت أحواله، من

رجوع للفهرس

فقر إلى عز ومن حزن إلى سرور ومن خوف إلى أمن ومن ضعف إلى قوة ويصير من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها.

فى أجناس ما يُتاب منه:

هى إثنا عشر جنساً مذكورة فى كتاب الله عز وجل وهى أجناس المحرمات: الكفر والشرك والنفاق والفسوق والعصيان والإثم والعدوان والفحشاء والمنكر والبغى والقول على الله واتباع غير سبيل المؤمنين والتوبة النصوح هى بالتخلص منها والتحصن والتحرز من مواقعتها.

الكفر نوعان كفر أكبر وكفر أصغر والكفر الأكبر الموجب للخلود فى النار والكفر الأصغر لاستحقاق الوعيد دون الخلود وقد صرحت به الأحاديث كفر الطعن فى النسب والنياحة وإتيان المرأة فى دبرها وإتيان العراف وتصديقه والحكم بغير ما أنزل الله وهو كفر لا يخرج صاحبه عن الملة. والمقصود أن المعاصى كلها من نوع الكفر الأصغر وهى ضد الشرك.

رجوع للفهرس

الكفر الأكبر:

كفر التكذيب وكفر استكبار وإباء مع التصديق وكفر إعراض وكفر شك وكفر نفاق. وكفر التكذيب هو تكذيب الرسل، وأما كفر الإباء والاستكبار ككفر إبليس فتلقى أمر الله بالإباء والاستكبار. وأما كفر الإعراض فهو الإعراض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى إليه. وأما كفر الشك وهو الشك فى صدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإعراض عن آيات صدقه فلا يسمعها ولا يلتفت إليها ملتفتاً إلى غيرها. وأما كفر النفاق وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه على التكذيب.

كفر الجحود:

وهو كفر مطلق وكفر مقيد خاص فالمطلق أن يجحد جملة ما أنزله الله وإرساله الرسول والخاص المقيد أن يجحد فرضاً من فروض الإسلام أو تحريم محرم من محرماته أو صفة من صفات الله أو خبراً مما أخبر به الله أو تقديم قول من خالفه لغرض من الأغراض وأما جحد ذلك جهلا أو تأويلاً يعذر فيه صاحبه ولا يكفر به كالذى يجحد قدرة الله عليه.

رجوع للفهرس

الشرك:

الشرك نوعان أكبر وأصغر فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه وهو أن يتخذ من دونه نداً يحبه كما يحب الله كعُباد الأصنام. والشرك الأصغر وهو الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله وأما التصنع للخلق كركوع البعض للبعض عند الملاقاة وحلق الرأس للشيخ لأنها من التعبد لله تعالى وكذلك التوبة للشيخ لأن التوبة لا تكون إلا لله تعالى وحده. والنذر لغير الله فإنه شرك. والخوف من غير الله والتوكل على غير الله والعمل لغير الله والإنابة والذل والخضوع لغير الله وإبتغاء الرزق من غير الله وحمد غير الله مكتفياً بذلك عن حمد الله سبحانه والذم والسخط على ما لم يقسمه ولم يَجْرِ به القدر وإضافة نعمة إلى غيره وإعتقاد أن يكون فى الكون ما لا يشاؤه وطلب الحوائج من الموتى والاستعانة بهم والتوجه إليهم ولا نستطيع حصره.

النفاق:

النفاق نوعان أكبر وأصغر:

رجوع للفهرس

النفاق الأكبر يوجب الخلود فى النار فى الدرك الأسفل بأن يظهر الإيمان فى الظاهر وينسلخ منه فى الباطن فهؤلاء المنافقين أنزلوا نصوص القرآن والسنة منزلة الخليفة اسمه على السكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع والحكم النافذ لغيره فحكمه غير مقبول ولا مسموع لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران فالظاهر ظواهر الأنصار والبواطن انحازت إلى الكفار فألسنتهم ألسنة المسلمين وقلوبهم قلوب المحاربين كما فى قوله تعالى "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ "{البقرة/٨}. رأس مالهم الخديعة وبضاعتهم الكذب كما فى قوله تعالى "يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ "{البقرة/٩}. نهكت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فاهلكتها وغلبت القصود السيئة على إرادتهم فأفسدتها كما فى قوله تعالى "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ" {البقرة/١٠}. إيمانهم ممزق تعلق شرور الفتنة بقلبه فلا يصدق ما يسمع إفسادهم فى الأرض كثير يغفل عنه أكثر الناس كما فى قوله تعالى " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ

رجوع للفهرس

تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ {البقرة/١١} أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ {البقرة/١٢}.

المتمسك عندهم بالكتاب والسنة ظاهراً وهو كالحمار يحمل أسفاراً وأهل الاتباع عندعم سفهاء فى خلواتهم وبمجالسهم يتطايرون فى قوله تعالى " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ {البقرة/١٣}، له وجهان وجه يلقى به المؤمن ووجه يلقى به الملحد فى قوله تعالى " وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ {البقرة/١٤} أعرضوا عن الكتاب والسنة استهزاء بأهلها واحتقاراً لهم غير منقاد لحكم الله فرحاً بما عنده من العلم الغير نافع متمسكاً بصريح الوحى فى قوله تعالى " اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ {البقرة/١٥}، خرجوا فى طلب التجارة الخاسرة ولعبت بسفنهم الريح العاصف فألقتها بين الهالكين " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ "{البقرة/١٦} أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا

رجوع للفهرس

الهدى والضلال ثم طغى ذلك وبقيت نار تحرقهم وفى الظلمات يعمهون " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ {البقرة/١٧}. لهم قلوب لا تسمع لمنادى الإيمان وعيون لا تبصر وأخرست السنتهم " صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ {البقرة/١٨}، لا يسمعون إلا وعد التهديد والوعيد فجعلوا أصابعهم فى آذانهم وهربوا مصيحين وكشفت حالهم للمستبصرين " أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ {البقرة/١٩}. ضعفت أبصارهم عن احتمال الأنوار والضياء وعجزت عن تلقى الوعد والأمر والنهى فهم كالحيارى لا يسمع ولا يبصر " يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {البقرة/٢٠}.

لهم علامات يعرفون بها فى السنة والقرآن كالرياء والكسل عن أوامر الرحمن، إخلاصهم ثقيل " إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ

رجوع للفهرس

اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً {النساء/١٤٢}. أهل التذبذب ينظرون إلى أقوى الفريقين " مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاء وَلاَ إِلَى هَؤُلاء وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً {النساء/١٤٣}، متربصين بأهل السنة والقرآن " الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللّهِ قَالُواْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُواْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً {النساء/١٤١} هذه هى صفاتهم من القرآن يعجبك قول المنافق لحلاوته ولينه ويشهد الله على ما فى قلبه من كذب فهو عند الله نائما وفى الباطل قائماً على الأقدام "وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ {البقرة/٢٠٤}. أوامرهم لفساد البلاد والعباد ونواهيهم عن الصلاح تلقاهم فى الصلاة والذكر والإجتهاد " وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ {البقرة/٢٠٥}.

رجوع للفهرس

يأمر بالمنكر بعد أن يفعله وينهى عن المعروف بعد تركه ويبخل بالمال فى سبيل الله " الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ {التوبة/٦٧}. ينفر من حكم الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم " وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا {النساء/٦١}. اشتروا الكفر بالإيمان "فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا {النساء/٦٢}. فى قلوبهم الشك والشبهة "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا {النساء/٦٣}. يبعد عن حقيقة الإيمان ودعواتهم الكذب فهم فى شأن وأتباع الرسول فى شأن آخر " فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا {النساء/٦٥}.

اليمين يسبق كلامه لعلمه إطمئنان قلوب أهل الإيمان ويتبرأ بيمينه من سوء الظن به ويحلف ليقنع السامع بصدقه "

رجوع للفهرس

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {المنافقون/٢}. برزوا مع ركب الإيمان فلما اشتد عليهم الطريق ارتدوا على أعقابهم " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ {المنافقون/٣}. أحسن الناس أجساماً وأضلهم لساناً وألطفهم بياناً وأخبثهم قلوباً " وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ {المنافقون/٤}. يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عن الغروب وينقر الصلاة نقر الغراب لا يشهدون الجماعة يصلى منفرداً فى البيت أو الدكان. إذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر وإذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان هذه معاملتهم للخلق وتلك معاملتهم فوصفهم فى أول المطففين وآخر سورة الطارق فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ "{التوبة/٧٣}. يسوؤهم نصر أهل الكتاب والسنة ويفرحون بما يصيب المؤمنين من ابتلاء ومحن الله " إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ

رجوع للفهرس

يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ {التوبة/٥٠} قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ {التوبة/٥١}، " إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ {آل عمران/١٢٠}. كره الله طاعتهم لحنث قلوبهم وفساد نياتهم يميلون إلى أعداء الله وأعرضوا عن الوحى "وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ {التوبة/٤٦}، ثبطهم الله وأقعدهم عن بابه من لطفه بأوليائه " لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ {التوبة/٤٧}.

ثقلت عليهم النصوص فكرهوها لا يستطيعون حملها وألقوها عن أكتافهم ردوا نصوص الكتاب والسنة فكشف الله أسرارهم وكلما انقرض منهم طائفة خلفتها أخرى " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ {محمد/٩} ومن ثقلت عليه النصوص باعها بالكلام الباطل ففسد عليهم

رجوع للفهرس

علانيتهم وسرائرهم " ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ {محمد/٢٦} فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ {محمد/٢٧} ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ {محمد/٢٨}. أسروا سرائر النفاق فظهرت على وجوههم وألسنتهم لا يخفون على أهل الإيمان والبصائر يظنون أنهم يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فانكشفوا لأهل الإيمان " أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ {محمد/٢٩} وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ {محمد/٣٠}.

لا يسجدون فى يوم التلاق يوم العرض على الله فى الآخرة " خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ {القلم/٤٣}. وعند مرورهم على جسر جهنم أعطوا نوراً مع أهل الاسلام لعبادتهم فلما وصلوا إلى منتصف الجسر أطفأت مصابيحهم واقفين حيارى وضرب بينهم وبين أهل الإيمان بسور له باب باطنه الذى يلى

رجوع للفهرس

المؤمنين وما يليهم من قبلهم العذاب ينادون من تقدهم من وفد الإيمان " يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ {الحديد/١٣}، يقولون لأهل الإيمان ألم نكن معكم فى العبادات فما الذى فرق بيننا وبين أهل الإيمان الذين انفردوا بالمرور "يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ {الحديد/١٤} فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ {الحديد/١٥}.

الفسوق:

الفسوق فى كتاب الله نوعان: مفرد مطلق ومقرون بالعصيان. والمفرد نوعان: فسوق كفر يخرج عن الإسلام وفسوق لا يخرج عن الإسلام والمقرون كقوله تعالى "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ

رجوع للفهرس

إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ "{الحجرات/٧}، والمفرد هو فسوق كفر كقوله تعالى "إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ {البقرة/٢٦} الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ "{البقرة/٢٧}، " وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ {البقرة/٩٩}، وقوله "وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ"{السجدة/٢٠} فهذا كله فسوق كفر.

وأما الفسوق الذى لا يخرج عن الإسلام كقوله تعالى "وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "{البقرة/٢٨٢}، وقوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا

رجوع للفهرس

عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ "{الحجرات/٦} ونزلت آية الحجرات فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط لما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ورجع من الطريق لحديث الشيطان له قائلاً للرسول صلى الله عليه وسلم إن القوم يريدون قتلِي فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن بنى المصطلق أتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسل إليهم خالد بن الوليد فرأى منهم الصلاة والطاعة والخير فأخذ منهم صدقاتهم فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر. والنبأ هو الخبر الغائب عن المخبر إذا كان له شأن والتبين طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً.

والفسق من جهة الكذب فإن كثير منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل منه شهادة ولا خبر وإن بدا منه مرة أو مرتين ففى رد شهادته وخبره قولان للعلماء وهما لروايتان للإمام أحمد رحمه الله. والفسوق الذى تجب منه التوبة أعم من الفسوق الذى ترد به الشهادة والرواية.

رجوع للفهرس

والفسوق الذى تجب التوبة منه هو فسوق عمل وفسوق اعتقاد. وفسوق العمل هو فسوق مقرون بالعصيان وفسوق مفرد والأول هو ارتكاب ما نهى الله عنه وعصيان أمره كما فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "{التحريم/٦}، وقوله " قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا {طه/٩٢} أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي" {طه/٩٣}. والفسق بارتكاب النهى كما فى قوله تعالى "وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "{البقرة/٢٨٢} والمعصية مخالفة الأمر فى قوله تعالى "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" {الكهف/٥٠} ويسمى مخالفة الأمر فسقاً فى قوله "فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى "{طه/١٢١} ويسمى ارتكابه للنهى معصية فهذا هو الإفراد فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر والآخر لمخالفة النهى وتصح التوبة من

رجوع للفهرس

الفسوق والعصيان بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله يرجو ثوابه ويخاف عقابه ويترك معصيته.

وأما فسوق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بما أنزل الله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ما حرم الله ويوجبون ما أوجب الله ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله جهلاً وتأويلاً تقليداً للشيوخ ويثبتون ما لم يثبت الله ورسوله كذلك. وهؤلاء كالخوارج والروافض والقدرية والمعتزلة والجهمية. والتوبة من هذا الفسوق، بإثبات ما أثبت الله لنفسه ورسوله من غير تشبيه ولا تمثيل وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل وتلقى النفى والإثبات من الوحى لا من آراء الرجال التى هى منشأ البدعة.

منزلة التوبة ومنزلة الإنابة:

فإذا نزل العبد منزلة التوبة واستقرت قدمه فيها نزل بعد ذلك منزلة الإنابة وقد أمر الله بها فى قوله تعالى " وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ {الزمر/٥٤}، وقوله "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ

رجوع للفهرس

"{هود/٧٥}، وقوله " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ {ق/٦} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {ق/٧} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ {ق/٨}، "هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاء رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ {غافر/١٣}، " مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {الروم/٣١}. وثواب أهل الخشية والإنابة فى قوله تعالى " وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ {ق/٣١} هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ {ق/٣٢} مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ {ق/٣٣} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ {ق/٣٤}، وقوله "وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ" {الزمر/١٧}.

أنواع الإنابة:

الإنابة إنابتان إنابة لربوبيته وهى إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى " مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

رجوع للفهرس

"{الروم/٣١}، "وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ {الروم/٣٣} لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" {الروم/٣٤}.

والإنابة الثانية إنابة أوليائه وهى إنابته لإلهيته إنابة عبودية ومحبة وتتضمن محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه الأربع والمنيب إلى الله المسرع إلى مرضاته الراجع إليه فى كل وقت والمتقدم إلى محابه والإنابة فى اللغة الرجوع إلى الحق وهذا الرجوع يكون رجوعاً للحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً ورجوعاً إليه وفاءاً كما رجع إليه عهداً ورجوعاً إليه حالاً كما رجع إليه إجابة. والتائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن المعصية ويتم ذلك بالإجتهاد والنصح فى الطاعة فلابد من توبة وعمل صالح ترك لما يكره وفعل لما يحب، تَخلِّ عن معصيته وتَحلٍّ بطاعته ورجوعاً إليه ووفاءاً بالعهد كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك فرجعت تحت عهده أولاً فعليك بالوفاء بما

رجوع للفهرس

عاهدت عليه ثانياً والدين كله عهد ووفاء فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء بالتعليم ومدح الموفين بعهده فقال الله تعالى " وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً {الإسراء/٣٤}، وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ {النحل/٩١}، " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {البقرة/١٧٧}.

رجوع للفهرس

ويتناول وعودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق ومن علامات النفاق الغدر بالعهد. والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة فلابد من الإجابة حال التصديق وعملك أولى بك من قولك ذلك سريرةً وعلانيةً وسريرتك أملك بك من علانيتك.

الرجوع إلى الله:

والرجوع إلى الله بالخروج من التبعات والتوجع للعثرات واستدراك الفائتات. والخروج من التبعات هو التوبة من الذنوب التى بين العبد والرب وأداء الحقوق التى عليه للخلق والتوجه للعثرات هو رجوع القلب وانصداعه وهذا دليل إنابته بخلاف من لا يتألم قلبه دليل فساد قلبه وموته، ورقة القلب وإنابته هو التوجع لعثرة أخيه إذا عُثر. واستدراك الفائتات هى استدراك ما فاته من طاعة وقربة بأمثالها أو خير منها فيما بقى من عمره عند قرب رحيلة إلى الله التى لا يعلم وقتها فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها يستدرك بها ما فات ويحيى بها ما أمات. والاستقامة رجوعاً إلى عهده يكون بالخلاص من لذة الذنب وترك الاستهانة بأهل الغفلة تخوفاً

رجوع للفهرس

عليهم مع الرجاء لنفسه بالاستقصاء فى رؤية علة الخدمة. وعندما تصفو الإنابة إلى الله تخلص من الفكرة فى لذة الذنب وعاد مكانها ألماً وتوجعاً لذكره والفكرة فيه فما دامت لذة الفكرة فيه موجود فى قلب فإنابته غير صافية.

علامات الإنابة:

ومن علامات الإنابة ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم مع فتح باب الرجاء لنفسك فترجو لنفسك الرحمة وتخشى على أهل الغفلة النقمة ولكن أرج لهم الرحمة وأخش على نفسك النقمة فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم لانكشاف أحوالك لهم ورؤية ما هم عليه فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم وكن أرجى لهم الرحمة منك لنفسك وهذا لا يفقه إلا الفقيه فى دين الله فإن من شهد حقيقة الخلق وعجزهم وتفريطهم فى حق الله وإقبالهم على غير الله لم يجد بداً من مقتهم راجعاً إلى نفسه وتقصيره فيكون أشد مقتاً لنفسه واستهانة.

وإما الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفوس وتمييزها حق الرب منها من حظ

رجوع للفهرس

النفس وإن العبد ليعمل العمل حيث لا يراه بشر غير خالص لله ويعمل العمل والعيون قد استدارت نطاقاً وهو خالص لوجه الله ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وبين العمل وبين القلب مسافة وفى تلك المسافة قطاع تمنع وصول العمل إلى القلب فيكون الرجل كثير العمل وما وصل إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ولا زهد فى الدنيا ولا نور يفرق بين أولياء الله وأعدائه وبين الحق والباطل ولو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاسَتَنَار وأشرق ورأى الحق والباطل وبين القلب وبين الرب مسافة وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه من كبر وإعجاب ورؤية العمل ونسيان المنة ومن رحمة الله سترها على أكثر العمال ولو رأوها لوقعوا فيما هو أشد منها من اليأس والقنوط والاستحسار وترك العمل.

"وإنما يستقيم الرجوع إلى الله بالإياس من عملك وبمعاينة أضرارك وشيم برق لطفه بك". والإياس من العمل أنه إذا نظر بعين الحقيقة لعرف أن مشيئة الله أوجبت فعلك لا مشيئتك وأن تيأس من النجاة بعملك وترى النجاة برحمة الله مصدقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "لن

رجوع للفهرس

ينجى أحداً منكم عمله" قالوا ولا أنت يا رسول الله قال "ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل" (أخرجه البخارى حـ١١/٦٤٦٣ ومسلم حـ٤ منافقين/٧١ عن أبى هريرة).

وإذا أيس من عمله بداية وأيس من النجاة به نهاية شهد به فى كل ذرة منه ضرورة تامة إلى الله وأما شيم برق لطفه بك فإذا أيس العبد من عمله والنجاة به نظر إلى لطف الله وشام برقها وعلم أن كل ما هو فيه لطف من الله به ومنة من بها عليه وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه.

منزلة التذكر:

ثم ينزل القلب منزل التذكر وهو قرين الإنابة قال الله تعالى "وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ "{غافر/١٣} والتذكر والتفكر يثمران أنواع المعارف وحقائق الإيمان والإحسان والعارف لا يزال يعود بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره حتى يفتح قفل قلبه بإذن الله.

التذكر والتفكر:

التذكر فوق التفكر لأن التفكر طلب والتذكر وجود. والتذكر تفعل من الذكر وهو ضد النسيان فمنزلة التذكر من التفكر

رجوع للفهرس

منزلة حصول الشيئ المطلوب بعد التفتيش عليه كما قال الله تعالى " أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ {ق/٦} وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ {ق/٧} تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ {ق/٨}. فالتبصرة آلة البصر والتذكرة آلة الذكر وقرن بينهما وجعلها لأهل الإنابة والناس ثلاثة رجل قلبه ميت ورجل له قلب حى مستعد لكن غير مستمع للآيات المتلوة لشغل قلبه عنها بغيرها فهو غائب القلب والثالث رجل حى مستعد يسمع ويصغى بسمعه وقلب حاضر فهو شاهد القلب ملق السمع منتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

أبينة التذكر:

أبينة التذكر الانتفاع بالعظة حركة القلب للعمل خائفاً راجيا والعظة هى الأمر والنهى وهى العظة بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح على لسان الرسل والانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد والعظة بالمشهود الانتفاع بما يراه ويشهده فى العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ومجاريه وما يشهده

رجوع للفهرس

من آيات الله الدالة على صدق رسله واستبصار العبرة فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت فى مواقع الآيات والعبر فهو يظفر بها بالتفكر وأما الظفر بثمرة الفكرة لأن القلب حال التفكر كان قد كلَّ بأعماله فى تحصيل المطلوب فلما حصلت له المعانى وتخمرت فى القلب عاد فتذكر ما كان حصله وطالعه فابتهج به وفرح به ومثال لذلك فطالب المال مادام جاداً فى طلبه فهو فى كلال وتعب حتى إذا ظفر بالمال استراح من كد الطلب فأبصر المال فأخذ يصرف المال فى وجوه الانتفاع به.

تفسير الحكمة والموعظة الحسنة:

يتنفع بالعظة بشدة الافتقار إليها والعمى عن عيب الواعظ وتذكر الوعد والوعيد. يشتد افتقار العبد إلى العظة بالترغيب والترهيب إذا ضعفت إنابته وتذكره ومتى قامت إنابته وتذكره لم يحتاج إلى التذكير والترغيب بل يحتاج إلى معرفة الأمر والنهى. فالمنيب شديد الحاجة إلى الأمر والنهى والمُعرض والغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب والمُعارض المتكبر شديد الحاجة إلى المجادلة. وترتبط هذه

رجوع للفهرس

الأشياء بقوله تعالى " ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ "{النحل/١٢٥} فأطلق الحكمة ولم يقيدها بوصف الحسنة إذ كلها حسنة، والموعظة وصفها بالإحسان وليس كل موعظة حسنة وكذلك الجدال قد يكون بالتى هى أحسن وقد يكون بغير ذلك ويعتمد على حال المجادل وغلظته ولينه وحدته ورفقهِ فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن والمجادلة بالحجج والبراهين والكلمات التى هى أحسن شيئ وأدلة على المقصود الموصل للمطلوب. وأما العمى عن عيب الواعظ وهو أن يكون الواعظ من العاملين بالكلام الذى يعظ به ولاينتفع بوعظه.

وقال بعض السلف إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهى فإذا أمرت بشيئ فكن من أول الفاعلين له والمؤتمرين به وإذا نهيت عنه فكن أول المنتهين عنه. فالعمى عن عيب الواعظ من شروط تمام الإنتفاع بموعظته.

رجوع للفهرس

وأما تذكر الوعد والوعيد فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه كما فى قوله تعالى " إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ" {هود/١٠٣}، وقوله "سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى" {الأعلى/١٠} ، وقوله " إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا "{النازعات/٤٥}، وقوله " نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ" {ق/٤٥}، فالإيمان بالوعد والوعيد شرط فى الانتفاع بالعظات والآيات والعبر يستحيل حصوله بدونه. العبرة بحياة العقل والعبرة هى الاعتبار فمن علم أن أصابته محنة وبلاء لسبب إرتكبه علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه وحياة الفعل هى صحة الإدراك وقوة الفهم والانتفاع بالشيئ والتضرر به وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه بحسب تفاوت النفس فى قوة النور وضعفه والدعاء "يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت" تحيى القلب وقال ابن تيمية من داوم على "يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث" بين سنة الفجر وصلاة الفجر حصلت له حياة القلب.

رجوع للفهرس

جنى ثمرة التفكير:

إنما تجنى ثمرة الفكرة بقصر الأمل والتأمل فى القرآن وقلة الخلطة والتمنى والتعلق بغير الله والشبع والمقام. وتجنى ثمرة الفكرة بقصر الأمل وتدبر القرآن وتجنب مفسدات القلب الخمسة وأما قصر الأمل فهو العلم بقرب الرحيل وإنقضاء الحياة وهو من أنفع الأمور للقلب ويبنى على تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ولقاء الآخرة وبقائها ودوامها ثم يقايس بين الأمرين ويؤثر أولاهما بالإيثار.

فوائد تدبر القرآن:

فأنفع شيئ للعبد فى معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع الفكر على معانى آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر وطرقها وأسبابها وغاياتها وثمراتها ومآل أهلهما يوضع فى يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه وتحضره بين الأمم ونريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر وتشهده عدل الله وفضله وتعرفه ذاته وصفاته وأفعاله وما يجب وما يبغض والصراط الموصل إليه وما لسالكيه بعد

رجوع للفهرس

الوصول والقدوم عليه وقواطع الطريق وآفاتها وتعرفه النفس وصفاتها ومفسدات الأعمال ومصححاتها أو تعرفه طريق أهل الجنة وطريق أهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم ومراتب أهل السعادة والشقاوة وأقسام الخلق وإجتماعهم فيما يجتمعون فيه وفيما يفترقون فيه. وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه وطريق الوصول إليه وما له من كرامة إذا قدم عليه ومقابل ذلك ما يدعو إليه الشيطان والطريقة الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

وضرورى للعبد معرفة الآخرة كأنه فيها وتغيبه عن الدنيا كأنه ليس فيها وتميز بين الحق والباطل فتُريه الحق حقاً وتُريه الباطل باطلاً، ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال والغى والرشاد وتعطيه حياة وسعه وإنشراح وبهجة وسروراً فيبصر فى شأن والناس فى شأن آخر.

ومعانى القرآن وأثره على التوحيد والعلم بالله من أوصاف الكمال وما ينزه عن النقص وعلى الإيمان بالرسل وصحة نبوتهم وحقوقهم وحقوق مرسلهم وعلى الإيمان بملائكته

رجوع للفهرس

وهم رسله فى خلقه وتدبير الأمور بإذنه ومشيئته وما يختص بالإنسان وخلقه إلى موته والإيمان باليوم الآخر وما أعد الله لأوليائه من النعيم ولأعدائه من العذاب وتفاصيل الأمر والنهى والشرع والقدر والحرام والحلال والمواعظ والعبر والأمثال والحكم والمبادئ والغايات فى خلقه وأمره.

وكلما خرج على الإنسان عدو له أو قاطع طريق ناداه القرآن الحذر الحذر فاعتصم بالله واستعن وقل حسبى الله ونعم الوكيل.

مفسدات القلوب:

ومفسدات القلب الخمسة: "كثرة الخلطة والتنمنى والتعلق بغير الله والشبع والمنام".

١ ـ كثرة الخلطة فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى يسود ويتشقق ويتفرق ويحصل له الغم والهم والضعف ويحمل القلب ما يعجز عن حمله من مؤنهِ قرناء السوء ويضيع المصالح وينشغل بقرناء السوء وبأمورهم وتشتت فكره فى مطالبهم وإراداتهم فما يبقى لله وللدار الآخر شيئ.

رجوع للفهرس

والضابط من هذا: أن يخالط الناس فى الخير والجمعة والجماعات والأعياد والحج وتعلم العلم والجهاد والنصيحة ويعتزلهم فى الشر والمباحات وإن دعت الحاجة إلى الخلطة فى الشر ولا يستطيع الاعتزال فلا يوافقهم ويصبر على أذاهم لأنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر وهذا الأذى يعقبه حب وتعظيم وثناء المؤمن ورب العالمين وموافقتهم فى الشر يعقبها ذل وبغض ومقت وذم المؤمنين ورب العالمين والصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة وإن دعت الحاجة إلى مخالطتهم فى المباحات فليغير هذا المجلس إلى طاعة الله ولا يلتفت إلى قول الشيطان أن هذا رياء وسمعة فليحاربه وليستعن بالله ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه فإن عجز عن ذلك فعليه أن يعتزلهم.

٢- ركوب بحور التمنى:

وهو بحر لا ساحل له وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم وإن المنى رأس أموال المفاليس وبضاعة كل نفس خبثه سفليه وكل من يتمنى بحسب حاله إما للقدرة والسلطان أو للضرب فى الأرض أو للأموال أو للنساء فيمثل المتمنى

رجوع للفهرس

صورة مطلبه فى نفسه وفاز بوصولها وظفر بها فإذا إستيقظ فإذا يده فى الحصير.

وأما صاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذى يقربه إلى الله فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة وأمانى أولئك خدع وغرور.

٣- التعلق بغير الله:

وهو أعظم المفسدات فإذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به وخذله من جهة ما تعلق وفاته تحصيل مقصوده من الله بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه فلا على نصيبه من الله حصل ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل وأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله فإن ما فاته من مصالحة وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت وهو أهون البيوت وبالجملة فأساس الشرك هو التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان كما قال الله تعالى " لاَّ تَجْعَل مَعَ اللّهِ إِلَـهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً "{الإسراء/٢٢}.

رجوع للفهرس

٤ـ الطعام:

وهو المفسد له نوعان ما يفسده لعينه كالمحرمات وهى محرمات لحق الله كالميتة والدم ولحم الخنزير وغيره ومحرمات لحق العباد كالمسروق والمغصوب والمنهوب وما أخذ بغير رضى صاحبه إما قهراً وإما حياءً أو تذمماً والآخر ما يفسده بقدر كالإسراف فى الحلال والشبع المفرط فإنه يثقله عن الطاعات ويقوى عليه مواد الشهوة ومجارى الشيطان والشبع يوسعها ومن أكثر كثيراً شرب كثيراً نام كثيراً فخسر كثيراً وفى الحديث المشهود "ما ملأ آدمى وعاءً شر من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه" (أخرجه أحمد حـ٤ صـ١٣٢ والترمذى حـ٤/٢٣٨٠ ابن ماجه حـ٢/٣٣٤٩).

٥ـ كثرة النوم:

فإنه يميت القلب ويثقل البدن ويضيع الوقت ويورث كثرة الغفلة والكسل ومنه المكروه حداً ومنه الضار غير النافع للبدن وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه ونوم أول

رجوع للفهرس

الليل أحمد وأنفع من آخره ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه والنوم عند العصر ضرر والنوم أول النهار ضرره إلا للسهر. ومن المكروه النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس فإنه وقت غنيمة وله مزية عظيمة عند السالكين فإن أول النهار مفتاحه ووقت نزول الأرزاق وحصول القسم وحلول البركة ومنه ينشأ النهار وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه نوم نصف الليل الأول وسدسه الأخير وهو مقدار ثمانى ساعات وهو أعدل النوم عند الأطباء وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم الطبيعة إنحرافاً بحسبه ومن النوم الذى لا ينفع النوم أول الليل عقب غروب الشمس وينهى عنه ومكروه شرعاً وطبعاً وكما أن كثرة النوم مورثه لهذه الآفات فمدامعته وهجره مورث لسوء المزاج وانحراف النفس وعدم الفهم والعمل.

منزلة الاعتصام:

ثم ينزل القلب منزلة الاعتصام وهو اعتصام بالله واعتصام بحبل الله قال الله تعالى " وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ

رجوع للفهرس

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {آل عمران/١٠٣}، وقوله " وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ {الحج/٧٨}.

والاعتصام من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والخوف فالعصمة الحمية والاعتصام الاحتماء والسعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله وبحبله وفيهما النجاة والاعتصام بحبله يعصم من الضلالة والهلكة والسائر إلى الله محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها تحتاج إلى العصمة من الضلالة والعدة التى تحصل له السلامة من قطاع الطرق. والاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل والاعتصام بالله يوجب له القوة ويلهمه الطريق.

رجوع للفهرس

والاعتصام فسره السلف فقال ابن عباس التمسك بدين الله وقال ابن مسعود هو الجماعة وقال مجاهد وعطاء عهد الله وقال قتادة وكثير من أهل التفسير هو القرآن. وقال مقاتل هو أمر الله وطاعته وفى الحديث: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ويسخط لكم ثلاثة يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً وأن تناصحوا من ولاة الله أمركم ويسخط لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال" (أخرجه مسلم حـ٣/أقضية/١٠ من حديث أبى هريرة).

وقال صاحب المنازل الإعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته ومراقبة أمره والمراقبة تكون بالطاعة لأجل أن أمر الله بها وأحبها كما قال طلق بن حبيب فى التقوى هى "العمل بطاعة الله على نور الله ترجو ثواب الله وترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله".

وهذا الإيمان والاحتساب المشار إليه فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كقوله: "من صام رمضان إيماناً وإحتساباً ومن قام ليلة القدر إيماناً وإحتساباً غفر له" (أخرجه البخارى حـ١/٣٨ ومسلم حـ١/مسافرين/٧٥ عن أبى هريرة).

رجوع للفهرس

فالصيام والقيام هو الطاعة والإيمان مراقبة أمر الله وإخلاص الباعث: هو أن يكون الإيمان الآمر لا شيئ سواه والاحتساب رجاء ثواب الله.

والاعتصام بالله هو التوكل عليه والامتناع به والاحتماء به وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه فإن ثمرة الاعتصام هو الدفع عن العبد والله يدافع عن الذين آمنوا فيدافع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به ويحميه ويدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد العدو الظاهر والباطن وشر نفسه ويدفع عنه قدرهِ بقدرهِ وإرادته بإرادته ويعيذه به منه.

درجات الاعتصام:

١ـ اعتصام العامة: يعتصم العامة بالخبر الوارد عن الله استسلاماً من غير منازعة بل إيماناً وإستسلاماً والانقياد إلى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما والتصديق بالوعد والوعيد والمعاملة على اليقين لا على الشك والتردد وسلوك طريق الاحتياط التى لا تنجى من عذاب الله.

والإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه فأما الإنصاف فى معاملة الله فأن يعطى حق العبودية حقها ولا ينزع ربه صفات إلهيته

رجوع للفهرس

كالعظمة والجبروت والكبرياء. وأما إنصافه لربه أن لا يشكر سواه على نعمه وينساه ولا يستعين بها على معاصيه ويحمده على رزقه ولا يعبد سواه. وأما الإنصاف فى حق العبيد أن يعاملهم بمثل ما يجب أن يعاملوه به.

٢ـ اعتصام الخاصة:

أ – صون الإرادة قبضاً فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه.

ب- إسيال الخلق على الخلق بسطاً وهذه حقيقة التصوف والتصوف خلق فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف فإن حسن الخلق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق وهو كف الأذى وحمل الأذى ويدير خده الأيمن والأيسر لمن لطم الأيمن ويعطى رداءه لمن سلب قميصه ويمشى ميلين مع من سخره ميلاً.

جـ رفض العلائق عزماً وهو العزم التام على رفض العلائق وتركها ظاهراً وباطناً وقطع علائق الباطن فإن قطعها لم تظهر علائق الظاهر فمتى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر ومتى كان فى قلبك ضرك ولو لم يكن فى

رجوع للفهرس

يدك منه شيئ وقال الإمام أحمد أيكون الرجل زاهداً ومعه ألف دينار قال نعم على شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت.

٣- اعتصام خاصة الخاصة:

وهو شهود الحق تفريداً بعد الاستحذاء له تعظيماً والاشتغال به قرباً. وشهود الحق تفريداً أن يشهد الحق سبحانه وحده منفرداً ولا شيئ معه.

والاستحذاء له تعظيماً وهو القرب وأن العبد يقرب من ربه والرب يقرب من عبده قال الله تعالى "فاسجد واقترب" {العلق/١٩} وفى الحديث الصحيح "إن الله تعالى قال من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشيئ أحب إلىّ مما افترضت عليه ومازال يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها وإن سألنى لأعطيته وإن استعاذنى لأعذيته وما ترددت عن شيئ أنا فاعله ترددى عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا

أكره مساءته" (صحيح الجامع الصغير ١٧٨٢ عن أبى هريرة).

وفى الحديث: "أقرب ما يكون الرب من عبده فى جوف الليل الأخير" (أخرجه الترمذى حـ٣٥٧٩/٥ عن عمرو بن عبسه، وفى الحديث أيضاً: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" (أخرجه مسلم حـ١/صلاة/٢١٥).

والاشتغال به قرباً: أن يشغله قرب الحق عن كل ما سواه وهذه حقيقة القرب وعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به.

منزلة الفرار:

قال الله تعالى " فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ "{الذاريات/٥٠} وحقيقة الفرار: الهرب من شيئ إلى شيئ وهو نوعان فرار السعداء إلى الله عز وجل وفرار الأشقياء وهو الفرار منه لا إليه. وأما الفرار إلى الله هو العمل بطاعته كما قال ابن عباس. وقال سهل بن عبدالله فروا مما سوى الله إلى الله وقال آخرون إهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة.

رجوع للفهرس

والفرار أنواع فرار العامة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً ومن الكسل إلى التشمير جَداً وعزماً ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء، والجهل نوعان عدم العلم بالحق النافع وعدم العمل بموجبه ومقتضاه وأجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل. وعدم مراعاة العلم جهلاً إما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل وإما لجهله بسوء ما تجنى عواقبه.

فالفرار المذكور هو الفرار من الجَهلْين من الجهل بالعلم تحصيله إعتقاداً ومعرفة وبصيرة ومن جهل العمل إلى السعى النافع والعمل الصالح قصداً وسعياً وقوله من الكسل إلى التشمير جداً وعزماً أى يفر من داعى الكسل إلى داعى العمل والتشمير بالجد هو صدق العمل وإخلاصه من شوائب الفتور والتسويف والفرق بين الجد هو صدق العمل والعزم هو صدق الإرادة واستجماعها. ومن الضيق إلى السعة وهو هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والأحزان والمخاوف التى تعتريه فى هذه الدار من جهة نفسه وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحة ومصالح من يتعلق به وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعدوه يهرب إلى سعة قضاء الثقة

رجوع للفهرس

بالله تبارك وتعالى وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه وتوقع المرجو من لطفه وبره.

فرار خاصة الخاصة:

وهو الفرار مما دون الحق إلى الحق ثم من شهود الفرار إلى الحق ثم الفرار من شهود الفرار وهو الفرار من الخلق إلى الحق ويشهد بهذا الفرار انفراد شهوده الذى فر إليه وبعد ذلك شهود فراره فيعد له إحساساً بالخلق فيفر ثانياً من شهود فراره فتنقطع النسب كلها بينه وبين الخلق بهذا الفرار الثانى فلا يبقى معه إلا ملاحظة فراره من شهود فراره فيفر من شهود الفرار فتنقطع حينئذ النسب كلها.

منزلة الرياضة (تمرين النفس على الصدق والإخلاص):

تمرين النفس على قبول الصدق إذا عرض عليها فى أقواله وأفعاله وإرادته فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له وقال الله تعالى: " وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {الزمر/٣٣} فهو صدقك وتصديق الصادقين لا يمنع ذلك الكبر والحسد وغيره. ورياضة العامة هى تهذيب الأخلاق بالعلم وتصفية الأعمال بالإخلاص

رجوع للفهرس

وتوفير الحقوق فى المعاملة. وأما تهذيب الأخلاق بالعلم وما يقتضيه العلم معتمداً على الشرع. وأما تصفية الأعمال بالإخلاص فهو تجريدها على أن يشوبها باعث لغير الله. وأما توفير الحقوق فى المعاملة أن تعطى ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملاً لتفوز بحمد الله وشكره.

ورياضة الخاصة هى حسم التفرق أن تقطع ما يفرق قلبك عن الله والإقبال عليه بكل القلب ولا تلتفت إلى غيره. وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه هو الإقبال على الله طلباً للزيادة فى إقباله مع الخوف عن السير إلى الله. والسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه.

وأما بقاء العلم يجرى مجراه فهو الذهاب مع داعى العلم أين ذهب به والجرى فى تيارهُ. وحقيقة ذلك الاستسلام للعلم مع عدم المعارضة بل امض مع حيث ذهب وذلك صعب جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم. وكثير من السالكين ينحرفون عن سبيل تخليه العلم وراء ظهره ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به.

رجوع للفهرس

منزلة السماع:

قال الله تعالى " وَاتَّقُوا اللّهَ وَاسْمَعُواْ" {المائدة/١٠٨}، وقوله " وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا" {التغابن/١٦}، " وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ" {النساء/٤٦}، " وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ {الزمر/١٧} الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ {الزمر/١٨}.

والسماع دليل على علم الخير فقال الله تعالى "وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ" {الأنفال/٢٣}. وهجروا السماع ونهوا عنه فقال الله تعالى "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ" {فصلت/٢٦}. والسماع لرسول الله إلى القلب فقال الله تعالى " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ "{الحج/٤٦}، وقوله "أَوَلَمْ يَهْدِ

رجوع للفهرس

لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ "{السجدة/٢٦}.

فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذى انبنى عليه وتخبط الناس فى المسموع واختلفوا وغلطوا فيه وحقيقة السماع تنبيه القلب على معانى المسموع وتحريكه عنها طلبًا وهربًا وحبًا وبغضًا فهو الحادى بكل أحد إلى موطنه. وأصحاب السماع من يسمع بطبعه ونفسه وهواه فيسمع ما يوافق طبعه. ومنهم من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله فيفتح له من المسموع بحسب استعداده. ومنهم من يسمع بالله لا يسمع بغيره وهذا أعلى سماعاً وأصح من كل أحد. وبالسماع يتميز النافع والضار والحق والباطل والممدوح والمذموم وأما المسموع فمسموع يحبه الله ويرضاه ويأمر به ويثنى على أهله ويرضى عنهم به. ومسموع يبغضه الله ويكره وينهى عنه ويمدح المُعرضين عنه. ومسموع مباح ومأذون فيه لا يحبه ولا يبغضه ولا يمدح ولا يذم فهو المباح شرعاً وتفصيل ذلك:

رجوع للفهرس

السماع الذى مدحه الله وأمر به وأثنى على أصحابه وذم المُعرضين عنه ولعنهم وجعلهم أضل من الأنعام وهم القائلون فى النار قال الله تعالى "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ "{الملك/١٠} وهو سماع آياته المنزلة وهى أساس الإيمان الذى يقوم عليه: سماع إدراك بالأذن وسماع فهم وعقل وسماع فهم وإجابة وقبول والثلاثة فى القرآن.

وأما سماع الإدراك فى قوله تعالى " وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا {الجن/١٠}، وقوله " قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ {الأحقاف/٣٠}، فهذا السماع يتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم فهو المنفى عن الإعراض والغفلة فقال الله تعالى "فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ {الروم/٥٢}، وقوله "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ" {فاطر/٢٢}.

رجوع للفهرس

فالتخصيص لإسماع الفهم والعقل وإلا فالسماع العام الذى قامت به الحجة لا تخصيص فيه ومنه قوله تعالى "وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ "{الأنفال/٢٣} أى لو علم الله فيهم الكفر قبولاً وانقياداً لأفهمهم.

وأما سماع القبول والإجابة: ففى قوله تعالى عن المؤمنين "إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "{النور/٥١}، وقوله " لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ {التوبة/٤٧}.

وسماع خاصة الخاصة المقربين هو سماع القرآن أو ما كاد فهماً وتدبراً وإجابة وكل سماع فى القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم وأمر به أولياءه هذا هو السماع فهذا السماع إلى كل خير ومؤدى إلى طريق الجنان والمبغوض من السماع هو كل ما يضر العبد قلبه ودينه كسماع الباطل إلا إذا تضمن رد الباطل وسماع اللغو الذى مدح تاركه فقال الله

رجوع للفهرس

تعالى "وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ"{القصص/٥٥}، وقوله "وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا "{الفرقان/٧٢} وهو الغناء. وقال ابن مسعود "الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل".

درجات السماع:

سماع العامة: "إجابة زجر الوعيد رغبة وإجابة دعوة الوعد جهداً وبلوغ مساهمة المنة استبصاراً".

الوعيد يكون على ترك المأمور وفعل المحظور وإجابة داعيه وهو العمل بالطاعة وقولة رغبة يعنى امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد. وحقيقة الرجاء الخوف والرجاء فيفعل ما أمر به على نور الإيمان راجياً للثواب وبترك ما نهى عنه على نور الإيمان خائفاً من العقاب. وفى الرغبة أن يكون فعله راغباً مختاراً لا فعل كاره كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر. وأما إجابة الوعد جهداً فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلى الوعد به باذلاً جهده فى ذلك مستفرغاً فيه

رجوع للفهرس

قواه. وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً فما وصل من سماعة من خيرٍ فمنة من الله عليه وبفضله وبغير استحقاق منه ولا بذل عوض استوجب به كما قال الله تعالى: "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" {الحجرات/١٧}.

وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا وما لحقه من الضرر وأذى فهو منة أيضًا من الله عليه من وجوه كثيرة وقال بن الخطاب "لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت إن كان الغنى إن فيه للشكر وإن كان الفقر إن فيه للصبر" ، وقال بعض السلف "نعمة فيما ذوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها إنى رأيته أعطاها قوماً فاغتروا".

هل يشتد نعمته فيما لحقه من المعصية والذنب فنعم إذا اقترن بها التوبة النصوح والحسنات الماحية كانت من أعظم المنن على الإنسان.

سماع الخاصة:

شهود المقصود فى كل رمز هو الرب تبارك وتعالى فالمسموع كله يعرف به وبصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه

رجوع للفهرس

ووعده ووعيده وأمره ونهيه وعدله وفضله وينال هذا بالسماع لله وبالله وفى الله ومن الله. وأما السماع به أى لا يسمع وفيه بقية من نفسه ويكون السماع بقيومته مجرداً من التفاته لنفسه. وأما السماع له فإنه يجرد النفس فى السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله وتحصيل مراد الله من المسموع. وأما السماع فيه وهو تجرد ما لا يليق نسبته إلى الحق من وصف أو سمة أو مما هو لائق بكماله والتنزه عما لا يليق به وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون فى العلم والمعرفة بالله وأضل الله عنه أهل التحريف قال الله تعالى " كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {البقرة/٢١٣}. وأما السماع منه اختصه الله برسالاته وبكلامه.

رجوع للفهرس

وبالجملة فمن قرأ القرآن فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله فإذا حصل له ذلك السماع به وله وفيه ازدحمت معانى العلم والحكمة والبصيرة على قلبه. وأما الوقوف على الغاية كل حين هو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع وهو الحق سبحانه فإنه غاية كل مطلب وليس وراء الله مرمى وكل مطلوب سواه فظل ذائل.

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق: فالتفرق فى معانى المسموع وتنقل القلب إلى منازلها يوجب له لذة مجتمعاً على المسموع به وله ومنه.

سماع خاصة الخاصة:

وهو سماع ينفى العلل عن الكشف ويصل الأبد إلى الأزل ويرد النهايات إلى الأول.

الكشف: هو مكافحة القلب لحقيقة المسموع فلا تبقى معها شبهه فهذا هو عين اليقين والوسائط بين السامع والمسموع فيغيب بمسموعه عنها فهو الهادى فمنه الاسماع ومنه الهداية ومنه الابتداء وإليه الانتهاء.

رجوع للفهرس

وأما صلة الأبد إلى الأزل يوضح ذلك أن الأبد ظهر فيه ما كان كامناً فى الأزل خافياً فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته وبذلك ترد النهايات إلى الأول فتصير الخاتمة عين السابقة والله هو الأول والآخر وكل ما كان مردود إلى سابق علمه وحكمه فرجع الأبد إلى الأزل والنهايات إلى الأول.

منزلة الحزن:

فالحزن منهى عنه فى القرآن أو منفياً فى قوله تعالى "وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "{آل عمران/١٣٩}، وقوله "ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" {النحل/١٢٣}، وقوله "إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ "{التوبة/٤٠}، وقوله " قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ "{البقرة/٣٨}، والحزن موقف غير مسير ولا

رجوع للفهرس

مصلحة فيه للقلب وأحب إلى الشيطان ليوقف العبد عن السير إلى الله كما فى قوله تعالى "إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ "{المجادلة/١٠}، وقد استعاذ منه النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث "اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن" (أخرجه البخارى حـ٦/٢٨٩٣ عن أبى سعيد الخدرى) وهو قرين الهم والقلب يرث الهم على ما يرد على القلب. والمكروه الذى يرد على القلب لما يستقبل يورث الهم وإن لما مضى يورث الحزن وكلاهما مضعف للقلب وصرف الله عن أهل الجنة الحزن وفى الحديث "ما يصب المؤمن من هم ولا نصب ولا حزن إلا كفر الله به من خطاياه" (متفق عليه أخرجه البخارى حـ١٠/٥٦٤١، ٥٦٤٢، ومسلم حـ٤ بر/٥٢ عن أبى سعيد وأبى هريرة). فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصب بها العبد يكفر بها من سيئاته ولا يدل على أنه مقام ينبغى طلبه.

والحزن هو توجع لفائت وتأسف على ممتنع.

رجوع للفهرس

درجات الحزن:

الدرجة الأولى: حزن العامة وهو حزن على التفريط فى الخدمة والتورع فى الجفاء وعلى ضياع الأيام. والتفريط فى الخدمة فوق التفريط فى العمل وتضييعه بل الحزن يكون مع القيام بالعمل وهى حق العبودية وأدبها وواجبها وهو الحزن لتضييع العمل وأما التورط فى الجفاء بارتكاب المحظور لفقد الأنس بالله وأما تضييع الأيام بتضييعها وخلوها عن الطاعات ومواجيد الإيمان والأنس بالله ومن الصحبة معه.

الدرجة الثانية: حزن أهل الإرادة وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة وعلى اشتغال النفس عن الشهود وعلى التسلى عن الحزن بعدم الجمعية على الله وتشتيت الخواطر فى أودية المرادات واشتغال النفس عن الذكر الذى يوجب ويثمره بغيره وضعف الذكر بضعف القلب عن الشهود أو إنشغاله بمانع آخر وينشغل عن الحزن بفرح محمود وهو الفرح بفضل الله ورحمة فلا معنى للحزن.

الدرجة الثالثة: التحزن للمعارضات دون الخواطر ومعارضات القصود واعتراضات الأحكام. حزن المعارضات:

رجوع للفهرس

ترد على القلب وارد الرجاء يعارضة وارد الخوف ووارد البسط يعارضه وارد القبض ووارد الأنس يعارضه وارد الهيبة فتنشأ فى القلب حزناً. وهى من المعارضات الدينية وهى من آثار الأسماء والصفات وإتصالها بالقلب.

معارضات القصود: إن الصادق السالك إلى الله له طريقان هما طريق الحكم بالعلم أو التقليد فإن عجز عنهما انتظر حكم القدر ومنهم من يلقى الكل على شيخه ومنهم من يلجأ إلى الاستخارة والدعاء وما يجرى به القدر. وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم بالعلم والمعرفة ثم الظن الغالب ثم ترجيح المصلحة بعموم النفع أو زيادة الإيمان أو مخالفة النفس أو جلب مصلحة أو الأمن من الخوف من المفسدة.

وأما اعتراضات الأحكام الكونية الجارية بالاعتراض عليها لمخالفتها لإراداتهم فيما جرى لهم من حكم القدر فيحزنون على عدم الموافقة وأما إعتراضات الأحكام الدينية بالقيام بالأمر والنهى فيعرض لهم اعتراض خفى أو جلى فيحزنون لوجود هذه المعارضة منهم.

رجوع للفهرس

منزلة الخوف:

وهى من أجل المنازل وأنفعها للقلب وهى فرض على كل أحد وقال الله تعالى: "إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ "{آل عمران/١٧٥}، وقوله " يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ {البقرة/٤٠}، "إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ "{المائدة/٤٤}. ومدح أهل الخوف فى كتابه فقال تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ "{المؤمنون/٦٠}، وفى المسند والترمزى عن عائشة رضى الله عنها "قلت يا رسول الله قول الله "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ"، أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق قال لا يا ابنة الصديق ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن يُقبل منه" قال الحسن "عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم

رجوع للفهرس

إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية والمنافق جمع إساءة وأمناً" والوجل: الخوف والخشية والرهبة وهى ألفاظ مترادفة. الخوف: اضطراب القلب من المخوف وقيل قوة العلم بمجارى الأحكام وقيل هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره. والخشية أخص من الخوف والخشية للعلماء كما ذكر فى القرآن. وأما الرهبة فهى الإمعان فى الهرب من المكروه وهى ضد الرغبة التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب وأما الوجل فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه. وأما الهيبة فخوف مقارن للتعظيم والإجلال وأما الإجلال تعظيم مقرون بالحب.

فالخوف لعامة المؤمنين والخشية للعلماء العارفين والهيبة للمحبين والإجلال للمقربين وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية وقال أبو حفص الخوف سراج فى القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله فتهرب إليه فالخائف هارب من ربه إلى ربه وقال أبو سليمان ما فارق الخوف قلباً إلا خرب وقال إبراهيم بن سفيان إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها

رجوع للفهرس

وطرد الدنيا عنها "وقال ذو النون: الناس على طريق ما لم يزل عنهم الخوف فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق".

درجات الخوف:

قال ابن تيمية الخوف المحمود ما حجزك عن محارم الله وقال صاحب المنازل الخوف هو الإنخلاع من طمأنينة الأمن بمطالبة الخبر يعنى بالخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد والخوف ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: "الخوف من العقوبة هو خوف العامة ويصح به الإيمان ويتولد من تصديق الوعيد وذكر الجناية ومراقبة العاقبة". فالخوف مسبوق بالشعور والعلم فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به ويرجع إلى المكروه المحذور وقوعه والسبب والطريق المفضى إليه وبقدر المخوف يكون خوفه ومن اعتقد أن كذا يؤدى إلى كذا لم يخف من ذلك السبب ومن اعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما ولم يعرف قدره لم يخف منه ذلك الخوف وفى مراقبة العاقبة هى زيادة استحضار المخوف وجعله نصب عينه

رجوع للفهرس

بحيث لا ينساه وإن الخوف علامة الإيمان وإذا ارتحل من القلب ارتحل منه الإيمان.

الدرجة الثانية: "خوف المكر فى جريان النفس المستغرقة فى اليقظة المشوبة بالحلاوة". ومن حصلت له اليقظة بلا غفلة واستغرقت النفس منها استحلى ذلك فينبغى أن يخاف المكر ويسلب هذا الحضور واليقظة والحلاوة وكم من مغبوط انعكس حاله.

الدرجة الثالثة: "درجة الخاصة وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف إلا هيبة الجلال وهى أقصى درجة فى الخوف". ووحشة الخوف تكون مع الانقطاع والإساءة وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه فليس خوفهم خوف وحشة لأنهم مقبلون على الله ومحبته وهذا بخلاف هيبة الجلال لأنها متعلقة بصفته وذاته وكلما كان العبد أعرف كلما كان أقرب كانت هيبته وإجلاله فى قلبه أعظم وهى أعلى من درجة خوف العامة. وأكثر ما تكون الهيبة وقت مناجاة العبد لربه وتضرعه وتذلله وخشوعه واستعطافه والثناء عليه بأسمائه وصفاته أو

رجوع للفهرس

مناجاته بكلامه وهذا هو مراد القوم بالمناجاة وهذه المناجاة تكشف الغطاء بين القلب والرب وينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإن غلب عليه الرجاء فسد.

منزلة الإشفاق:

قال الله تعالى " الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ {الأنبياء/٤٩}، وقوله " وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ {الطور/٢٥} قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ {الطور/٢٦} فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ {الطور/٢٧}.

الإشفاق هو رقة الخوف وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة فإنها ألطف والرحمة وأرقها وقال صاحب المنازل الإشفاق هو دوام الحذر مقروناً بالترحم وهو إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد أى تسرع إلى طريق الهوى والعصيان ومعاندة العبودية وإشفاق على العمل أن يضيع والأعمال التى تضيع التى تكون لغير الله وعلى غير أمره وسنة

رجوع للفهرس

رسوله صلى الله عليه وسلم أو بترك العمل أو بمعاصى تحبطه ودرجات الإشفاق:

الدرجة الأولى: إشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها فهو إشفاق لمخالفة الأمر والنهى مع نوع رحمة لجريان القدر عليهم.

الدرجة الثانية: إشفاق على الوقت أن يخالطه ما يفرقه عن الحضور مع الله وعلى القلب أن يزاحمه عارض من فتره أو شبهة أو شهوة وكل سبب يعوق السالك وعلى اليقين أن يداخله سبب إلى غير الله.

الدرجة الثالثة: إشفاق يصون سعيه عن العجب ويكف صاحبه عن مخاصمة الخلق ويحمل المريد على حفظ الجد فالعجب يفسد العمل كما يفسده الرياء فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقه تصونه عنه والمخاصمة للخَلْقِ مفسدة للخُلُقِ فيشفق على خلقه من المفسد شفقة تصونه عنه والإرادة يفسدها عدم الجد وهو الهزل واللعب فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح عمله وخلقه وإرادته استقام سلوكه وقلبه وحاله.

رجوع للفهرس

منزلة الخشوع:

قال الله تعالى "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ {الحديد/١٦}، وقوله "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ {المؤمنون/١} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ "{المؤمنون/٢}.

الخشوع فى اللغة: الانخفاض والذل والسكون، والخشوع قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه وقيل الخشوع الانقياد للحق وهذا من موجبات الخشوع ومن علاماته انقياد العبد للحق وإن خالفه وقيل هو ضمور بنيران الشهوة وسكون دخان الصدور واشراق نور التعظيم فى القلب وقال الجنيد عن الخشوع هو تذلل القلب لعالم الغيب والخشوع محله القلب وثمرته على الجوارح وقال حذيفة وهو من الصحابة "إياكم وخشوع النفاق فقيل له وما خشوع النفاق قال أن ترى الجسم خاشعاً والقلب ليس بخاشع" وقال سهل من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان.

رجوع للفهرس

تعريف الخشوع:

قال صاحب المنازل الخشوع: "خمود النفس وهمود الطباع لمتعاظم أو مفزع". وهو انقباض النفس والطبع وضمور قوى النفس عن الانبساط لمن له فى القلوب عظمة ومحبة أو لما يفزع منه القلب والخشوع يكون من التعظيم والمحبة والذل والانكسار وهو على ثلاث درجات:

الدرجةالأولى: "التذلل للأمر والاستسلام للحكم والاتضاع لنظر الحق". فالتذلل للأمر تلقيه بذل القبول والانقياد والامتثال والافتقار إلى الهاية للأمر قبل الفعل والاعانة عليه حال الفعل وقبوله بعد الفعل. وأما الاستسلام للحكم عدم معارضته برأى أو شهوة أو الإستسلام للحكم القدرى وعدم تلقيه بالسخط والكراهة والاعتراض والحق أنه الإستسلام للحكمين والإنقياد بالذل والمسكنة لأمر الله وقضائه. وأما الاتضاع لنظر الحق فهو اتضاع القلب والجوارح وانكسارها لنظر الرب إليها وإطلاعه على تفاصيل ما فى القلب والجوارح ومقام الرب الاطلاع على عبده وقدرته وربوبيته

رجوع للفهرس

فخوفه من هذا المقام يوجب خشوع القلب. والتأويل الثانى مقام العبد بين يدى ربه عند لقائه.

الدرجة الثانية: "ترقب آفات النفس والعمل ورؤية فضل كل ذى فضل عليك وتنسم نسيم الفناء". وهو إنتظار ظهور نقائض النفس والعمل والعيوب فيجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب النفس وأعمالها ونقائصها من الكبر والعجب والرياء وضعف الصدق وقلة اليقين وتشتت النية وعدم إيقاع العمل على الوجه المرضى لله وأما رؤية فضل كل ذى فضل عليك: فهو أن تراعى حقوق الناس فتؤديها ولا ترى أن ما فعلوه من حقوقهم عليك فلا تعارضهم عليها فإنها من رعونات النفس وحماقاتها ولا تطالبهم بحقوق نفسك وتعترف بفضل ذى الفضل منهم وتنسى فضل نفسك.

قال ابن تيمية العارف لا يرى له على أحد حقاً ولا يشهد على غيره فضلاً ولذلك لا يعاقب ولا يطالب ولا يضارب.

وأما تنسيم نسيم الفناء فلما الفناء عنده غاية جعل هذه الدرجة كالنسيم لوقته والخشوع سبب موصل للفناء فاضله ومفصوله.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "حفظ الحرمة عند المكاشفة وتصفية الوقت من مراءاة الخلق وتجريد رؤية الفضل". فهو ضبط النفس بالذل والانكسار عن البسط والإدلال الذى تقتضيه المكاشفة فإن المكاشفة توجب بسطاً ويخاف منه شطح أن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة. وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق فلا يريد به أن يصفى وقته عن الرياء والمراد أن يخفى أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره لئلا يراها الناس فيعجبه إطلاعهم عليها ورؤيتهم له فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله. وقال ابن تيمية والله إنى الآن أُجدد إسلامى كل وقت وما رأيت أسلمت بعد إسلاماً جيداً. وأما تجريد رؤية الفضل فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله فهو المان به بلا سبب منك. والتجريد هو تخليص شهود الفضل لوليه حتى لا ينسبه إلى غيره وإلا فهو فى نفسه مجرد عن النسبة إلى سواه وإنما الشأن فى تجريده فى الشهود ليطابق الشهود الحق فى نفس الأمر.

رجوع للفهرس

الصلاة وعدم الخشوع:

الصلاة من عدم الخشوع هل يعتد بها أم لا وأما الاعتداد بها فى الثواب فلا يعتد بها إلا بما عقل فيه منها وخشع فيه لربه مصداقاً للحديث "إن العبد ليصلى الصلاة ولم يكتب له نصفها أو ثلثها أو ربعها حتى بلغ عشرها" (سنن أبى داود حـ١/٧٩٦ عن عمار بن ياسر).

وقد علق الله فلاح المصلينن بالخشوع فى صلاتهم فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح ولو اعتد بها ثواباً لكان من المفلحين. وأما الاعتداد بها فى أحكام الدنيا وسقوط القضاء فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً وكانت السنن والأذكار مكملات لنقصها، وإن غلب عليها عدم الخشوع فيها فقد اختلف الفقهاء فى وجوب إعادتها وقالوا إنها صلاة لا يثاب عليها ولم يضمن له فيها الفلاح ولم يتبرأ ذمته منها ويسقط القضاء عنها كصلاة المرائى ولأن الخشوع والعقل روح الصلاة ومقصودها فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها وبقيت صورتها. وأما تعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع تعطيل لملك الأعضاء

رجوع للفهرس

عن عبوديتها وعزل له عنها فماذا تعنى طاعة الرعية وعبوديتها وقد عزل ملكها وتعطل.

والأعضاء تابعة للقب تصلح لصلاحه وتفسد بفساده فإن لم يكن قائماً بعبوديته فالأعضاء أولى أن لا يعتد بعبوديتها وإذا فسدت عبوديته بالغفلة والوسواس فأنى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه وعن أمره مصدرون وبه يأتمرون.

وقال الله تعالى " فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ {الماعون/٤} الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ {الماعون/٥} وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين وإنما هو السهو عن واجبها إما عن وقت وإما عن الحضور والخشوع والصواب أنه يعم النوعين فقد أثبت لهم صلاة ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب ولذلك وصفهم بالرياء ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء. وبالجملة مصلحة الإخلاص والحضور وجميعه القلب على الله فى الصلاة أرجح فى نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها. وشرائع الاسلام على الأفعال

رجوع للفهرس

الظاهرة وأما حقائق الإيمان الباطنة فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب فلله تعالى حكم فى الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح وحكم فى الآخرة على الظواهر والبواطن ونحن فى حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائى مع أنه لا يسقط عنه العقاب ولا يحصل له الثواب فى الآخرة فصلاة المسلم الغافل المسوس وغلفة القلب عن كمال حضوره أولى بالصحة.

ولا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلاً وآجلاً فإن الصلاة ثواب عاجل فى القلب من قوة إيمانه واستنارته وانشراحه ووجود حلاوة العبادة والفرح والسرور واللذة التى تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله وحضر قلبه بين يده. وما يحصل للخاشع من الدرجات العلى فى الآخرة ومرافقة المقربين وكل هذا يفوته بفوات الحضور والخشوع وإن الرجلين ليكونا مقامهما فى الصف واحداً وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض. وإن أراد الإعادة لتحصل له الفائدة فذلك إن شاء أن يحصلها وإن شاء أن يفوتها على نفسه وإن أردتم بواجبها أن نلزمه بها ونعاقبه على تركها

رجوع للفهرس

وترتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا والقول الثانى أرجح القولين.

منزلة الإخبات:

قال الله تعالى "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ {الحج/٣٤} الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ"{الحج/٣٥}، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَى رَبِّهِمْ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ "{هود/٢٣}.

الخبت فى أصل اللغة: المكان المنخفض فى الأرض (قول ابن عباس). المخبتين: المتواضعون (قول قتادة)، المطمئن إلى الله عز وجل (قول مجاهد)، الخاشعون (قول الأخفش)، المصلون المخلصون (قول إبراهيم النخعى)، الرقيقة قلوبهم (قول الكلبى)، الذين لا يظلمون وإذا ظلموا لم ينتصروا (قول عمرو بن أوس) ومجموع هذه الأقوال التواضع والسكون إلى الله عز وجل والطمأنينة وقال صاحب المنازل هو أول

رجوع للفهرس

مقامات الطمأنينة كالسكينة واليقين والثقة بالله ونحوها فالإخبات مقدمتها ومبدؤها وهو ورود المأمن من الرجوع والتردد.

درجات الإخبات:

الدرجة الأولى: "إن تستغرق العصمة الشهوة وتستدرك الإرادة الغفلة ويستهوى الطلب السلوة". المريد السالك تعرض له غفلة عن مراده وتضعف إرادته وشهوة تعارض إرادته فتصده عن مراده ورجوع عن مراده وسلوة عنه والإخبات يحميه من ذلك فتستغرق عصمته شهوته. والعصمة هى الحماية والحفظ والشهوة الميل إلى مطالب النفس والاستغراق للشيئ هو الاحتواء عليه والإحاطة به. ونقول تغلب عصمته شهوته وتقهرها وتستوفى فى جميع أجزائها وهو دليل الإخبات. وتستدرك إرادته غفلته والإرادة هى أول منازل القاصدين إلى الله والمريد هو المسافر إلى الله والدار الآخرة والمخبت تحيط إرادته غفلته فيستدرك. وأما استهواء طلبه لسلوته فتقهر محبته سلوته وتسقط

رجوع للفهرس

والحاصل أن عصمته وحمايته تقهر شهوته وإرادته تقهر غفلته ومحبته تقهر سلوته.

الدرجة الثانية: "أن لا ينتقص إرادته سبب ولا يوحش قلبه عارض ولا يقطع عليه الطريق فتنته". والمخبت تتوقع عنه هذه الآفات لأن إرادته إذا قويت وجد به السير لم ينقضها سبب من أسباب التخلف. والنقض هو الرجوع عن إرادته والعارض هو المخالف كوحشة التفرد وينبغى على المخبت ألا يستوحش فى طريقه من قلة السالكين. والفتنة التى تقطع عليه الطريق فهو الواردات التى ترد على القلوب وتردها عن الحق والمخبت يتغلب على هذه الواردات.

الدرجة الثالثة: "أن يستوى عنده المدح والذم وتدوم لائحته لنفسه ويعمى عن تقصان الخلق عن درجته". والمخبت تعلو همته ونفسه عن المدح والذم فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم لاستغراقه فى عبوديته وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه. والوقوف عند مدح الناس وذمهم دليل على إنقطاع القلب وخلوه من الله ولم يذق حلاوة الطمأنينة والتعلق بالله. والنفس جبل عظيم شاق فى طريق السير إلى

الله وبلوغ المراد وإنه طريق يسير على من يسره الله عليه. ويرجع كثير من السائرين إلى الله بسبب الشيطان والمعصوم من عصمة الله. وبين العبد والسعادة قوة عزيمة وصبر وشجاعة نفس وثبات قلب يؤتيه من يشاء.

منزلة الزهد:

قال الله تعالى "مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" {النحل/٩٦}، وقوله " اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {الحديد/٢٠}، وقوله " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {يونس/٢٤}، وقوله "

رجوع للفهرس

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا {الكهف/٤٥} الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا {الكهف/٤٦}، وقوله " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً {النساء/٧٧}، وقوله " بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا {الأعلى/١٦} وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى {الأعلى/١٧}.

والقرآن مليئ بآيات التزهيد فى الدنيا والإخبار بخسارتها وسرعة فنائها، والترغيب فى الآخرة ودوامها وإذا أراد بعبد خيراً أقام فى قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار. وقال ابن تيمية الزهد ترك ما لا ينفع فى الآخرة والورع ترك ما تخاف ضرره فى الآخرة.

رجوع للفهرس

وقال سفيان الثورى: الزهد فى الدنيا قصر الأمل وقال الجنيد سمعت سرياً يقول إن الله عز وجل سلب الدنيا عن أوليائه وحماها أصفيائه وأخرجها من قلوب أهل وده لأنه لم يرضها لهم. والزاهد لا يفرح من الدنيا بموجود ولا يأسف منها على مفقود. وقال ابن خفيف عن الزهد هو عزوف القلب عن الدنيا بلا تكلف وقال الجنيد الزهد خلو القلب مما خلت منه اليد وقال الإمام أحمد الزهد فى الدنيا قصر الأمل وقال ابن عبدالواحد بن زيد الزهد فى الدنيا والدرهم. وقال أبو سليمان الدارانى ترك ما يشغل عن الله.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاث أوجه الأول ترك الحرام وهو زهد العوام والثانى ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص والثالث ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. وأجمع العارفون على أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا وأخذه فى منازل الآخرة والزاهد يزهد فى المال والصور والرياسة والناس والنفس وكل ما دون الله.

رجوع للفهرس

تعريف الزهد:

قال صاحب المنازل: الزهد هو إسقاط الرغبة عن الشيئ بالكلية يريد بالشيئ المزهود فيه ما سوى الله وإزالته عن القلب وإسقاط تعلق الرغبة به ولا يلتفت إليه ولا يتشوق إليه. والزهد للعامة قربة وللمريد ضرورة وللخاصة خشية.

درجات الزهد:

الدرجة الأولى: "الزهد فى الشبهة بعد ترك الحرام بالحذر من المعتبة والأنفة من المنقصة وكراهة مشاركة الفساق". فهو ترك ما يشتبه على العبد هل هو حلال أم حرام فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام ويترك الشبهة حتى لا يعاتبه الله وكذلك يأنف لنفسه من نقصه عند ربه وسقوطه من عينيه لا أنفته من نقصه عند الناس وسقوطه من أعينهم وإما كراهة مشاركة الفساق لأنهم يزدحمون على الرغبة فى الدنيا.

الدرجة الثانية: "الزهد فى الفضول وهو ما زاد على المسكة والبلاغ من القوت باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت وحسم الجأش والتحلى بحلية الأنبياء والصديقين". والفضول ما

رجوع للفهرس

يفضل قدر الحاجة والمسكة ما يمسك النفس من القوت والشراب واللباس والمسكن والمنكح إذا إحتاج إليه والبلاغ من ذلك الذى تبلغ به المسافر فى منازل السفر فيزهد فيما وراء ذلك لعمارة وقته ليشتغل فى جميع آنائه بما يقرب إلى الله أو يعين على ذلك من مأكل ومشرب وملبس ومنام وراحة. وأما حسم الجأش فهو قطع اضطراب القلب المتعلق بأسباب الدنيا رغبة ورهبة وحباً وبغضاً وسعياً. وأما التحلى بحلية الأنبياء والصديقين لأنهم أهل الزهد فى الدنيا حقاً وهم زاهدون وإن كانوا لها مباشرين.

الدرجة الثالثة: "الزهد فى الزهد باستحقار ما زهدت فيه واستواء الحالات فيه عندك والذهاب عن شهود الاكتساب ناظراً إلى وادى الحقائق". وهو احتقار ما زهد فيه بإمتلاء القلب بمحبة الله وتعظيمه وما تركه فى الدنيا هو قربان الآخرة وأما استواء الحالات عنده ومساواة بين ما زهد فيه وما يأخذه. وأما الذهاب عن شهود الاكتساب هو استصغار الدنيا بقلبه وتستوى عنده حالات الأخذ والترك والله هو المتفرد بالمنع والعطاء والله هو المعطى وهو المانع وما

رجوع للفهرس

يتركه الله وهو الذى منعه منه. فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه فإذا نظر فى الأشياء بين الجمع وسلك فى وادى الحقيقة غاب عن شهود اكتسابه وهو معنى قوله ناظراً إلى وادى الحقائق وهو زهد الخاصة.

منزلة الورع:

قال الله تعالى " يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ "{المؤمنون/٥١}، وقوله "وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ "{المدثر/٤}.

قال قتادة ومجاهد نفسك فطهر من الذنب وكنى عن النفس بالثوب، وقال ابن عباس لا تلبسها على معصية ولا غدر وقال الضحاك عملك فأصلح وقال سعيد بن جبير وقلبك وبيتك فطهر وقال الحسن والقرظى وخلقك فحسن.

والمقصود أن الورع يطهر دنس القلب ونجاسته كما يطهر الماء دنس الثوب ونجاسته وقد جمع النبى صلى الله عليه وسلم الورع كله فى كلمة واحدة فقال "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه" (أخرجه الترمذى حـ٤/٢٣١٧، وابن ماجة حـ٢/٣٩٧٦ من حديث أبى هريرة) فهذا يعم

رجوع للفهرس

الترك لما لا يعنى من الكلام والنظر والاستماع والبطش والمشى والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة.

وقال إبراهيم بن آدم الورع ترك كل شبهة وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات وفى الحديث "يا أبا هريرة كن ورعًا تكن أعبد الناس" (صحيح الجامع الصغير ٧٨٣٣ عن أبى هريرة).

وقال الشلبى: الورع أن تترك عن كل ما سوى الله وقال اسحاق بن خلف الورع فى المنطق أشد منه فى الذهب والفضة والزهد فى الرياسة أشد منه فى الذهب والفضة، وقال أبو سلمان الدارانى الورع أول الزهد كما أن القناعة أول الرضا.

وقال يحى بن معاذ: الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل وقيل الورع الخروج من الشبهات وترك السيئات وقال يونس بن عبيد الورع الخروج من كل شبهة ومحاسبة النفس فى كل طرفة عين. وقال سفيان الثورى: ما رأيت أسهل من الورع ما حاك فى نفسك فاتركه.

رجوع للفهرس

وقال سهل: الحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه وسأل الحسن غلامًا فقال له ما ملاك الدين قال الورع وآفته الطمع فعجب الحسن منه.

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة وقال أبو هريرة جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد وقال الصحابة كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع فى باب من الحرام.

تعريف الورع:

الورع: توقى مستقصى على حذر وتحرج وتعظيم، توقى الحرام والشبهه وما يخاف أن يضره أقصى ما يمكنه من التوقى لأن التوقى والحذر متقاربان والتوقى فعل الجوارح والحذر فعل القلب ويكون الباعث على الورع عن المحارم والشبه إما حذر حلول الوعيد وإما تعظيم الرب جل جلاله له أن يتعرض لما نهى عنه فالورع عن المعصية إما تخوف أو تعظيم والتوقى والتحرج بوصف الحذر والتعظيم هو نهاية لزهد العامة وبداية لزهد المريد.

رجوع للفهرس

درجات الورع:

الدرجة الأولى: "تجنب القبائح لصون النفس وتوفير الحسنات وصيانة الإيمان." وصون النفس وحفظها وحمايتها عما يشينها ويعيبها ويزرى بها عند الله وملائكته والمؤمنين وسائر خلقه. وتوفير الحسنات توفير اكتساب الحسنات لأن الاشتغال بالقبائح ينقص الحسنات لأن توفير الحسنات المكتسبة عن نقصانها بموازنة السيئات تحبطها وأما صيانة الإيمان لأن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية قاله الشافعى وغيره من الصحابة والتابعين والقبائح تسود القلب وتطفئ نوره والإيمان نور القلب فالحسنات تزيد نور القلب والسيئات تطفئ نور القلب.

الدرجة الثانية: "حفظ الحدود عند ما لا بأس به وإبقاء على صيانة والتقوى وصعودًا عن الدناءة وتخلصًا عن اقتحام الحدود". والصعود على درجات الورع بترك كثيرًا من المباح لصيانتها وخوفًا من تكدر صفوها وذهاب بهجتها ويطفئ نورها وأما الصعود عن الدناءة فهو الرفع عن

رجوع للفهرس

طرقاتها وأفعالها والتخلص عن اقتحام الحدود لأن الحدود هو النهايات ومقاطع الحلال والحرام فمن اقتحم وقع فى المعصية وقد نهى الله عن ذلك فقال تعالى " تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا" {البقرة/١٨٧} والحدود أوائل الحرام.

الدرجة الثالثة: "التورع عن كل داعية تدعو إلى شتات الوقت والتعلق بالتفرق وعارض يعارض حال الجمع". ومن يتشتت وقته فلا يجد بدًا من التعلق بما سوى مطلوبه الحق ومن لم يكن الله مراده أراد ما سواه ومن لم يكن هو وحده معبوده عبد ما سواه ومن لم يكن يعمل لله عمل لغير الله. فالمخلص يصونه الله بعبادته وحده وإرادة وجهه وخشيته وحده ورجائه وحده والطلب والذل والافتقار إليه وحده والورع على كل حال يعارض حال الجمع وهو استغراق العبد شهود فنائه فى التوحيد والجمعية على الله تعالى فى كل حال. والورع الخاص هو الورع عن كل حال يعارض حال القيام بالأمر والبقاء به فرقًا وجمعًا.

رجوع للفهرس

منزلة التبتل:

قال الله تعالى " وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا "{المزمل/٨}.

التبتل هو الانقطاع وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الأزواج ومصدر تبتل تبتلا كالتعلم والتفهم والتبتل هو الانقطاع إلى الله بالكلية ومن قام بقلبه معرفة وذوقًا وحالاً صح له مقام التبتل والتجرد المحض.

درجات التبتل:

الدرجة الأولى: "تجريد الانقطاع عن الحظوظ واللحوظ إلى العالم خوفًا أو رجاء أو مبالاة بحال". ويجمع أمرين اتصالاً وانفصالاً ولا يصح إلا بهما فالانفصال انقطاع قلبه عن حظوظ النفس والمزاحمة للرب وعن التفات قلبه إلى ما سوى الله خوفًا ورغبة منه وبحيث يشتغل القلب بالرب وأما الاتصال فهو اتصال القلب بالله وإقباله عليه حبًا وخوفًا ورجاء وإنابة وتوكلاً ويحصل بحسم الرجاء بالرضى هو الرضا بحكم الله عز وجل وقسمه لك فمن رضى لم يبق لرجاء الخلق فى قلبه موضع. وبحسم الخوف وهو التسليم

رجوع للفهرس

لله ويسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبك وكذلك بحسم مادة المبالاة بالناس وهى رؤية الأشياء كلها من الله وفى قبضته ولا يضر ولا ينفع إلا بإذنه ومشيئته.

الدرجة الثانية: "تجريد الانقطاع عن التعريج على النفس بمجابهة الهوى وتنسم روح الأنس وشيم برق الكشف". انقطاع النفس عن الهوى بمجانبة الهوى ومخالفته ونهى نفسه عن الهوى ومخالفة الهوى فإذا النفس انقطع هواها وجدت روح الأنس بالله وكذلك شيم برق الكشف ويحصل بالكشف عن منازل السير والكشف عن عيوب النفس وآفات الأعمال ومفسداتها والكشف عن معانى الأسماء والصفات وحقائق التوحيد والمعرفة.

الدرجة الثالثة: "تجريد الانقطاع إلى السبق بتصحيح الاستقامة والاستغراق فى قصد الوصول والنظر إلى أوائل الجمع". الانقطاع إلى السبق وهو الإعراض عما سوى الحق والإقبال عليه والاشتغال بمحبته والاستغراق فى قصد الوصول بحيث يستغرق همومه وعزائمه وإرادته وأوقاته.

رجوع للفهرس

ويحصل كذلك بالنظر فى أوائل الجمع فالجمع قيام الخلق كلهم بالحق وحده وقيامه عليهم بالربوبية والتدبير.

والدرجة الأولى الانقطاع عن الخلق والثانية انقطاع النفس والثالثة طلب السبق وتصحيح الاستقامة.

منزلة الرجاء:

قال الله تعالى " أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا {الإسراء/٥٧} فابتغاء الوسيلة إليه هى طلب القرب منه بالعبودية والمحبة ومقامات الإيمان الثلاثة تبنى على الحب والخوف والرجاء قال الله تعالى "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" {الكهف/١١٠}، وقوله "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "{البقرة/٢١٨}.

الرجاء: حاد القلوب إلى الله والدار الآخرة ويطيب لها السير.

وهو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح

رجوع للفهرس

لكرمه سبحانه، والفرق بينه وبين التمنى أن التمنى يكون مع الكسل والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل. ولا يصح الرجاء إلا مع العمل وعلامته حسن الطاعة.

والرجاء: رجاء محمود رجاء عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء ثوابه ورجل أذنب ذنوباً ثم تاب منها فهو راج لمغفرة الله وعفوه وحلمه وإحسانه. ورجاء مذموم كرجل مذنب مفرط يرجو رحمة الله بلا عمل فهذا هو التمنى الكاذب وقيل إن الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله.

وقالوا الخوف والرجاء كجناحى الطير إذا استويا الطير فطار، وأختلفوا فى الرجائين أكمل: رجاء المحسن ثواب إحسانه – أو رجاء المسيئ التائب مغفرة ربه وعفوه فقالوا رجحت رجاء المحسن لقوة أسبابه وقالوا أيضاً رجحت رجاء المذنب لأن رجاءُه مجرد عن علة رؤية العمل مقرون بذلة رؤية الذنب.

درجات الرجاء:

الدرجة الأولى: "رجاء يبعث العامل على الاجتهاد ويولد التلذذ بالخدمة ويوقظ الطباع للسماحة بترك المناهى". أى

رجوع للفهرس

ينشطه لبذل جهده لما يرجوه من ثواب ربه فإنه من عرف قدر مطلوبه هان عليه ما يبذل فيه وأنه كلما طالع قلبه ثمرتها وحسن عاقبتها التذ بها والمحب الصادق الساعى فى مراضى محبوبه الشاقة عليه كلما تأمل ثمرة رضاه عنه وقبوله وسعيه وقربه منه تلذذ بذلك بتلك المساعى.

الدرجة الثانية: "رجاء أرباب الرياضات أن يبلغوا موقفاً تصفو فيه هممهم برفض الملذوذات ولزوم شروط العلم واستقصاء حدود الحمية". أرباب الرياضيات هم المجاهدون لأنفسهم بترك مألوفاتها واستبدالها بما هو خير منها لبلوغ المقصود بصفاء الوقت والهمة من تعلقها بالملذوذات وتجريد الهم عن الالتفات إليها ويلزم شروط العلم للوقوف عند الأحكام الدينية فرجاءهم متعلق بحصول ذلك لهم واستقصاء حدود الحمية وهذه الحمية هى الامتناع من تناول ما يخشى ضرره أو عاجلاً وله حدود متى خرج العبد عنها انتفض عليه مطلوبه والوقوف على حدودها بلزوم شروط العلم والاستقصاء فى تلك الحدود بأمرين يبذل الجهد فى معرفتها علماً وأخذ النفس بالوقوف عندها طلباً ومقصداً.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "رجاء أرباب القلوب وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق المبغض المنعش للعيش المزهد فى الخلق". وهذا أفضل أنواع الرجاء وأعلاها وقال الله تعالى "قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا" {الكهف/١١٠}، وقوله تعالى "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "{العنكبوت/٥}.

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وتَشْخَص إليه الأبصار وهو يسكن النفس ويطمئنها.

منزلة الرغبة:

قال الله تعالى " وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا" {الأنبياء/٩٠}

والفرق بين الرغبة والرجاء أن الرجاء طمع والرغبة طلب فهى ثمرة الرجاء والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه ومن خاف شيئًا هرب منه والراجى طالب والخائف هارب.

رجوع للفهرس

درجات الرغبة:

الدرجة الأولى: رغبة أهل الخبر: رغبة أهل الخبر: تتولد من العلم فتبعث على الاجتهاد المنوط بالشهود وتصون السالك عن وهن الفترة وتمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثة الرخص. والخبر هو الإيمان الصادر عن الأخبار وتتولد من العلم وهذا الإيمان متصل بالإحسان وصولاً إليه وأما المنوط بالشهود وهو مقام الإحسان وهذا الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ولا مشهد للعبد فى الدنيا أعلى من هذا. وجميع مقامات الدين فى الإسلام والإيمان والإحسان. وتحقيق مقام الإحسان يكون بالفناء فى حبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه وعبادته والتبتل إليه عن غيره وإما صيانه السالك عن وهن الفترة وهو الحفظ من الوهن والكسل بسبب عدم الرغبة أو قلتها وأما تمنع صاحبها من الرجوع إلى غثاثه الرخص لأن أهل العزائم يبنون أمرهم على الجد والصدق فالسكون منهم إلى الرخص رجوع وبطالة.

الدرجة الثانية: رغبة أرباب الحال: وهى رغبة لا تبقى من المجهود مبذولاً ولا تدع للهمة ذبولاً ولا تترك غير القصد

رجوع للفهرس

مأمولاً لأن الرغبة الحاصلة تجعله يبذل من الجهد ومن الهمة والعزيمة مقدوره ولا تترك فى قلبه نصيبًا لغير مقصودة.

الدرجة الثالثة: رغبة أهل الشهود: وهى تشرف بصحبة تقية تحمله عليها همة نقية لا تبقى معه من التفرق بقية وهى حال الفناء دون الالتفات إلى ما سوى الحق وأما التقية من إظهار الناس على حاله وإطلاعهم عليها صيانة لها وغيرة عليها وأما الحامل له على هذه الرغبة هى الهمة التقية والباعث عليها كمال الطهارة ولو بقيت عليها بقية منها تمنعها من وصولها إلى هذه الدرجة.

منزلة الرعاية:

وهى مراعاة العلم وحفظه ومراعاة العمل بالإحسان والإخلاص وحفظه من المفسدات ومراعاة الحال بالموافقة وحفظه بقطع اليقين فالرعاية صيانة وحفظ.

ومراتب العلم والعمل هى الرواية وهى النقل وحمل المروى والدراية هى فهمه وتعقل معناه ورعاية العمل بموجب ما

رجوع للفهرس

علمه ومقتضاه. فالنقلة همتهم الرواية والعلماء همتهم الدراية والعارفين همتهم الرعاية.

درجات الرعاية:

الرعاية صون بالعناية أى حفظ بالإعتناء والقيام بحق الشيئ الذى يرعاه وهى ثلاث درجات:

١- رعاية الأعمال ٢- رعاية الأحوال ٣- رعاية الأوقات

الدرجة الأولى: "فأما رعاية الأعمال: فتوفيرها بتحقيرها والقيام بها من غير نظر إليها وإجراؤها على مجرى العلم لا على التزين بها". وأما رعاية الأعمال فتوفيرها أى سلامتها من طرفى التفريط بالنقص والزيادة على الوجه المشروع فى حدودها وصفاتها وشروطها وأوقاتها وأما تحقيرها أى استصغارها فى عين العبد واستقلالها وأنه لم يوف حقها وأنه لا يرضى لربه بعمله ولا بشيئ منها وقيل علامة رضى الله عنك إعراضك عن نفسك وعلامة قبول عملك واحتقاره واستقلاله وصغره فى قلبك حتى إن العارف ليستغفر الله عقب طاعته وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثًا. وأما القيام بها فهى توفيتها

رجوع للفهرس

حقها. وقوله من غير نظر إليها أى من غير التفات إليها ويذكُرها مخافة العجب والمنة بها فيحبط عمله. وأما إجراؤها على مجرى العلم هى موافقة العمل مع العلم إخلاصها وطلب لمرضاة الله.

الدرجة الثانية: "وأما رعاية الأحوال: فهو أن يعد الإجتهاد مراءاة واليقين تشبعًا والحال دعوى". فيتهم نفسه فى إجتهاده بالمراءاة ولا يعتد به وما حصل له من اليقين هو بفضل الله عليه وعطاؤه له فما للعبد فى اليقين مدخل وإنما هو متشبع بما هو ملك لله وفضله ونعمه على عبده وإما أن يتهم يقينه ولم يحصل له الوجه الذى ينبغى بل ما حصل له منه هو كالعارية لا الملك المستقر فهو متشبع بزعم نفسه بأن اليقين ملكه وله وليس كذلك. واليقين هو روح العمل وعموده وزروة سنامه. والحاصل أن يتهم نفسه فى حصول اليقين فإذا حصل فليس حصوله به ولا منه ولا له فيه شيئ فهو يذم نفسه فى عدم حصوله ولا يحمدها عند حصوله.

الدرجة الثالثة: "رعاية الأوقات فهو الوقوف مع كل خطوة ويغيب حضوره بالصفاء من وسمه ويذهب عن شهود صفو

رجوع للفهرس

صفوه". ويكون بالوقوف مع حركة ظاهرة وباطنة وفقاً لنيته وقصده وإخلاصه ومتابعته فلا يخطو هجمًا وهمجًا بل يقف قبل الخطو حتى يصحح الخطوة وتعدمه فى كل خطوة فهو عين الصفاء من نفسه فعند ذلك يشاهد فضل ربه. وأما ذهابه عن شهود صفوه فلا يستحضره فى قلبه مشاهدة لذلك الصفو المطلوب واقفًا عنده ويغيب عن ذلك الصفو بمشاهدة المطلب الأعلى.

منزلة المراقبة:

قال الله تعالى: " وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَن تَقُولُواْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ {البقرة/٢٣٥}، وقوله " لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا" {الأحزاب/٥٢}، وقوله " هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

رجوع للفهرس

عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" {الحديد/٤}، وقوله " أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى" {العلق/١٤}، وقوله " يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ "{غافر/١٩}، وفى حديث جبريل عليه السلام سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال له "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (أخرجه البخارى حـ١/٥٠، ومسلم حـ١/إيمان-٥).

المراقبة: دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه وأن الله رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله مطلع عليه فى كل لحظة وفى كل نفس وفى كل طرفة عين. وقيل من راقب الله فى خواطره عصمه فى حركات جوارحه.

وقال الجنيد: من تحقق فى المراقبة خاف على فوات لحظة من ربه ولا غير.

وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله وتعظيم ما عظم الله وتصغير ما صغر الله.

رجوع للفهرس

وقيل الرجاء يحرك إلى الطاعة والخوف يبعد عن المعصية والمراقبة تؤديك إلى طريق الحقائق.

وقال الجريرى: أن تُلزم نفسك المراقبة لله وأن يكون على ظاهرك قائمًا.

وقال إبراهيم الخواص: المراقبة خلوص السر والعلانية لله عز وجل. ومن راقب الله حفظه الله فى حركاته فى سره وعلانيته.

والمراقبة هى التعبد باسمه الرقيب الحفيظ العليم السميع البصير فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة.

درجات المراقبة: المراقبة دوام ملاحظة المقصود أى دوام حضور القلب وهى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: "مراقبة الحق تعالى فى السير إليه على الدوام بين تعظيم مذهل ومداناة حامله وسرور باعث". وقوله تعظيم مذهل فهو إمتلاء القلب من عظمة الله عز وجل فلا يعظم غيره مستحضراً قلبه مع الله فيوجب محبة الله. ويتضمن ذلك سيراً إلى الله واستدامة هذا السير مستحضراً

رجوع للفهرس

لقلبه تعظيمًا لله لا لغيره متقرباً إلى الحق وكلما إزداد قربًا إزداد تعظيماً. وأما مداناة حامله فهو الدنو والقرب محمولاً على ما سبق ذكره وأما السرور الباعث فهو الفرحة والتعظيم واللذة فى المداناة وفى الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ومن يكره أن يعود فى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلغى فى النار" (أخرجه مسلم حـ١/إيمان/٥٦ من حديث العباس).

وقال ابن تيميه: إن لم تجد للعمل حلاوة فى قلبك وانشراحاً فاتهمه.

الدرجة الثانية: "مراقبة نظر الحق برفض المعارضة، بالإعراض عن الاعتراض ونقض رعونة التعرض". وهى صيانة الباطن بحفظ الحركات وصيانة الباطن بحفظ الخواطر والإرادات والحركات الباطنة ويتجرد الباطن من معارضة أمر الله ومن كل شبهه ومن كل محبة تزاحم محبة الله وتكون فى القلب السليم وهى حقيقة الأبرار المقربين العارفين.

رجوع للفهرس

والاعتراض ثلاثة أنواع:

١- الاعتراض على أسمائه وصفاته بالشبه الباطلة أى بالقواطع العقلية والسلامة من ذلك بالتسليم المحض للوحى وصحة ما جاء به سمعاً وعقلاً وهذا أكمل الإيمان.

٢- الاعتراض على شرعه وأمره بالآراء وإسقاط ما أوجبه الله والاعتراض على حقائق الإيمان بالخيالات والكشوفات الشيطانية الباطلة بإبطال دينهم الذى شرعه على لسان رسوله وذلك بخدع الشيطان والنفوس الجاهلة.

٣- الاعتراض على ذلك بالسياسات الجائرة وقدموها على حكم الله ورسوله وحكموا بها بين العباد وعطلوا شرع الله وعدله وحدوده. فقالوا إذا تعارض العقل قدمنا العقل وإذا تعارض الأثر والقياس قدمنا القياس وإذا تعارض الشرع والذوق قدمنا الذوق وإذا تعارض السياية والشرع قدمنا السياسة.

٤- الاعتراض على أفعال الله وقضائهِ وقدرهِ وهذا إعتراض الجُهال

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "مراقبة الأزل بمطالعة عين السبق استقبالاً لعلم التوحيد ومراقبة ظهور إشارات الأزل على أحايين الأبد ومراقبة الإخلاص من ورطة المراقبة". ويكون ذلك بشهود الحق بأزليته وحده مبينًا على التوحيد واستمرار وجود الحق سبحانه وحده مجردًا عن كل ما سواه وهو الأزل بالأبد وشهود المراقبة لا تكون إلا مع بقاء الله وهذه الدرجة أرفع درجة وهى مراقبة رضى الرب ومساخطه فى كل حركة والفناء عما يسخطه بما يجب ناظرًا إلى العبودية فانيًا عن مراده من ربه مهما علا بمراد ربه منه.

درجات تعظيم حرمات الله عز وجل:

الدرجة الأولى: "تعظيم الأمر والنهى لا خوفًا من العقوبة فتكون خصومة النفس ولا طلبًا للمثوبة استشرافًا للآخرة ولا مشاهدًا لأحد بعيدًا عن المراءاة وهذه الأوصاف من شعب عبادة النفس". الله يحب من عباده أن يسألوه الجنة ويستعيذوا من النار فإن العبد يحب أن يسأل ومن لم يسأله يغضب عليه والعمل لطلب الجنة محبوب من الله مرضى له ولعبوديته قياماً بها وإذا خلا القلب من ملاحظة الجنة والنار

رجوع للفهرس

والرجاء والهرب فُترت العزيمة وضعُفت الهمة ولذلك وصف الله الجنة لعباده وكذلك النار أعاذنا الله منها ومطلوب الأنبياء والرسل الجنة ومهربهم من النار.

وينقسم الناس إلى: من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه فهؤلاء أعداؤه حقًا وهم أهل العذاب والقسم الثانى من يريد الله ويريد ثوابه وهؤلاء خواص والقسم الثالث من يريد من الله ولا يريد الله فهو الجاهل بربه فليس فى قلبه غير نعيم الجنة مستنكراً رؤية ربه والقسم الرابع أن يريد الله ولا يريد منه وهذا هو العارف بالله.

الدرجة الثانية: "إجراء الخبر على ظاهره وهو أن تبقى أعلام توحيد العامة الخبرية على ظواهرها ولا يحتمل البحث عنها تعسفًا ولا يتكلف لها تأويلاً ولا يتجاوز ظواهرها تمثيلاً ولا يرعى إليها إدراكًا أو توهمًا". والعصمة أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصف به رسوله صلى الله عليه وسلم بإثبات الأسماء والصفات.

الدرجة الثالثة: "صيانة الانبساط: أن تشوبه جرأة وصيانة السرور أن يداخله أمن وصيانة الشهود أن يعارضه سبب".

رجوع للفهرس

وهذه الدرجة مختصة بأهل المشاهدة والغالب عليهم الانبساط والسرور وهو خروج عن العبودية والشطحات التى تخرجه عن عبوديته والمراقبة تصونه عن ذلك. وصاحب الانبساط والمشاهدة يداخله سرور فيجب ألا يأمن مكر الله وأما صيانة الشهود أن يعارضه سبب وصاحب الشهود يكون ضعيفاً فى شهود حقيقة التوحيد وينسب ما حصل له بسبب من هذا العبد وذلك ينقص توحيده.

منزلة الإخلاص:

قال الله تعالى "وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ {البينة/٥}، وقوله "إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ {الزمر/٢} أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ {الزمر/٣}، وقوله " قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي {الزمر/١٤} فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ

رجوع للفهرس

الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ {الزمر/١٥}.

قال الفضيل بن عياض: العمل هو أخلصه وأصوبه والعمل يكون لله خالصًا والصواب أن يكون على السنة وفى الحديث "ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم" (أخرجه بن ماجه حـ١/ ٢٣٠ عن زيد بن ثابت وأحمد حـ٣ صـ٢٢٥ عن أنس بن مالك).

إن القلب لا يبقى فيه غلاً وينقى عنه وينقى منه ويخرج عنه وكذلك القلب يغل على الشرك والغش وخروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة ودواء هذا الغل بالإخلاص والنصح ومتابعة السنة وذكرت الأحاديث أن الرياء يحبط العمل.

الإخلاص: استواء أعمال العبد ظاهراً وباطناً والرياء ظاهرهُ خير من باطنهُ، والصدق فى الإخلاص أن يكون باطنهُ أعمر من ظاهرهُ.

رجوع للفهرس

وقال الفضيل: ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما. وقال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد، وقال يوسف بن الحسين: أعز شيئ فى الدنيا الإخلاص وكم اجتهد فى إسقاط الرياء عن قلبى فكأنه ينبت على لون آخر. وقال أبو سليمان الدارانى: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.

تعريف الإخلاص:

الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب ويكون بعيداً عن شوائب النفس كالمدح والهرب من الذم والتعظيم أو طلب مال أو خدمة أو قضاء الحاجة وإرادة ما سوى الله بعمله.

درجات الإخلاص:

الدرجة الأولى: "إخراج رؤية العمل عن العمل والخلاص من طلب العوض على العمل والنزول عن الرضى بالعمل".

وآفات العمل ثلاث هى رؤيته وملاحظته وطلب العوض عليه والرضا به والسكون إليه والذى يخلص من رؤية عمله مشاهدته لمنة الله عليه والخلاص يكون بمعرفة ربه ومعرفة

رجوع للفهرس

نفسه والذى يخلص من طلب العوض على العمل علمه بأنه عبد لا يستحق على خدمة سيده أجراً وبعبوديته يخدم ربه الأجر والثواب من الله تفضلاً وإحساناً. والذى يخلص من الرضى بالعمل والسكون إليه هو التقصير فى أداء العمل وما فيه من حظ النفس والشيطان. وأما حظ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهل البصائر والصادقون والثانى ضعف العبد عن أداء حق العبودية فالعارف لا يرضى بشيئ من عمله لربه ولا يرضى نفسه طرفة عين.

الدرجة الثانية: "الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل فى نور التوفيق من عين الجود". والخجل من العمل هو شدة الحياء من الله إذ لم ير ذلك صالحاً له مع بذل المجهود قال الله تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ "{المؤمنون/٦٠}. وأما توفير الجهد باحتمائه من الشهود هو الاجتهاد فى العمل محتمياً عن شهوده منك وبك وهى أن العمل من عين جودهِ لا بك ولا منك واشتملت هذه الدرجة على: عمل وإجتهاد فيه وخجل وحياء من الله

رجوع للفهرس

وصيانة عن شهوده منك ورؤيته من عين جود الله وسبحانه ومنه.

الدرجة الثالثة: "إخلاص العمل بالخلاص من العمل تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدًا للحكم حرًا من رق الرسم ويكون ذلك بإتفاق العمل مع العلم". والعلم هو الإمام متقيدًا بالحكم الدينى ناظرًا إلى ترتيب الثواب والعقاب عليه وهو من مشيئة الله قائمًا بالأمر والنهى طبقًا للشريعة وأما ترك العمل يسير سير العلم: مشهد "لمن شاء منكم أن يستقيم" وسير صاحبه مشاهدًا للحكم مشهد "وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين" وأما قوله حرًا من رق الرسم يكون دخولاً تحت رق عبودية الحق وحده.

منزلة التهذيب:

وهى سبك العبودية فى كير الامتحان لإخراج ما فيها من الخبث والغش.

درجات التهذيب:

الدرجة الأولى: "تهذيب الخدمة أن لا يخالجها جهالة ولا يشوبها عادة ولا يقف عندها همة". ويكون ذلك بعدم

رجوع للفهرس

مخالطة الجهال لأنها ترد العبد فى موارد تفسد عليه عبوديته بأن يأتى بأفعال تخالف الموقف يبغضها الناس. فالخدمة إن لم يصاحبها علم يصون آدابها وحقوقها كانت فى مظنة أن تبعد صاحبها عن التقرب بغير إحباط ثوابها. وأما الخدمة إن شابتها عادة من عوائد النفس معتقدًا بأنها قربة وطاعة كمن اعتاد الصوم معتقدًا بها التقرب لله. ووقف الهمة عند الخدمة فإنها تضعف العبد فى التقرب لأن العبد دائمًا يستصغر خدمة ربه والقناعة غير محمودة فى هذا الموضع.

الدرجة الثانية: "تهذيب الحال وهو أن لا يجنح الحال إلى علم ولا يخضع لرسم ولا يلتفت إلى حظ". وجنوح العلم نوعان ممدوح ومذموم وأما الممدوح منه هو الالتفات إليه وإصغاؤه إلى ما يأمر به وتحكيمه عليه وإن لم يجنح إليه كان مذمومًا ناقصًا مبعدًا عن الله.

قال الجنيد: إن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله وإليه رجعوا فيها ولوبقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها والطرق كلها مسدودة على الخلق إلا

رجوع للفهرس

على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به فى طريقنا وعلمنا مقيد بالكتاب والسنة.

والمعرفة الصحيحة هى روح العلم والحال الصحيح هو روح العمل المستقيم فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقاً للعلم فهو كالروح الخبيثة. فالعلم الصحيح والعلم المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة. وأما قوله لا يخضع لرسم أى لا يستولى على قلبه شيئ من الكائنات بحيث يخضع له قلبه لأنه طالبًا لربه سبحانه فلا يقف عند المعاهد والرسوم. وأما قوله لا يلتفت إلى الحظ أى إذا حصل له الحال التام لم يشتغل بفرحه به لأن ذلك حظ من حظوظ النفس.

الدرجة الثالثة: "تهذيب القصد وهو تصفية من ذل الإكراه وتحفظه من مرض الفتور ونصرته على منازعات العلم". وتحصل بتصفيته من ذل الإكراه أى لا يسرق نفسه إلى الله كرهًا كالأجير المكلف بل يكون منجذبًا إلى الله طوعًا ومحبة وإيثارًا كما فى الحديث "وجعلت قرة عينى فى الصلاة"

رجوع للفهرس

(أخرجه أحمد حـ٣ صـ١٢٨ عن أنس). فقرة عين المحب ولذته فى طاعة محبوبه بخلاف المطيع كرهًا لأن الطائع كرهًا يطيع بالقهر بخلاف المحب المطيع بالمحبة لمحبوبه. وأما قوله ذل الإكراه وهو تحمل طاعة ربه قوة ونعيمًا ولذة وسرورًا بخلاف المطيع كرهًا الذى يطيع سيده قهرًا وخوفًا من عقوبة سيده. وأما قوله تحفظه من الفتور أى تقيه من مرض فتور القصد وضموره ويكون بترك ما لا يعنيه ولا يتكلم إلا فيما يرجو فيه زيادة إيمانه وحاله مصاحبًا من يعينه على ذلك. وأما قوله نصرة قصده على منازعات العلم بنصرة خاطر العبودية والإقبال على الله بكلية القلب على جواذب العلم مفرغًا لمسائله لأن العلم يطلب من العبد العمل للرغبة والرهبة والثواب وخوفًا من العقاب. وتهذيب القصد أن يكون قصده وعبوديته لله بلا علة وأن لا يحب الله لما يعطيه ويحميه منه فتكون محبته لله محبة الوسائل وتكون محبته لله محبة عبودية لأن المحب الصادق يخاف أن يكون محبته لغرض من الأغراض فتنقضى محبة الله عند إنقضاء ذلك الغرض ويجب أن تدوم محبته ولا تنقضى أبداً.

رجوع للفهرس

منزلة الاستقامة:

قال الله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ "{فصلت/٣٠}، وقوله " إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {الأحقاف/١٣} أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {الأحقاف/١٤}، وقوله " فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {هود/١١٢}. إن الاستقامة ضد الطغيان وهو مجاوزة الحدود فى كل شيئ وقال أبوبكر الصديق: الاستقامة "ألا تشرك به شيئًا" يريد الاستقامة على محض التوحيد، وقال عمر بن الخطاب: الاستقامة "أن تستقيم على الأمر والنهى ولا تروغ روغان الثعالب"، وقال عثمان بن عفان "أخلصوا العمل لله"، وقال على بن أبى طالب والعباس رضى الله عنهما "هى أداء الفرائض"، وقال الحسن "استقاموا على أمر الله فعملوا بطاعته واجتنبوا معصيته"، وقال مجاهد "استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله"،

رجوع للفهرس

وقال ابن تيميه "استقاموا على محبته وعبوديته ولم يلتفتوا عنها"، والمطلوب من العبد الاستقامة وهى السداد فإن لم تقدر عليها فالمقاربة فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة.

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال "سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله وقال ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل" (أخرجه البخارى حـ١/٣٩ ومسلم حـ٤/منافقين/٧١ عن أبى هريرة).

فجمع فى هذا الحديث مقامات الدين كلها فأمر بالاستقامة وهى السداد والإصابة فى النيات والأقوال والأعمال وأخبر فى حديث ثوبان أنهم لا يطيقونها فنقلهم إلى المقاربة وهو أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم والاستقامة والمقاربة لا تنجى يوم القيامة فلا يركن أحد إلى عمله ولا يعجب به ولا يرى أن نجاته به بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله. فالاستقامة كلمة جامعة آخذة لمجامع الدين وهى القيام بين يدى الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والإستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات

رجوع للفهرس

فالاستقامة فيها وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله وقال ابن تيمية: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

تعريف الاستقامة:

الاستقامة: روح تحيا به الأحوال كما تربو للعامة عليها الأعمال وهى برزخ بين وهاد التفرق وروابى الجمع وهو تشبيه الاستقامة للحال بمنزلة الروح للبدن فالبدن إذا خلا عن الروح فهو ميت وإذا خلا الحال عن الاستقامة فهو فاسد وحياة الأحوال بها. والسالك يكون فى أول سلوكه فى أودية التفرق سائراً إلى روابى الجمع فيستقيم فى طريق سيره غاية الاستقامة ليصل باستقامته إلى روابى الجمع فاستقامته برزخ بين تلك التفرقة التى كان عليها.

درجات الاستقامة:

الدرجة الأولى: "الاستقامة على الاجتهاد فى الاقتصاد لا عاديًا رسم العلم ولا يتجاوزا حد الإخلاص ولا مخالفًا نهج السنة". وتتضمن عملاً واجتهادًا فيه وبذل المجهود بين الإفراط ضياعًا والجور على النفس موافقة للعلم وإفراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص وقوعاً للأعمال على الأمر

رجوع للفهرس

ومتابعة السنة. وكل الخير فى الاجتهاد وبالاقتصاد وإخلاص مقرون بالاتباع.

الدرجة الثانية: "استقامة الأحوال وهى شهود الحقيقة لا كسبًا ورفض الدعوى لا علمًا والبقاء مع نور اليقظة لا تحفظًا". وأما شهود الحقيقة فهى حقيقة كونية ودينية والحقيقة الكونية تفرد الرب بالفعل والحقيقة الدينية فى الأمر والنهى والثواب والعقاب وما يحبه الله وما يرضاه وما يبغضه، وقوله لا كسباً يتحقق بمشاهدة الحقيقة التى لا تبدد مع بقاء النفس وزوال ظلمة النفس وأما قوله لا علماً يكون الحامل على ترك الدعوى لنهى العلم عنها وأما البقاء مع نور اليقظة فلا يطفئ نورها الغفلة.

الدرجة الثالثة: "استقامة بترك رؤية الاستقامة وبالغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة وتقويمه الحق". وهو الذهول بمشهوده عن شهوده فيغيب بالمشهود المقصود سبحانه عن رؤية استقامته وأما الغيبة عن تطلب الاستقامة بشهود إقامة الحق للعبد وتقويمه إياه وأن الله هو المقيم له والمقوم واستقامته وقيامه بالله لا من نفسه.

رجوع للفهرس

منزلة التوكل:

قال الله تعالى " قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {المائدة/٢٣}، وقوله " فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {التوبة/٥}، وقوله " وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا {الطلاق/٣}، وقوله "إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {الممتحنة/٤}، وقوله " قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {الملك/٢٩}، وقوله " فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ {النمل/٧٩}، وقوله "فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً {النساء/٨١}، وقوله " وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ" {الفرقان/٥٨}، وقوله " فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {آل

رجوع للفهرس

عمران/١٥٩}، وقوله " وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ {إبراهيم/١٢}.

والأحاديث الدالة على التوكل منها "لو كنتم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً" (أخرجه الترمزى حـ٤/٢٣٤٤ وابن ماجة حـ٢/٤١٦٤ وأحمد حـ١/صـ٣٠ عن عمر).

التوكل نصف الدين والنصف الثانى الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هى العبادة ومنزلة التوكل أوسع المنازل وأجمعها ويقع التوكل من المؤمنين والكفار والأبرار والفجار والطير والوحش والبهائم فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم متوكلون بتباين متعلق توكلهم فأولياؤه وخاصته يتوكلون عليه فى الإيمان ونصرة دينه وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه وفى محابه وتنفيذ أوامره.

ومن الناس يتوكلون على الله فى استقامته فى نفسه وحفظ حاله مع الله فارغاً عن الناس ومنهم من يتوكل عليه فى

رجوع للفهرس

معلوم يناله منه من رزق وعافية أو زوجة أو ولد ونحوذلك والأدنى درجة فى التوكل فى الحصول على الإثم والفواحش. وأفضل التوكل فى الواجب وهو واجب الحق والخلق والنفس وأنفعه فى التوكل فى التأثير فى الخارج لمصلحة دينية أو دفع مفسدة دينية وهو توكل الأنبياء فى إقامة دين الله ودفع فساد المفسدين وهذا توكل ورثتهم، والناس فى التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم ومن صدق توكله على الله فى حصول شيئ ناله فإن كان محبوباً كانت العاقبة محمودة وإن كان مسخوطاً كانت مضرة عليه وإن كان مباحاً حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ما توكل فيه ان لم يستعن به على طاعته.

معنى التوكل:

قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب لا باللسان ولا بالجوارح. وهو انطراح القلب بين يدى الرب.

وقال سهل: التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد.

ومنهم من يقول الرضى بالمقدور، وقال بشر فى التوكل: الرضى بما يفعل الله.

رجوع للفهرس

وقال يحيى بن معاذ التوكل الرضى بالله وكيلاً. ومنهم من يقول هو الثقة بالله والطمأنينة إليه والسكون إليه.

قال ذو النون هو ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما فيه. وقيل التعلق بالله فى كل حال.

وقال ذو النون: هو خلع الأرباب وترك الأسباب.

وقال أبو تراب النخشبى: هو طرح البدن فى العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية فإن أعطى شكر وإن منع صبر. وهو مركب من العبودية والربوبية والسكون للقضاء والقدر والطمأنينة وكفايته له وشكره إذا أعطى وصبره إذا منع.

وقيل التوكل قطع علائق القلب بغير الله.

وقيل التوكل أن يستوى عندك الإقلال والإكثار.

درجات التوكل:

١- التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالمتوكل يسكن إلى وعده وصاحب التسليم يكتفى بعمله وصاحب التفويض

رجوع للفهرس

يرضى بحكمه والتوكل صفة العوام والتسليم صفة الخواص والتفويض صفة خاصة الخاصة. التوكل صفة الأنبياء والتسليم صفة إبراهيم الخليل والتفويض صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

تعريف التوكل: معرفة بالرب وصفاته من قدرته وكفايته وقيومته وإنتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته وهى أول درجة فى مقام التوكل.

٢- اثبات فى الأسباب والمسببات والتوكل من أقوى الأسباب فى حصول المتوكل فيه فهو كالدعاء الذى جعله الله سببا للإجابة فالأسباب محل حكمة الله وأمره ودينه والتوكل متعلق بربوبيته وقضائه وقدره وتقوم عبودية الأسباب على ساق التوكل.

٣- رسوخ القلب فى مقام توحيد التوكل وهى توحيد القلب.

٤- إعتماد القلب على الله واستناده إليه والسكون إليه.

٥- حسن الظن بالله عز وجل لأن حسن الظن يدعو إلى التوكل على الله.

رجوع للفهرس

٦- استسلام القلب له وإنجذاب دواعيه كلها إليه وقطع منازعاته وهى أن يكون العبد بين يدى الله كالميت بين يدى الغاسل ويعنى الاستسلام لتدبير الرب.

٧- التفويض وهو روح التوكل وإلقاء الأمور كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً.

وثمرة التوكل: إذا توكل حق التوكل رضى بما يفعله وكيله وهو التوكل قبله والرضى بعده فمن توكل على الله قبل الفعل ورضى بالمقضى له بعد الفعل فقد قام بالعبودية. والتوكل كله الأمر إلى مالكه أى تسليمه إلى من هو بيده.

وتوكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه وهى عزل النفس عن الربوبية والقيام بالعبودية وهو معنى الرب وكيل عبده. أى كافيه والقائم بأموره ومصالحه لأنه نائبه فى التصرف. فوكالة الرب عبده أمر تعبد وإحسان له وخلعه منه عليه لا عن حاجة منه وإفتقاره إليه وأما توكيل العبد ربه فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته.

كله الأمر إلى مالكه:

رجوع للفهرس

وهو ثلاث درجات كلها تسير سير العامة:

الدرجة الأولى: "التوكل مع الطلب ومعطاة السبب على نية شغل النفس بالسبب مخافة ومنع الخلق وترك الدعوى". وصاحب هذه الدرجة يتوكل على الله ولا يترك الأسباب بل يتعاطاها بنية شغل النفس بما ينفعها خشية انشغالها بما يضرها وقيامه بالسبب لنفع النفس فيحصل له نفع نفسه وغيره وإنشغاله بالسبب للتخلص من إشارة الخلق إليه لحسن ظنه بنفسه وستراً لحاله ومقامه. والقيام بالأسباب محض العبودية وحق الله على عبده الذى توجه بمطالبه إليه وترتب عليه الثواب والعقاب.

الدرجة الثانية: "التوكل مع إسقاط الطلب وغض العين عن السبب لتصحيح التوكل وقمعًا لشرف النفس وتفرغاً لحفظ الواجبات". وإسقاط الطلب من الخلق لا من الحق فلا يطلب من أحد شيئًا وهذا من أحسن الكلام وأنفعه للمريد فالطلب من الخلق محظور ويباح للضرورة ونص الإمام أحمد على أنه لا يجب وكذلك شيخنا يشير إلى أنه لا يجب الطلب والسؤال لأنه ظلم فى حق الربوبية وحق الخلق وحق النفس

رجوع للفهرس

لأنه ذل لغير الله ومنازعته لما فى أيدى الناس وإمتهان للنفس فى مقام ذل السؤال لمن مثله أو خيراً منه وترك سؤال الله وهو السميع البصير وقبح للعبد المريد أن يتعرض لسؤال العبيد وفى الصحيحين "لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وليس فى وجهه مزعه لحم" (أخرجه البخارى حـ٣/١٤٧٤، ومسلم حـ٢-زكاة ٩٤ عن ابن عمر). وفى صحيح مسلم "من سأل الناس تكثرا فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر" (أخرجه مسلم حـ٢-زكاة ١٠٥) وفى السنن والمسند عن ثوبان "من تكفل لى أن لا يسأل الناس شيئًا أتكفل له بالجنة فقلت أنا" فكان لا يسأل أحدًا شيئًا وأما غض العين عن السبب لتصحيح التوكل. وأما قوله لشرف النفس لأن المتسبب قد يكون شريفًا فى العبادة والأسباب التى بها جاه وشرف فى الناس فإذا تركها يكون تركها قمعاً لشرف نفسه وإيثارًا للتواضع. وأما قوله تفرغًا لحفظ الواجبات بالتفرغ لحفظ الواجبات التى تزاحم الأسباب.

الدرجة الثالثة: "التوكل مع معرفة التوكل النازعة للخلاص من علة التوكل وهى أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء

رجوع للفهرس

هى مُلكه عزة لا يشاركه فيها مشارك فيكل شركته إليه فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد أن الحق سبحانه هو مالك الأشياء وحده". وصاحب هذه الدرجة يعرف حقيقة التوكل متخلصًا من علة التوكل وهو أن يعلم أن الله مالك للأشياء كلها فهو العزيز فى ملكه ولا يشاركه غيره فى ذرة منه وهناك أمران توكل وتوكيل فالتوكل محض الاعتماد والثقة والسكون إلى من له الأمر كله وعلم العبد بتفرد الحق بملك الأشياء كلها ولا يشاركه أحد فى ذرة من ذرات الكون فإذا تحقق من ذلك علماً ومعرفة اعتمد قلبه على الحق وحده وثقته به وسكن إليه واطمأن به عالماً أن جميع مصالحه كلها بيده وحده لا بيد غيره فأين يجد قلبه مناصاً من التوكل بعد هذا وعلة التوكل التفات قلبه إلى من ليس له شركة فى ملك الحق ويعمل على تخليص توكله من هذه العلة وعلة أخرى برؤية توكله والعلة الأخيرة صرف قوة توكله إلى غير الله فهذه هى علل التوكيل. وأما التوكل فهو التفويض ومن أخص مقامات العارفين كما فى الحديث "اللهم إنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك" (أخرجه البخارى حـ١٣ صـ٧٤٨٨ عن البراء بن عازب)، وقال الله تعالى عن

رجوع للفهرس

مؤمن آل فرعون "فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ "{غافر/٤٤} فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ" {غافر/٤٥}.

منزلة الصبر:

ذكر الله الصبر فى القرآن نحو تسعين موضعًا وهو واجب الأمة وهو نصف الإيمان فإن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر والصبر مذكور فى القرآن عشر نوعًا:

١- الأمر به نحو قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" {البقرة/١٥٣}.

٢- النهى عن ضده كقوله تعالى "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ" {الأحقاف/٣٥}.

٣- الثناء على أهله كقوله تعالى "الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ" {آل عمران/١٧}.

رجوع للفهرس

٤- إيجابه سبحانه ومحبته لهم كقوله تعالى "وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ" {آل عمران/١٤٦}.

٥- إيجاب معيته لهم أى حفظهم ونصرهم كقوله تعالى "وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ" {الأنفال/٤٦}.

٦- إخباره بأن الصبر خير لأصحابه كقوله تعالى "قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ" {النحل/٢٦}، " وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ

رجوع للفهرس

لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "{النساء/٢٥}.

٧- إيجاب الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى "مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" {النحل/٩٦}.

٨- إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب كقوله تعالى "قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ "{الزمر/١٠}.

٩- إطلاق البشرى لأهل الصبر كقوله تعالى "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" {البقرة/١٥٥}.

١٠- ضمان النصر والمدد لهم كقوله تعالى "بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ {آل عمران/١٢٥}.

رجوع للفهرس

١١- الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل عزائمه كقوله تعالى " وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {الشورى/٤٣}.

١٢- الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها الحظوظ العظيمة لأهل الصبر كقوله تعالى " وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ {القصص/٨٠} .

١٣- الإخبار بأنه ينتفع بالآيات والعبر أهل الصبر كقوله تعالى " وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ {إبراهيم/٥}.

١٤- الإخبار بأن النور المطلوب المحبوب والنجاة من المكروه المرهوب ودخوله الجنة بالصبر كقوله تعالى " جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ {الرعد/٢٣} سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ {الرعد/٢٤}.

رجوع للفهرس

١٥- أنه يورث صاحبه درجة الإمامة كما قال ابن تيمية بالصبر واليقين تنال الإمامة فى الدين كقوله تعالى "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ "{السجدة/٢٤}.

١٦-اقترانه بمقامات الإسلام والإيمان وبالتقوى والتوكل وبالشكر والعمل الصالح والرحمة ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد وفى الحديث "من يتصبر يصبره الله" (أخرجه البخارى حـ٣/١٤٩ ومسلم حـ٢/زكاة/١٢٤ عن أبى سعيد الخدرى) والأمر بالصبر عند المرض وعند المصيبة.

تعريف الصبر:

الصبر فى اللغة: الحبس والكف وقال الله تعالى " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا {الكهف/٢٨}. أى احبس نفسك عنهم فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط وحبس اللسان عن الشكوى وحبس

رجوع للفهرس

الجوارح على التشويش وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله وصبر عن معصية الله وصبر على امتحان الله فالأولان صبر على ما يتعلق بالكسب والثالث صبر على ما لا كسب للعبد فيه ويقول ابن تيميه الصبر على الطاعات أكمل من الصبر على إجتناب المحرمات وأفضل فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الله من مصلحة ترك المعصية ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره إليه من مفسدة المعصية.

أنواع الصبر:

الصبر ثلاث أنواع صبر بالله وصبر لله وصبر مع الله فالأول الاستعانة بالله وصبر العبد بربه لا بنفسه قال الله تعالى " وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ {النحل/١٢٧} والمعنى إن لم يصبرك الله فلن تصبر والنوع الثانى الصبر لله وصبر محبة لله وتقرباً إليه والثالث صبر مع الله أى مع أحكام الله الدينية صابراً نفسه معها ومقيما لها أينما توجهت وقوفاً على أوامر الله ومحبته وهو أشد أنواع الصبر وهو صبر الصديقين.

أقوال العلماء عن الصبر:

رجوع للفهرس

قال الجنيد: المسير من الدنيا إلى الآخرة هين على المؤمن وهجرة الخلق فى جنب الله شديد والسير من النفس إلى الله أصعب وشديد والصبر مع الله أشد والصبر تجرع المرارة من غير تعبس.

وقال ذو النون: التباعد عن المخلوقات والسكون عند البلية وإظهار الغنى مع الفقر وقيل الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب وقيل الفناء فى البلوى بلا ظهور ولا شكوى وقيل تعويد النفس الهجوم على المكاره وقيل المقام مع البلية بحسن الصحبة.

وقال عمرو بن عثمان: الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة.

وقال الخواص: الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقيل الصبر هو الاستعانة بالله وترك الشكوى.

مراتب الصبر: صابر ومصطبر ومتصبر وصبور وصبار فالصابر أعمها والمصطبر المكتسب للصبر والمتصبر الحامل نفسه عليه والصبور عظيم الصبر وأشد من غيره والصبار كثير الصبر وهذا فى القدر.

رجوع للفهرس

وقيل اصبروا على النعماء والبأساء والضراء ورابطوا فى دار الأعداء واتقوا إله الأرض والسماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء.

وقيل تجرع الصبر فإن قتلك قتلت شهيداً وإن أحياك أحياك عزيزاً وقيل الصبر لله غناء وبالله بقاء وفى الله بلاء ومع الله وفاء وعن الله جفاء والصبر على الطلب عنوان الظفر وفى المحن عنوان الفرج وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الصبر السماحة والشكوى إلى الله لا تنافى الصبر كما شكا يعقوب إلى الله وَعْد" بالصبر بالجميل وكان يعقوب صابراً مع الله وينافى الصبر شكوى الله لا الشكوى إلى الله.

قال صاحب المنازل: "الصبر حبس النفس على المكروه وعقل اللسان عن الشكوى وهو أصعب المنازل على العامة وأوحشها فى طريق المحبة وأنكرها على طريق التوحيد". والصبر آكد النازل فى طريق المحنة وألزمها للمُحبين ومن أعرف المنازل فى طريق التوحيد.

رجوع للفهرس

درجات الصبر:

الدرجة الأولى: "الصبر على المعصية بمطالعة الوعيد إبقاءً على الإيمان وحذرًا من الحرام وأحسن منها الصبر عن المعصية حياءً". ويرجع الصبر إلى الخوف من الوعيد والحياء من الله ويستعين على معاصيه بنعمهِ وفائدتهِ بقاء الإيمان وحذراً من الحرام. ومطالعة الوعيد والخوف منه يبعث على قوة الإيمان والحياء يبعث على قوة المعرفة ومشاهدة معانى الأسماء والصفات والأفضل من ذلك ترك المعصية محبة لله.

الدرجة الثانية: "الصبر على الطاعة بالمحافظة عليها دوامًا وبرعايتها إخلاصها وبتحسينها علمًا" وفعل الطاعة آكد من ترك المعصية والصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية.

الدرجة الثالثة: "الصبر فى البلاء بملاحظة حسن الجزاء وانتظاراً للفرج وتهويناً للبلية بعد أيادى المنن وبذكر سوالف النعم".

والصبر على البلاء بثلاثة أشياء:

رجوع للفهرس

١- ملاحظة حسن الجزاء والوثوق به ومطالعته يخف حمل البلاء وبقدر المشقة لشهود العوض وهذا يخفف على كل متحمل مشقة عظيمة حملها.

٢- إنتظار الفرج يخفف حمل المشقة.

٣- تهوين البلية بتعديد نعم الله على العبد فيما سلف والمنن فى الحال وملاحظة حسن الجزاء وإنتظار الفرج.

أنواع الصبر: الصبر لله وهو صبر العامة والصبر بالله وهو صبر المريدين والصبر على الله وهو صبر السالكين.

والمعنى: أن صبر العامة لله رجاءً لثوابه وخوفًا من عقابه. وصبر المريدين بالله بقوة الله ومعونته. والصبر على الله أى على أحكامه الجارية عليه ما جلبت عليه من محبوب ومكروه فهذه درجة السالكين.

ولأن الصبر له: عبادة والصبر به استعانة والعبادة غاية والاستعانة وسيلة والغاية مرادها لنفسها والوسيلة مرادها لغيرها.

والصبر له فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين وأصحاب مشهد "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" واعلم أن الصبر لله أكمل

رجوع للفهرس

من الصبر بالله والصبر على طاعته والصبر على معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره والصبر لله صبر أهل العبادة والزهد.

منزلة الرضى:

أجمع العلماء على أنه مستحب، ومؤكد استحبابه واختلفوا فى وجوبه وقال ابن تيمية أنه مستحب والرضى من جملة المقامات بأن الله مدحه وأثنى عليه وقال النبى صلى الله عليه وسلم "ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً" (أخرجه مسلم حـ١ /إيمان والترمزى حـ٢٦٣٣/٥ وأحمد حـ١ صـ٢٠٨ عن العباس وفى الحديث الآخر " من قال حين يسمع النداء رضيت بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً غُفر له ذنوبه" (أخرجه مسلم حـ١/صلاة/١٣ من حديث سعد بن أبى وقاص).

وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين وإليهما ينتهى وقد تضمنا الرضى بربوبيته وألوهيته والرضى برسوله والانقياد له والرضى بدينه والتسليم له ومن اجتمعت له فهو

رجوع للفهرس

صديق حقًا وهى سهلة الدعوى باللسان. ومن أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان.

والرضى بإلهيته يتضمن محبته وخوفه ورجائه والإنابة إليه والتبتل وانجذاب قوى الإرادة والمحبة كلها إليه ويتضمن رضاه بما يؤمر به والرضى بربوبيته يتضمن الرضى بتدبيره لعبده وإفراده بالتوكل والاستعانة به والثقة به والاعتماد عليه وأن يكون راضياً بكل ما يفعل به يتضمن الرضى بما يقدر له.

فالأول يتضمن رضاه بما يؤمر به والثانى يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

وأما الرضى بنبيه رسولاً هو الانقياد له متلقيًا الهدى منه ولا بحاكم إلا إليه ولا يحكم عليه غيره ولا يرضى بحكم غيره.

وأما الرضى بدينه الرضا بكل حكم أو أمر أو نهى والتسليم ولو كان مخالفاً لهوى نفسه أو شيخه وطائفته.

ومن أعظم أسباب حصول الرضى أن يلزم ما جعل الله رضاه فيه فإنه يوصله إلى مقام الرضى ولابد.

رجوع للفهرس

وقال الجنيد: الرضى هو صحة العلم الواصل إلى القلب فإذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضى. وقال ابن عطاء: الرضى سكون القلب إلى إختيار الله للعبد أنه إختار له الأفضل فيرضى به. وقيل رضى بما منه وأما الرضى به فأعلى من هذا وأفضل. واعلم أن الرضى والمحبة من أحوال أهل الجنة لا يفارقان المتلبس بهما فى الدنيا ولا فى البرزخ ولا فى الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: يبلغ العبد مقام الرضى إذا أقام نفسه على أربعة أصول يعامل بها ربه فيقول: إن أعطيتنى قبلت وإن منعتنى رضيت وإن تركتنى عبدت وإن دعوتنى أجبت.

شرط الرضى ألا يعترض على الحكم ولا يتسخطه:

وليس من شرط الرضى ألا يحس بالألم والمكاره بل لا يعترض على الحكم ولا يسخطه ولا تناقض بينهما لأن وجود التألم وكراهة النفس لا ينافى الرضى كرضى المريض بشرب الدواء الكريه ورضى الصائم فى اليوم الشديد الحر ورضى المجاهد بما يحصل له من ألم الجراح. وثمرة الرضى الفرح بالرب.

رجوع للفهرس

وقال الواسطى: استعمل الرضى جهدك ولا تدع الرضى يستعملك أى لا يكون عملك لأجل الرضى بحيث تكون هى الباعثة لك عليه بل اجعله آلة لك وسبب موصلاً إلى قصدك ومطلوبك فتكون مستعملاً له لا أنه مستعمل لك وهذا عام فى جميع المقامات القلبية كالمحبة مثلاً فتستعمل المحبة فى مرضاة المحبوب.

وقال ذو النون: ثلاثة من أعلام الرضى: ترك الاختيار قبل القضاء وفقدان المرارة بعد القضاء وهيجان الحب فى حشو البلاء.

وقال الحسين بن على: من اتكل على الله حسن اختيار الله له لم يتمن غير ما اختار الله له.

وسئل أبو عثمان عن قول النبى صلى الله عليه وسلم "أسألك الرضى بعد القضاء" فقال لأن الرضى قبل القضاء عزم على الرضى والرضى بعد القضاء هو الرضى.

وقيل الرضى: ارتفاع الجزع فى أى حكم كان –رفع الاختيار- إستقبال الأحكام بالفرح –نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد وهو ترك السخط.

رجوع للفهرس

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى رضى الله عنهما أما بعد "فإن الخير كله فى الرضى فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر".

والرضى ثلاثة أقسام: رضى العوام بما قسمه الله وأعطاه ورضى الخواص بما قدره وقضاه ورضى خواص الخواص به بدلاً من كل ما سواه.

درجات الرضى:

الدرجة الأولى: "رضى العامة وهو الرضى بالله ربًّا وتسخط عبادة ما دونه وهذا قطب رحى الاسلام وهو يطهر من الشرك الأكبر" والمعنى أن لا يتخذ رباً غير الله ويسكن إلى تدبيره وينزل به حوائجه قال الله تعالى "قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "{الأنعام/١٦٤}.

وتفسير الرضى بالله ربًّا أن يسخط عبادة ما دونه هذا هو الرضى بالله إلـهًا وهو من تمام الرضى بالله. فمن أعطى "الرضى به رباً" حقه سخط عباده ما دونه قطعًا. وأما قطب

رجوع للفهرس

رحى الإسلام: أن يرضى العبد بعبادة ربه وحده وأن يسخط عبادة غيره وأما قوله وهو يطهر من الشرك الأكبر لأن الشرك أكبر وأصغر فهذا الرضى يطهر صاحبه من الأكبر وأما الأصغر فيطهر منه نزوله منزلة "إياك نعبد وإياك نستعين".

شروط الرضا:

"أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد وأولى الأشياء بالتعظيم وأحق الأشياء بالطاعة" وتعتمد على أن يكون الله أحب شيئ إلى العبد وأن تسبق محبته كل محبة ومحبته غيره متخلفة وأن تقهر محبته كل محبة وأن تكون محبة غيره تابعة لمحبته.

الدرجة الثانية: "الرضى عن الله وهو الرضى عنه فى كل ما قضى وقدر وهذا من معاملات القلوب وهى لأهل الخصوص" وهو الرضى عنه فى أحكامه وأقضيته.

إن الرضى به ربًّا يتضمن الرضى عنه ويستلزمه فإن الرضى بربوبيته هو رضى العبد بما يأمره وينهاه ويقسمه له ويقدره عليه ويعطيه إياه ويمنعه إياه وكذلك فالرضا به

رجوع للفهرس

ربًّا متعلق بذاته وصفاته وأسمائه وربوبيته العامة والخاصة فهو الرضى به خالقًا –مدبرًا-آمرًا- ناهيًا – ملكًا – معطيًا – مانعًا – حكمًا – وكيلاً – وليًا – ناصرًا – معينًا – كافيًا – حسيبًا – رقيبًا – مبتليًا – معافيًا – قابضًا – باسطًا ... والرضى عنه فهو رضى العبد بما يفعله به ويعطيه إياه.

والرضا به ربًّا يتضمن توحيده وعبادته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجاءه ومحبته والصبر له وبه والشكر على نعمته وهو المعبود وحده واتخاذه وليًا ومعبودًا وإبطال عبادة كل ما سواه واتخاذه وليًا ومعبودًا. فالرضا به يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله والرضى بمحمد رسولاً يتضمن شهادة أن محمدًا رسول الله والرضى بالإسلام ديناً يتضمن التزام بعبوديته وطاعته وطاعة رسوله محمد فَجَمعت هذه الثلاثة الدين كله.

وقوله الرضى عنه فى كل ما قضى يكون بالرضاء بالله والرضى عن الله والرضا بقضاء الله فالرضا به فرض والرضى عنه من أجل الأمور وأشرف أنواع العبودية ولا

رجوع للفهرس

يطالب به العموم لعجزهم ومشقته عليهم وأوجبته طائفة كما أوجبوا الرضى به واحتجوا:

أنه إذا لم يكن راضيًا عن ربه فهو ساخط عليه وسخط العبد على ربه مناف لرضاه بربه وعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به ومنازعته له فى اختياره لعبده وأن الرب سبحانه يختار شيئًا ويرضاه فلا يختاره العبد ولا يرضاه وهذا مناف للعبودية.

وأما القول إنه لا يتخلص من السخط على ربه إلا بالرضى عنه إذ لا واسطة بين الرضا والسخط فكلام مدخول لأن السخط بالمقضى لا يستلزم السخط على من قضاه فالمقضى قد يسخط العبد وهو راض عمن قضاه وقدره. وأما قول "إنه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له فى إختياره" فليس كذلك بل هو حسن الظن بربه فى الحالتين فإنه يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر كما ينزع القدر الذى يكرهه ربه بالقدر الذى يحبه ويرضاه فينازع قدر الله بقدر الله بالله لله كما يستعيذ برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته ويستعيذ به منه. فأما كونه يختار لنفسه خلاف ما يختاره

رجوع للفهرس

الرب فاختيار الرب إما اختيار دينى شرعى فالواجب على العبد أن يختار فى هذا النوع غير ما اختاره له سيده كما فى قوله تعالى "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا "{الأحزاب/٣٦}. فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربًا وبالاسلام ديناً وبمحمد رسولاً. والنوع الثانى اختيار كونى قدرى لا يسخط الرب كالمصائب فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذى يرفعها عنه ويدفعها عنه وليس فى ذلك منازعة للربوبية وإن كان منازعة للقدر بالقدر فهذا يكون تارة واجبًا وتارة ومستحبًا وتارة مباحًا وتارة يكون مكروهًا وتارة يكون حرامًا وأما القدر الذى لا يحبه الله ولا يرضاه مثل العيوب والذنوب فالعبد مأمور بسخطها ومنهى عن الرضى بها.

ومتى خالط القلب بشاشة الإيمان واستنار القلب واطمأنت النفس تلقت أحكام الرب بصدر واسع منشرح مسلم. فقد رضى كل الرضى بالقضاء الدينى المحبوب لله ولرسوله.

رجوع للفهرس

وأما الرضى بالقضاء الكونى القدرى الموافق لما يحبه العبد ويرضاه مثل الصحة والغنى. فهو ملائم للعبد محبوب له فبعبوديته فى مقابلته بالشكر واعترافاً بمنة الله عليه فلا يعصى المنعم بها ويرى التقصير فى جميع ذلك وكذلك الرضى بالقضاء الكونى القدرى الجارى على العبد بخلاف ما يحبه ولا يلائمه فمستحب ومن مقامات أهل الإيمان. والرضى بالقدر الجارى عليه باختياره مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه كالظلم والفسوق والعصيان حرام يعاقب عليه ومخالفة للرب تعالى ولا يرضاه الله ولا يحبه فكيف تتفق المحبة ورضى ما يسخطه الرب ويبغضه فكيف يريد الله سبحانه أمرًا لا يرضاه ولا يحبه وكيف يشاؤه ويقدره. وذلك نوعان مراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته لما فيه من الخير وإما مراد لغيره فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته فيجتمع فيه البغض والإرادة وهو كالدواء المكروه الذى فيه الشفاء.

وسر المسألة أن الرضى بالله يستلزم الرضى بصفاته وأفعاله وأسمائه وأحكامه ولا يستلزم الرضى بمفعولاته كلها

رجوع للفهرس

بل حقيقة العبودية أن يوافقه العبد فى رضاه وسخطه فيرضى منها بما يرضى به ويسخط منها ما سخطه وإن قيل أن الله يرضى عقوبة من يستحق العقوبة فكيف يمكن للعبد أن يرضى بعقوبة الله له ولو وافقه فى رضاه بعقوبته لانقلبت لذة وسرورًا ولا يقع منه ذلك فإن لم يوافقه فى محبته وطاعته التى هى سرور النفس فكيف يوافقه فى محبته للعقوبة الشاقة عليه؟ بل كان كارهًا لما يحبه من طاعته وتوحيده فلا يكون راضياً بما يختاره من عقوبته ولو قيل ذلك لارتفعت عنه العقوبة. فكيف يجتمع الرضى بالقضاء مثل المرض والفقر الذى يكره العبد فيرضى به من جهة إفضائه إلى ما يحب ويكرهه من جهة تألمه به كالدواء الكريه الشافى فيرضى بالدواء ويكرهه. وكيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينه عليه لأن إعانته قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول الطاعة التى قد تكون تتضمن مفسدة أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ويكون وقوعها مستلزمًا لمفسدة راجحة ومفوتاً لمصلحة راجحة والدليل فى قوله تعالى "وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ {التوبة/٤٦}

رجوع للفهرس

لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ "{التوبة/٤٧} فاخبر سبحانه أنه كره إنبعاثهم للغزو مع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو طاعة لهم وقربة وقد أمرهم به فلما كرهه منهم ثبطهم عنه ومن مفاسد خروجهم السعى بالفساد والشر فاقتضت الحكمة عدم خروجهم.

وكيف يقصر رضى الرب تعالى ما يخلقه من وجه وكراهته من وجه آخر فكيف يجتمع الأمران بالنسبة إلى المعاصى والفسوق فالعبد يسخط ذلك ويبغضه ويكرهه من حيث هو فعل له بسببه وواقع بكسبه وإرادته واختياره ويرضى بعلم الله ومشيئته. فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه.

الرضى عن الله يتحقق بما يلى:

١- إن الراضى الموافق تستوى عنده حالات النعمة والبلية فى رضاه بحسن إختيار الله له.

٢- سقوط الخصومة عن الخلق لأن الرضى يصح بسقوط الخصومة مع الخلق لتنافى الخصومة مع الرضى وتنافى الأشياء كلها إلى من بيده القضاء والقدر. وفى

رجوع للفهرس

الخصومات آفات كالمنازعة التى تضاد الرضى ونقص التوحيد بنسبة ما يخاصم فيه إلى دون الخالق لكل شيئ ونسيان الموجب والسبب الذى جر إلى الخصومة فلو رجع العبد إلى السبب الموجب للخصومة لكان اشتغاله بدفعه أجدى عليه وأنفع له من خصومة من جرى على يديه، فإن كان ظالمًا فسبب ظلمه لنفسه كما فى قوله تعالى "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ "{الشورى/٣٠} فإذا اجتمعت بصيرة العبد بمشاهدة القدر أغلق عنه باب الخصومة إلا فيما كان حقاً لله ورسوله. فالراضى لا يخاصم ولا يعاتب إلا فيما يتعلق بحق الله وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يغضب لنفسه ويغضب إذا أُنتهكت حرمات الله فالمخاصمة لحظ النفس تطفئ نور الرضى.

٣- الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح:

لأن المسألة فيها الخصومة والنازعة والمحاربة والرجوع عن مالك الضر والنفع إلى من لا يملك والإلحاح ينافى حال الرضى ووضعه فقال الله تعالى " لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ

رجوع للفهرس

أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ "{البقرة/٢٧٣}، وقالوا يسأل الناس ما تدعو إليه الحاجة ولا يلحفون وقالوا لا يسأل لأنهم متعففون وتباح المسألة للحاجة والضرورة لأنها ظلم فى حق الربوبية وفى حق المسئول والسائل لأنه يدل سؤاله وفقره إلى غير الله فظلم توحيده وإخلاصه وفقره إلى الله وتوكله عليه واستغنى بسؤال الناس عن مسألة رب الناس فهضم حقه فى التوحيد وأما ظلمه للمسئول فبسؤاله ما ليس عنده فأوجب له بسؤاله حقاً لم يكن له عليه وعرضه للمنع أو العطاء فان أعطاه فيكون كارهاً وإن منعه يكون مستحيياً هذا إن سأله ما ليس عليه وأما إذا سأله حقاً هو له عنده فلم يدخل فى ذلك ولم يظلمه بسؤاله. وأما ظلمه لنفسه فإن أراق ماء وجهه وذل لغير خالقه وأنزل نفسه أدنى المنزلتين بإسقاط شرف نفسه وعزه وتعففه وراحته وقناعته وباع صبره وتوكله وقناعته بما قسم له واستغناءه عن الناس بسؤالهم فوضع نفسه فى غير

رجوع للفهرس

موضعها ووضع قدرها وأذهب عزها وصغرها وحقرها ورضى أن تكون نفسه تحت نفس المسئول ولولا الضرورة لم يبح ذلك الشرع وفى الحديث "ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم" (أخرجه البخارى حـ٣/١٤٧٤ ومسلم حـ٢/ذكاة/١٠٤ عن عبدالله بن عمر) وفى الباب أحاديث كثيرة لا تحصى. ومن شرط الرضى ترك الإلحاح فى المسألة. والمعنى الآخر أنه لا يلح فى الدعاء ولا يبالغ فيه فإن ذلك يقدح فى رضاه ويصح فى وجه دون وجه فيصح إذا كان الداعى يلح فى الدعاء بأغراضه وحظوظه العاجلة، وأما إذا ألح فى سؤاله بما فيه رضاه والقرب منه فذلك لا يقدح فى مقام الرضى وفى الحديث "من لم يسأل الله يغضب عليه" (أخرجه أحمد حـ٢ صـ٤٢٢ والترمزى حـ٥/٣٣٧٣ وابن ماجة حـ٢/٣٨٢٧ حديث حسن). فإن كان سؤاله يرضيه لم يكن الإلحاح فيه منافيًا لرضاه.

رجوع للفهرس

حقيقة الرضى:

موافقته سبحانه فى رضاه بل الذى ينافى الرضى أن يلح عليه متحكماً عليه متحيزاً عليه ما لم يعلم هل يرضيه أم لا كمن يلح على ربه فى ولاية شخص أو إعفائه أو قضاء حاجته فهذا ينافى الرضى لأنه ليس على يقين أن مرضاة الرب فى ذلك وقد يلح العبد على ربه حتى يذل ويخضع ويتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته وعدم تعلقه بغيره ما لم يحصل له بدون الإلحاح. والإلحاح فى المطلوب ثلاثة أمور:

١- أن يغنى بمطلبه وحاجته عن مراده ورضاه ويجعل الرب وسيلة إلى مطلوبه فهذا ينافى كمال الرضى به وعنه.

٢- أن يفتح على قلبه حال السؤال من معرفة الله والمحبة والذل والخضوع ما ينسيه حاجته ويكون ما فتح له من ذلك أحب من مطلوبه وتدوم به تلك الحال ويفرح بها أعظم من فرحته بمطلوبه لو عجلت له وفاته ذلك فهذا لا ينافى رضاه. وإن كان محبة الرب تعالى للدعاء فلا ينافى الإلحاح فيه الرضى.

رجوع للفهرس

٣- أن ينقطع طمعه فى الخلق ويتعلق بربه فى طلب حاجته وقد تنشأ له المصلحة من نفس الطلب وإفراد الرب بالقصد.

الدرجة الثالثة: "الرضى برضى الله فلا يرى العبد لنفسه سخطاً ولا رضى فيبعثه على ترك الحكم وحسم الاختيار واسقاط التمييز ولو أُدخل النار". وهذه درجة الفانى بربه فيشهد الرضى لله ومنه حقيقة ويرى نفسه فانياً ذاهباً مفقوداً متلاشياً وجوده ونفسه وصفاتها فى وجود مولاه الملك الحق فغاب برضى ربه عن رضاه هو وعن ربه فى قضائه وقدره ولا يرى لنفسه رضى ولا سخطاً فيوجب له هذا الفناء ترك الحكم على الله بأمر من الأمور وترك التخير عليه فيذهب التحكم والاختيار وتتلاشى.

منزلة الشكر:

وهى من أعلى المنازل وفوق منزلة الرضى فالرضى مندرج فى الشكر ويستحيل وجود الشكر بدونه. وهو نصف الإيمان والإيمان نصف شكر ونصف صبر وقد أمر الله به ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية

رجوع للفهرس

خلقه وأمره ووعد أهله بأحسن الجزاء وجعله سبباً للمزيد من فضله وحافظاً لنعمته واشتق له إسماً من أسمائه الحسنى وهو الشكور وهو غاية الرب من عبده وأهله هم القليل وقال الله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" {البقرة/١٧٢}، " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ {البقرة/١٥٢} وقال عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ {النحل/١٢٠} شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" {النحل/١٢١} وقال عن نوح عليه السلام "ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا {الإسراء/٣} وقال تعالى "وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" {النحل/٧٨}، وقوله "وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ" {إبراهيم/٧}، "أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ"{لقمان/٣١}. وسمى نفسه سبحانه وتعالى "شاكراً، وشكوراً" وسمى الشاكرين بهذين الإسمين

رجوع للفهرس

قال الله تعالى " إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا" {الإنسان/٢٢} وهم خواص خلقه كقوله تعالى "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ {سبأ/١٣} وفى الحديث "أفلا أكون عبداً شكورا" (أخرجه لبخارى حـ١١٣٠/٣ ومسلم حـ٤/منافقين، من حديث المعزة بن شعبة) وقال لمعاذ "والله يا معاذ إنى لأحبك فلا تنس أن تقول فى دبر كل صلاة اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (أخرجه أبو داود حـ١٥٢٢/٢ عن معاذ بن جبل).

وحقيقة الشكر فى العبودية هو ظهور أثر نعمة الله على لسان عبده ثناء واعترافًا وعلى قلبه شهودًا ومحبة وعلى جوارحه انقياداً وطاعة.

والشكر مبنى على خضوع الشاكر للمشكور وحبه واعترافه بنعمته وثناؤه عليها وأن لا يستعملها فيما يكره.

أقوال العلماء والسلف فى الشكر:

رجوع للفهرس

حده الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع – الثناء على المحسن بذكر إحسانه، عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته وجريان اللسان بذكره والثناء عليه. (حبًا بالقلب وطاعة بالجوارح وثناء باللسان). وقال ابن قدامه هو ظهور الشكر بالحمد باللسان، وقيل هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة. وقال حمدون القصاد: شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقيل الشكر إضافة النعم إلى موليها. وقال الجنيد: الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة وقال الشبلى: الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة والكمال أن تشهد النعمة والمنعم. وقيل الشكر قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة وشكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب وقال داود يارب كيف أشكرك وشكرى لك نعمة على من عندك تستوجب بها شكراً فقال سبحانه الآن شكرتنى يادود.

رجوع للفهرس

وقال الجنيد: أن لا يستعان بشئ من نعم الله على معاصيه. والمزيد يأتى مع الشكر لقوله تعالى "أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللّهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ" {إبراهيم/٩} فمتى لم ترى حالك فى مزيد فاستقبل الشكر. وقيل من كتم النعمة فقد كفرها ومن أظهرها فقد شكرها.

الفرق بين الحمد والشكر:

جاء فى الحديث "الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره" (أخرجه عبدالرازق فى المصنف والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر).

والفرق بينهما أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة وباللسان ثناء واعترافًا وبالجوارح طاعة وانقيادًا والشكر والحمد متلازمان ولكن الشكر يقع بالجوارح والحمد يقع بالقلب واللسان.

رجوع للفهرس

تعريف الشكر:

الشكر: اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم وسمى الله الإسلام والإيمان فى القرآن شكرًا ومعرفة النعمة ركن من أركان الشكر – الاعتراف بالنعمة والثناء على الله بها والخضوع له ومحبته والعمل بما يرضيه. ومعانى الشكر ثلاثة: معرفة النعمة ثم قبول النعمة ثم الثناء بها وهو من سبل العامة وأما معرفتها تحصيلها ذهنًا كما حصلت له خارجًا، وأما قبولها هو تلقيها من المُنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها ووصولها إليه بغير استحقاق، وأما الثناء بها وهو الثناء على المنعم المتعلق بالنعمة عام وخاص فالعام وصفه سبحانه بالجود والكرم والبر والإحسان وسعة العطاء والثناء الخاص هو التحدث بنعمته والإخبار بوصولها إليه من جهته وأقسام الخلق ثلاثة شاكر للنعمة وجاحد بها وكاتم بها ومظهر أنه من أهلها وليس من أهلها فهو متحل بما لم يعطيه.

رجوع للفهرس

درجات الشكر:

الدرجة الأولى: "الشكر على المحاب وهذا الشكر تشاركت فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس ويعد شكرًا لله ووعد عليه الزيادة وأوجب فيه المثوبة". وحقيقة الشكر الاستعانة بنعم المنعم على طاعته ومرضاته وهو لأهل الإسلام خاصة وهو الاعتراف بنعمه سبحانه والثناء عليه بها والإحسان إلى خلقه منها.

الدرجة الثانية: "الشكر فى المكاره وهذا ممن تستوى عنده الحالات إظهاراً للرضى وممن يميز به بين الأحوال لكظم الغيظ وستر الشكوى وهذا الشاكر أول من يدعى إلى الجنة". لأنه أشد من الشكر على المحاب وهو قابل المكاره بالشكر فكان أسبق الشاكرين للجنة لأن أكثر الناس يقابلون المكاره بالجزع. والسخط وأوسطهم بالصبر وخاصتهم بالرضى فقابلها هو بأعلى من ذلك بالشكر.

الدرجة الثالثة: "أن لا يشهد العبد إلا المنعم فإذا شهد المنعم عبودية استعظم منه النعمة وإذا شهده حباً استحلى منه الشدة وإذا شهده تفريداً لم يشهد منه نعمة ولا شدة".

رجوع للفهرس

منزلة الحياء:

قال الله تعالى " أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى {العلق/١٤}، وقوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا {النساء/١}، وقوله "قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ" {غافر/١١}.

وفى الحديث "دعه فإن الحياء من الإيمان" (أخرجه البخارى حـ٤، ومسلم حـ١ الإيمان/٥٥ عن ابن عمر).

"الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" (أخرجه البخارى حـ١/٩ ومسلم حـ١ الإيمان/٥٨ عن أبى هريرة).

تعريف الحياء:

على حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم.

رجوع للفهرس

قال الجنيد: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع فى التفريط فى حق صاحب الحق وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك والحب ينطق والحياء يسكت والخوف يقلق.

وقال السرى: إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدوا فيه الزهد والورع وإلا رحلا.

وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة فى القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة فى الدنيا وطول الأمل.

وقال يحيى بن معاذ من استحيى من الله مطيعًا استحيى الله منه وهو مذنب. وقيل أن سبب هذا الحياء إنه يمثل نفسه فى حال طاعته كأنه يعصى الله فيستحى منه فى تلك الحال ولهذا شرع الاستغفار عقب الأعمال الصالحة والقرب التى يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل. وأما حياء الرب من عبده فإنه حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا ويستحى أن يعذب ذا شيبة شابت فى الإسلام.

رجوع للفهرس

وكان يحيى بن معاذ يقول سبحان من يذنب عبده ويستحى هو.

وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جناية – حياء تقصير – حياء إجلال –حياء كرم –حياء حشمة –حياء استصغار للنفس واحتقارها –حياء محبة –حياء عبودية – حياء شرف وعزة –حياء المستحيى من نفسه.

حياء الجناية: كحياء آدم عليه السلام لما فر هارباً فى الجنة.

حياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون بالليل والنهار لا يفترون ويقولون يوم القيامة سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

حياء الإجلال: حياء معرفة العبد لربه.

حياء الكرم: كحياء النبى صلى الله عليه وسلم من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب بنت جحش وطولوا الجلوس عنده فقام واستحيى أن يقول لهم انصرفوا.

حياء الحشمة: كحياء على بن أبى طالب رضى الله عنه أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المذى لمكان ابنته منه.

رجوع للفهرس

حياء الاستحقار: كحياء العبد من ربه حين يسأله حوائجه احتقاراً لنفسه واستصغاراً لها ولاستحقار السائل نفسه لاستعظام ذنوبه وخطاياه أو لاستعظام ربه.

حياء المحبة: حياء المحب من محبوبه.

حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف لمشاهدة العبد عدم صلاح عبوديته لربه وأن قدره أعلى وأجل منها.

حياء الشرف والعزة: فحياء النفس إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان ويرجع إلى استحياؤه من الآخذ كأنه هو الآخذ السائل.

حياء المرء من نفسه: حياء النفوس الشريفة العزيزة من رضاها لنفسها بالنقص.

الحياء من أول مدارج أهل الخصوص: لما فيه من ملاحظة حضور من يستحى منه وأول سلوك أهل الخصوص رؤية الحق سبحانه حاضرًا معهم وعليه بناء سلوكهم.

رجوع للفهرس

درجات الحياء:

الدرجة الأولى: "حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويسكته عن الشكوى". إن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه فيورثه حياء من الله وإذا غاب عن قلب العبد نظر الله إليه تولد من ذلك قلة الحياء. والحياء يحمل العبد على استقباح جنايته بملاحظة الوعيد عن الجناية والأرفع من ذلك الاستقباح الحاصل عن المحبة فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف ويكف العبد أن يشتكى لغير الله ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه فإن الشكوى إليه سبحانه فقر وذلة وفاقة وعبودية.

الدرجة الثانية: "حياء يتولد من النظر فى علم القرب فيدعوه إلى ركوب المحبة ويربطه بروح الأنس ويكره إليه ملابسة الخلق". وأما النظر فى علم القرب تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله. والمعية هى إما معية عامة وهى معية العلم والإحاطة كقوله تعالى "هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

رجوع للفهرس

الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ {الحديد/٤} وإما معية خاصة وهى معية القرب كقوله تعالى " إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ {النحل/١٢٨} وهذه المعية تتضمن الموالاة والنصر والحفظ. وأما القرب فهو قربه من داعيه بالإحابة وقربه من عابده بالإنابة كقوله تعالى "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "{البقرة/١٨٦} وكلما إزداد العبد حباً إزداد قرباً. وأما ربطه بروح الأنس فهو تعلق قلب العبد بروح الأنس بالله.

الدرجة الثالثة: "حياء يتولد من شهود الحضرة وهو لا تشوبها هيبة ولا تقارنها تفرقة ولا يوقف لها غاية" وهى إنجذاب الروح والقلب وعكوفه على رب البريات فهو فى حضرة قربه مشاهدًا لها ولا يخطر بباله سوى الله وحده. وأما قوله ولا يوقف لها على غاية فإنه لا يقف بحضرة الربوبية على غاية فإذا عاين الحضرة التى غاية الغايات شارف أمراً لا غاية له ولا نهاية له وكلما إزداد العبد قربًا لله

رجوع للفهرس

بالطاعات زاده لمجده مثوبة وكلما إزداد منه قرباً لاح من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك.

منزلة الصدق:

وهى منزلة القوم الأعظم الذى تنشأ منه جميع منازل السالكين ومن لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران وهو سيف الله فى أرضه ما وضع على شيئ إلا قطعه. ولا واجه باطلاً إلا صرعه فهو روح الأعمال وهو الواصل إلى حضرة ذى الجلال وهو أساس بناء الدين وعمود اليقين ودرجة تالية لدرجة النبوة وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء وفى قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ "{التوبة/١١٩}، وقوله "وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا" {النساء/٦٩}.

رجوع للفهرس

وأهل البر هم أهل الصدق فى قوله تعالى " لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ {البقرة/١٧٧}

وقسم الله الناس إلى صادقين ومنافقين فى قوله تعالى "لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا "{الأحزاب/٢٤}، والإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب ولا يجتمع إيمان وكذب فالصدق فى الأقوال هو استواء اللسان على الأقوال والصدق فى الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة والصدق فى الأحوال وهى استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص وبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور تكون صديقيته كأبى بكر

رجوع للفهرس

الصديق رضى الله عنه وأعلى مراتب الصدق مرتبة الصديقية وهى كمال الانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أمر الله تعالى رسوله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فى قوله تعالى "وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا "{الإسراء/٨٠}، ولسان صدق فى قوله تعالى "وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ "{الشعراء/٨٤} وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فى قوله تعالى "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ" {يونس/٢} والصدق فى خمس أشياء: مدخل صدق ومخرج صدق ولسان صدق وقدم صدق ومقعد صدق والصدق فيها هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إليه وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك فى الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًا ثابتًا بالله وفى مرضاته وحصول مطلوبه ضد مخرج الكذب ومدخله الذى لا غاية له يوصل بها.

رجوع للفهرس

وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن على الرسول صلى الله عليه وسلم من سائر الأمم بالصدق ليس ثناء بالكذب. وأما قدم صدق ففسر به الجنة وفسر بمحمد صلى الله عليه وسلم وفسر بالأعمال الصالحة ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه ومن علامات الكذب حصول الريبة وفى الحديث "إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا وإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا" (أخرجه البخارى حـ١٠/٦٠٩٤ ومسلم حـ٤ بر/١٠٣ من حديث عبدالله بن مسعود). والكاذب لا ينال درجة الصديقية بكذبه والكذب على الله فى أسمائه وصفاته ونفى ما أثبته وكذلك الكذب عليه فى دينه وشرعه بتحليل ما حرمه وتحريم ما لم يحرمه وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما لم يوجبه وكراهة ما أحبه واستحباب ما لم يحبه كل ذلك مناف للصديقية وكذلك الكذب فى الأعمال بالتحلى بحلية الصادقين وهو ليس منهم ولذلك كانت الصديقية كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر

رجوع للفهرس

ظاهرًا وباطنًا حتى إن الصدق يحل البركة فى البيع ويمحق البركة أيضاً فى البيع.

كلمات فى حقيقة الصدق:

الصدق الوفاء بالعمل يوافقة السر فى النطق واستواء السر والعلانية- القول بالحق فى مواطن الهلكة كلمة الحق عند من تخافه وترجوه.

وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه.

وقال الجنيد: حقيقة الصدق أن تصدق فى موطن لا ينجيك منه إلا الكذب وقيل ثلاث لا تخطأ الصادق: الحلاوة والملاحة والهيبة.

وقال يوسف بن أسباط: لأن أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إلىَّ من أضرب بسيفى فى سبيل الله.

تعريف الصدق:

"الصدق اسم لحقيقة الشيئ بعينه حصولاً ووجودًا".

رجوع للفهرس

الصدق هو الشيئ وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزاءه. صدق الخبر يتأتى من المخبر بتمام حقيقة الخبر فى ذهن السامع.

درجات الصدق:

الدرجة الأولى: "صدق القصد وبه يصح الدخول فى هذا الشأن ويتلافى به فى كل تفريط ويتدارك به كل فائت ويعمر كل خراب وعلامة هذا الصادق أن لا يتحمل داعيه تدعوه إلى نقض العهد ولا يصبر على صحبة ضد ولا يقعد عن الجد بحال". ويعنى صدق القصد هو أن يكون فى القلب داعية صادقة إلى السلوك وميل شديد يقهر السر على صحة التوجه. وأما يتلافى به كل تفريط فهو الحمل على كل سبب ينال به الوصول وقطع كل سبب يحول بينه وبينه فلا يترك فرصه تفوته وما فاته من الفرض السابقة تداركها بحسب الإمكان فيصلح بها كل ما فسد. وأما علامة هذا الصادق أن لا يتحمل داعية تدعوه إلى نقض العهد. وأما لا يصبر على صحبة ضد وهم أهل الغفلة وقطاع طريق القلب إلى الله

رجوع للفهرس

وأضر شيئ على الصادق صحبتهم ولا يصاحبهم إلا لضرورة ويصاحبهم بقالبه وشبحه دون قلبه وروحه.

الدرجة الثانية: "أن لا يتمنى الحياة إلا للحق ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان ولا يلتفت إلى ترفيه الرخص". وهو أن يعيش ليرضى محبوبه وعبادته والقرب إليه لا لعلة من علل الدنيا وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه "لولا ثلاث لما أحببت البقاء لولا أن أحمل على جياد الخيل فى سبيل الله ومكابدة الليل ومجالسة قوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر". وقوله لا يشهد من نفسه إلى أثر النقصان لا يرى نفسه إلا مقصراً ومعرفة عيوب نفسه ومن عرف الله وعرف نفسه لم ير نفسه إلا عين النقصان. وأما قوله لا يلتفت إلى ترفيه الرخص يحمل نفسه على العزائم ولا يلتفت إلى الرفاهية التى فى الرخص فإن الصادق يعمل على رضى الله ومحبته فإذا كانت رخص الله أحب إليه من العزائم كان التقاته إلى ترفيهها هو عين صدقه وإذا أخذ العبد بترفيه رخصة ربه استعد بها لعبودية أخرى وهى تعنى بذل المزيد من الجهد فى التقرب إلى الله.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "الصدق فى معرفة الصدق فإن الصدق لا يستقيم فى علم الخصوص إلا على حرف واحد". وهو أن يتفق رضى الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته وإيقان العبد وقصده: يكون العبد راضيًا مرضيًا فأعماله مرضية وأحواله صادقة وقصده مستقيم وهذا موجب الصدق وفائدته وثمرته. وإن العبد إذا صدق الله رضى الله بعمله وحاله ويقينه وقصده ويعلم العبد رضا ربه بمتابعة الأمر الذى من عند الله والتسليم للرسول صلى الله عليه وسلم فى ظاهره وباطنه والاقتداء به والتعبد بطاعته وإخلاص القصد لله ويكون العبد راضياً مرضيًا لأنه قد يرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً فرضى الله به عبداً وأعماله إذ مرضية لله وأحواله صادقة مع الله وقصده مستقيم على متابعة أمر الله عز وجل.

منزلة الإيثار:

قال الله تعالى "وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" {الحشر/٩}.

رجوع للفهرس

فالإيثار ضد الشح فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه والشحيح حريص على ما ليس بيده فإذا حصل بيده شيئ شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح والشح يأمر بالبخل وفى الحديث "إياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا" (أخرجه مسلم حـ٤/بر ٥٦ عن جابر بن عبدالله). فالبخيل: من أجاب داعى الشح والمؤثر من أجاب داعى الجود كذلك السخاء عما فى أيدى الناس هو السخاء وهو أفضل من سخاء البذل.

قال عبدالله بن المبارك: سخاء النفس عما فى أيدى الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل وهذا المنزل هو منزل الجود والسخاء والإحسان.

مراتب الإيثار:

١- أن لا ينقصه البذل ولا يصعب عليه منزلة السخاء.

٢- أن يعطى الأكثر ويبقى له شيئ أو يبقى مثل ما أعطى وهو الجود.

رجوع للفهرس

٣- أن يؤثر غيره بالشيئ مع حاجته إليه وهو مرتبة الإيثار.

مراتب الجود:

١- الجود بالنفس ٢- الجود بالرياسة ٣- الجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه ويجود بها تعباً وكداً فى مصلحة غيره كجود الإنسان بنومه.

٤- الجود بالعلم وبذله وهى من أعلى مراتب الجود والجود بالعلم أفضل من الجود بالمال لأن العلم أشرف من المال.

٥- الجود بالنفع بالجاه كالشفاعة والمشى مع الرجل إلى ذى سلطان.

٦- الجود بنفع البدن على إختلاف أنواعه.

٧- الجود بالعرض كجود أبى ضمضم حين تصدق على من شتمه أو قذفه فهو فى حل.

٨- الجود بالصبر والاحتمال وهى أفضل من الجود بالمال.

٩- الجود بالخلق والبشر والبسطة وهو فوق الجود بالصبر والاحتمال والعفو وهو الذى يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم وهو أثقل ما يوضع فى الميزان.

رجوع للفهرس

١٠- الجود بترك ما فى أيدى الناس عليهم فلا يلتفت إليه ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه وهو الذى قاله عبدالله بن المبارك إنه أفضل من سخاء النفس بالبذل والزهد فى أموال الناس وما فى أيديهم تفضلا عليهم.

درجات الإيثار:

الدرجة الأولى: "أن تؤثر الخلق على نفسك فيما لا يحرم عليك دينًا ولا يقطع عليك طريقًا ولا يفسد عليك وقتًا". وهو أن تؤثر الناس على نفسك فى مصالحهم كالطعام والكساء ولا يؤدى ذلك أن تؤثرهم بمالك وتقعد تسأل الناس فهذا يحرمه الدين ولا يقطع عليك طريق السير إلى الله ولا يفسد على المؤثر وقته مما يفرق قلبه عن الله.

الدرجة الثانية: "إيثار رضى الله على رضى غيره وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن وضعف عنه الطول والبدن". وهو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاة الله ولو أغضب الخلق وهى درجة الأنبياء وأعلاها للرسل وأعلاها لأولى العزم وأعلاها لمحمد صلى الله عليه وسلم الذى قاوم العالم واحتمل عداوة القريب والبعيد وآثر رضىَّ الله على رضىَّ

رجوع للفهرس

الخلق. وأما قوله وإن عظمت فيه المحن وثقلت فيه المؤن بإجتياز المحن لتكون منحًا وسرورًا ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاة الله وقال الشافعى رضىً الناس غاية لا تدرك فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

الدرجة الثالثة: "إيثار إيثار الله فإن الخوض فى الإيثار دعوى فى الملك ثم ترك شهود رؤيتك إيثار الله ثم غيبتك عن الترك". ويعنى بإيثار إيثار الله أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك وهو الذى تفرد عليك به والسبب الذى يصح به الإيثار إلى الله وترك نسبته إلى نفسك فهو الخوض فى الإيثار دعوى فى الملك. وأما ترك شهود رؤيتك إيثار الله وهو التسليم بأن هذا الإيثار هو إيثار الله وتعرض عن شهود رؤيتك أنك آثرت الحق بإيثارك ونسبة الإيثار إلى الله.

منزلة الخُلُق:

قال الله تعالى " وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ "{القلم/٤}.

قال ابن عباس: هو دين الإسلام وقال الحسن آداب القرآن وقال قتادة هو ما أمر الله به ونهى عنه وهو القرآن وكان خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن كما فى الحديث

رجوع للفهرس

"كان خُلُقهُ القرآن" (أخرجه مسلم حـ١/صلاة المسافرين ١٣٩).

وقد جمع الله مكارم الأخلاق فى قوله تعالى "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ {الأعراف/١٩٩} وقد أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وقد ذكر أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "جبريل ما هذا قال لا أدرى حتى أسأل فسأل ثم رجع إليه فقال إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عن من ظلمك" (مسند أحمد حـ٤ صـ١٥٨) والمطاع للناس:

١- أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

٢- أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

٣- الناس قسمان موافق له مُوَالٍ ومعد له معارض.

والواجب فى الأمر والنهى الأمر بالمعروف الذى به صلاحهم والنهى عن ضده وأما البذل من الطاعة السهلة عليهم وعلى أنفسهم إختيارًا لا المشقة عليهم والواجب عند جهل الجاهلين الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه وقد أمر الله نبيهِ أن يأخذ العفو من

رجوع للفهرس

أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة من استقصاء فى البحث والتفتيش عن بواطن الأمور.

قال ابن عباس: خذ ما عفا لك من أموالهم وهو الفاضل عن العيال وذلك معنى قوله تعالى "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ "{البقرة/٢١٩}. ثم قال الله تعالى "وأمر بالعرف" وهو كل معروف وأعرفه التوحيد وحقوق العبودية وحقوق العبيد، ثم قال الله تعالى "وأعرض عن الجاهلين" والإعراض عن الجاهلين هو عدم مقابلة الجاهل بالسفه والإعراض عنه وعدم الانتقام لنفسه، كما فى قوله تعالى "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" {الفرقان/٦٣}

وفى الحديث "البر حُسن الخُلُق والإثم ما حاك فى الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس" (أخرجه مسلم حـ٤ بر/١٤ عن النواس بن سمعان).

رجوع للفهرس

ويدل الحديث أن حُسن الخُلق هو الدين كله وهو حقائق الإيمان وشرائع الإسلام وطمأنينة النفس والقلب والإثم ما ارتابت إليه النفس.

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً.

الدين كله خُلُق:

فمن زاد عليك فى الخُلُق زاد عليك فى الدين وكذلك التصوف ومن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى التصوف.

قيل إن حُسن الخُلُق: بذل الندى وكف الأذى وإحتمال الأذى – بذل الجميل وكف القبيح – التخلى من الرذائل والتحلى بالفضائل وحُسن الخُلُق مبنى على الصبر والعفة والشجاعة والعدل. فالصبر يحمله على احتمال الأذى وكظم الغيظ وكف الأذى والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش والعجلة. والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل وتحمله على الحياء وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والنميمة والشجاعة تحمله على عزة النفس وإيثار معانى الأخلاق وعلى البذل والندى الذى هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب وتحمله على كظم الغيظ والحلم وأما

العدل يحمله على إعتدال الخُلُق بين الإفراط والتفريط فيحمله على خُلُق الجود والسخاء متوسطًا بين الذل والقحة وعلى خُلُق الشجاعة متوسطًا بين الجبن والتهور وعلى الحلم متوسطًا بين الغضب وسقوط النفس.

ومنشأ الأخلاق السافلة من الجهل والظلم والشهوة والغضب.

فالجهل يرى الحُسن قبيحاً والقبيح حسناً والظلم يضع الشيئ فى غير موضعه فيغضب فى موضع الرضى ويرضى فى موضع الغضب ويقلب جميع الأمور إلى ضدها والشهوة تحمل على الحرص والشح والبخل وعدم العفة والغضب يحمل على الكبر والحقد والحسد والعدوان وقوة النفس فينشأ عنها الظلم والغضب والحدة والفحش والطيش وضعف النفس يتولد عنها المهانة والبخل والخسة واللؤم والذل والحرص والشح وسفساف الأمور والأخلاق. وانحراف النفس عن التوسط يتولد انحراف إلى أحد الخلقين الذميمين فإذا إنحرفت عن التواضع انحرفت إلى كبر وعلو وإذا انحرفت عن الحياء انحرفت إلى القحة والجرأة والفجر

رجوع للفهرس

والجور والمهانة ويطمع فى نفسه عدوه ويفوته كثير من مصالحه وإذا انحرفت عن الصبر انحرفت إلى الجزع والهلع والسخطة وقسوة القلب وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إلى الطيش والترف والحدة والذل والمهانة والحقارة وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إلى العجلة والبطش أو التفريط والاضاعة وإذا انحرفت عن خلق العزة التى وهبها الله لعباده المؤمنين انحرفت إلى الكبر والذل وإذا انحرفت عن الشجاعة انحرفت إلى تهور وإقدام غير محمود وإذا انحرفت عن خلق المنافسة فى المراتب العالية انحرفت إلى حسد أو مهانة وعجز وذل وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إلى الحرص والكَلب أو الخسة والمهانة والإضاعة وإذا إنحرفت عن خلق الرحمة إنحرفت إلى القسوة أو ضعف قلب وجبن نفس.

درجات الخُلُق:

الدرجة الأولى: "أن تعرف مقام الخُلق وتستفيد بهذه المعرفة فى أمن الخلق منك ومحبة الخلق إياك ونجاة الخلق بك". ويكون تحسين الخُلُق مع الخلق فى معاملاتهم

رجوع للفهرس

ومصاحبتهم وتحسين الخُلق مع الله فى معاملته ودرجة الفناء على قاعدته وأصله وأما أمن الخلق منك لم يطالبهم بما لا يقدرون عليه وامتثل فيهم أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأخذ العفو منهم فأمنوا من تكليفه إياهم وإلزامه لهم ما ليس فى قواهم وقدرهم.

كنوز المعرفة: مشهد العبد فيما يصيبه من أذى الخلق وجنايتهم عليه:

١- ما جرى عليه هو مشهد القدر وما جرى عليه بمشيئة الله وقضائه وقدره.

٢- الصبر واجباً عليه لحسن عاقبته وجزاء أهله.

٣- يشهد العفو والصفح والحلم لفضله وحلاوته وعزته ولم يعدل عن هذا العفو إلا لعشى فى بصيرته فإنه "ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًا" (أخرجه مسلم حـ٤ بر/٩٦). وما انتقم أحد لنفسه إلا ذل وفى الصفح والعفو والحلم يحصل للعبد الطمأنينة والسكون وشرف النفس والعزة والرفعة.

رجوع للفهرس

٤- الرضى وهو فوق العفو والصفح وهو رضا النفس بما لها من الله وهذا لكل محب صادق يرضى بما يناله فى رضى محبوبه بالمكاره.

٥- الإحسان بمقابلة إساءة المسيئ إليه بالإحسان فهذا المسيئ قد وهبك حسناته فإن كنت من أهل الكرم فأثبه عليها.

٦- السلامة وبرد القلب وعدم اشتغال القلب بما ناله من الأذى وطلب الوصول إلى درك ثأره وسلامته وبرده وخلوه منه أنفع له وأطيب له وأعون على مصالحه.

٧- الأمن بترك الانتقام لتأمين شر عدوه ويكسر شوكته ويكف من جزعه بعكس الانتقام.

٨- الجهاد يولد أذى الناس له من جهاده فى سبيل الله وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإقامة دين الله وإعلاء كلمته وقد اشترى الله من صاحب هذا المقام نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن وأجره على الله.

٩- النعمة على العبد الذى جعله الله مظلوماً يترقب النصر ولم يجعله ظالماً يترقب المقت والعاقل يختار أن يكون

رجوع للفهرس

مظلومًا لحسن عاقبته لتكفير خطاياه فأذى الخلق للعبد كالدواء الكريه من الطبيب المشفق عليك فلا تنظر إلى مرارة الدواء وكراهته وانظر إلى شفقة الطبيب الذى ركبه لك وبعثه إليك على يدى من نفعك بمضرته والعبد يشتد فرحه يوم القيامة بما له قبل الناس من حقوق الأموال والنفس والعرض فالعاقل يعد هذا زخرًا له يوم القيامة ولا يعطله بالإنتقام الذى لا يجدى عليه شيئًا.

١٠- الأسوة برسل الله وأنبياؤه وأوليائه وخاصته من خلقه فإنهم أشد الخلق امتحانًا بالناس وأذى الناس إليهم أسرع أفلا يرضى العبد أن يكون له أسوة بخيار الخلق وخواص عباده: الأمثل فالأمثل.

١١- التوحيد: وهو إمتلاء قلب العبد بمحبة الله وإخلاصه له ومعاملته وإيثار مرضاته والتقرب إليه قرة العين به والأنس به واطمأن إليه وسكن إليه واشتاق إلى لقائه واتخذه ولياً دون من سواه وفوض أمره كله لله ورضىّ بقضائه وتوكل عليه فلا يبغى ذلك لشهود أذى الناس له.

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: "تحسين خُلقك مع الله وتحسينه منك بأن تعلم أن كل ما يأتى من العبد يؤخذ عذراً وأن كل ما يأتى من الله يوجب شكراً وأن لا ترى من الوفاء بدًا ". ويعتذر العبد إلى ربه من الشر الصادر منه ومن نقصان الخير الذى بذله العبد ولا يراه صالحاً فهو مع إحسانه معتذر فى إحسانه كما فى قوله تعالى "وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ "{المؤمنون/٦٠}.

وقال النبى صلى الله عليه وسلم "هو الرجل يصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه" (أخرجه الترمزى حـ٥/ ٣١٧٥ عن أبى هريرة).

والحامل له على هذا الاعتذار تقصيرهُ وصِدق محبته لربه وأن كل ما يصدر من خير للعبد يوجب شكراً للرب وأنه عاجز عن شكره ولا يظهر ذلك إلا فى المحبة الصادقة.

الدرجة الثالثة: "التخلق بتصفية الخلق ثم الصعود عن تفرقة الخلق ثم التخق بمجاوزة الأخلاق" ويكون بتصفية الخلق كما ذكر سابقاً فى الدرجتين فيصفيه من كل شائبة للجمعية على الله والتخلق هو الإستعداد للجمعية ومجاوزة

رجوع للفهرس

الأخلاق بالغياب عن الخلق وهذه الغيبة تكون بالانشغال بالله عز وجل عن كل ما سواه والفناء فى الفردانية (حضرة الجمع).

منزلة التواضع:

قال الله تعالى "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" {الفرقان/٦٣}، أى سكينة ووقارًا وتواضعًا لا أشرا ولا مرحًا ولا تكبرًا علماء حلماء أصحاب وقار وعفة لا يسفهون وإن سفه عليهم أحد قابلوه بالحلم والهون هو الرفق واللين هى صفة أهل الإيمان.

وقال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" {المائدة/٥٤} الذل ذل رحمة وشفقة وإخبات متضمنًا هذه الأفعال لا ذل الهوان لصاحبه الذليل وإنما هو ذل اللين والانقياد للمؤمن الذلول وأربعة يعشقهم الذل أشد العشق:

رجوع للفهرس

الكذاب والنمام والبخيل والجبار وأما قوله "أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ" هو عز القوة والمنعة والغلبة للمؤمنين كالوالد لولده وعلى الكافرين كالسبع لفريسته.

وفى الحديث "إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغى أحد على أحد" (أخرجه مسلم حـ٤/جنة/٦٥ عن عياض بن حمار).

جاء فى الشمائل للتذمزى والألبانى: من صفات النبى صلى الله عليه وسلم كان: يمر على الصبيان فيسلم عليهم – كان إذا أكل لعق أصابعهُ الثلاث –يكون فى خدمة أهله- يخصف نعله – يرقع ثوبه –يحلب الشاة لأهله – يعلف البعير –يأكل مع الخادم ويجالس المساكين – يمشى مع الأرملة واليتيم فى حاجتهما – يسلم على من لقيه –يجيب دعوة الداعى – هين المئونة –لين الخُلُق –كريم الطبع –جميل المعاشرة – طليق الوجه بسامًا –متواضعًا من غير ذلة –جوادًا من غير سرف –رقيق القلب – رحيمًا بكل مسلم – خافض الجناح للمؤمنين – لين الجانب لهم – يعود المريض –يشهد الجنازة

رجوع للفهرس

ـيجيب دعوة من دعاه ولو لأيسر شيئ. وكانت الأمَةُ تأخذ بيده صلى الله عليه وسلم فتنطلق به حيث شاءت.

قال الفضيل بن عياض عن التواضع فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله وقيل التواضع لا ترى لنفسك قيمة فمن رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب.

وقال الجنيد: هو خفض الجناح ولين الجانب.

وقال ابن عطاء: قبول الحق ممن كان والعز فى التواضع.

وقال إبراهيم بن شيبان: الشرف فى التواضع والعز فى التقوى والحرية فى القناعة.

وقال سفيان الثورى: أعز الخلق: عالم زاهد – فقيه صوفى – غنى متواضع – فقير شاكر – شريف سنى.

وركب زيد بن ثابت فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال مه يا ابن عم رسول الله فقال هكذا أمرنا أن نفعل بكبرائنا فقال أرنى يدك فأخرجها إليه فقبلها فقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رجوع للفهرس

وقال حمدون القصاد: التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا فى الدين ولا فى الدنيا.

وبلغ عمر بن عبدالعزيز: إن إبنًا له إشترى خاتمًا بألف درهم فكتب إليه عمر فرد على إبنه بع الخاتم وأشبِع به ألف بطن واتخذ خاتمًا بدرهمين واكتب عليه رحم الله إمرءًا عرف قدر نفسه.

وذم الكِبر فى الأحاديث:

"لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كِبر" (أخرجه مسلم حـ١/إيمان ١٤٧-١٤٩ عن ابن مسعود).

والتواضعِ عكس الكِبر "من تواضع لله رفعهُ " (أخرجه مسلم حـ٤/بر/٦٩ عن أبى هريرة) ومن تكبر عن الانقياد للحق أذله الله ووضعه وصغره وحقرهُ ومن تكبر عن الانقياد للحق لو جاء به صغير أو عدو أو من يكره فإنما تكبره على الله لأن الله هو الحق وكلامه ودينه حق والحق صفته ومنه وله فإذا رده العبد وتكبر عن قبوله فإنما رده على الله وتكبر عليه.

رجوع للفهرس

تعريف التواضع:

التواضع أن يتواضع العبد لصولة الحق وهو الخضوع لسلطان الحق بالذل والانقياد له وفسر النبى صلى الله عليه وسلم الكِبر بضده فقال "الكِبر بطر الحق وغمط الناس" (صحيح الجامع الصغير ٤٦٠٨ عن أبى هريرة).

فبطر الحق: رده وجحده وغمط الناس إحتقارهم وازدراؤهم ومتى احتقرهم وازدراهم دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها. ولصاحب الحق مقال وصولة والنفوس المتكبرة لا تقر وتصول على الحق بكِبرها وباطلها وحقيقة التواضع خضوع العبد للحق والانقياد له.

درجات التواضع:

الدرجة الأولى: "التواضع للدين وهو أن لا يعارض بمقول منقولاً ولا يتهم للدين دليلاً ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً."
التواضع للدين هو الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستسلام له والإذعان وذلك بثلاث أشياء:

١ ــ ألا يعارض شيئًأ من المعارضات السارية فى العالم وهى المعقول والقياس والذوق والسياسة. فأهل المعقول

رجوع للفهرس

هم أهل الكِبر من المتكلمين المعارضين بالوحى بمقولاتهم الفاسدة. والمتكبرين من أهل الفتنة الذين يقدمون القياس على النص والمتكبرين من المتصوفين الذين يقدمون الذوق ولا يعبأوا بالأمر والمتكبرين من الولاة والأمراء يقدمون السياسة على حكم الشريعة فهؤلاء أهل الكِبر. والتواضع هو التخلص من ذلك.

٢- لا يتهم دليلاً من أدلة الدين بحيث يظنه فاسداً لدلالة ومتى عرض له شيئ من ذلك فليتهم فهمه وقال الشافعى: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف نصوص الكتاب والسنة لقول أحد من الناس كائناً من كان.

٣- لا يجد إلى مخالفة النص سبيلاً لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله وهذا الخلاف يؤدى إلى النفاق.

الدرجة الثانية: "أن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا وأن لا ترد على عدوك حقًا وأن تقبل من

رجوع للفهرس

المعتذر معاذيره". من كان عبدالله فهو أخًا لك ومن لم يقبل ذلك كان متكبرًا. وأما أن ترد على عدوك حقًا وهو قبول الحق ممن تحب وممن تبغض ومن وليك ومن عدوك وحقيقة التواضع هو قبول الحق وأداؤه إلى أهله حتى لو كان عدوًا وأما قبولك من المعتذر معاذيره هو قبول العذر ممن أساء إليك لأن التواضع يوجب لك قبول العذر من المعتذر كما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم العذر من المنافقين الذين تخلفوا عن الغزو ووكل سرائرهم إلى الله.

الدرجة الثالثة: "أن تتضع للحق فتنزل عن رأيك وعوائدك فى الخدمة ورؤية حقك فى الصحبة وعن رسمك فى المشاهدة". وهو عبادة الله بما أمر لا على ما تراه من رأيك ولا يكون الباعث على ذلك عادة بل يكون الباعث الأمر والرأى والمحبة وأما نزوله عن رؤية حقه فى الصحبة فلا يرى لنفسه حقاً على الله لأجل أعماله لأن صحبته مع الله بالعبودية والفقر والذل والانكسار فمتى رأى لنفسه حقاً فسدت الصحبة وخيف منها المقت ولا ينافى ذلك من إثابة العابدين لأن هذا الحق أحقه الله لكرمه وبره وجوده

رجوع للفهرس

وإحسانه لا باستحقاق العبيد وأنهم أوجبوه عليه بأعمالهم. والمعنى أن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله لا ينافى ما أوجبه الله على نفسه وجعله حقاً لعبده وفى الحديث "يا معاذ أتدرى ما حق الله على العباد قال الله ورسوله أعلم قال حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً يا معاذ أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار" (أخرجه أحمد جـ٥/صـ٢٢٨ ومسلم جـ١/إيمان/ ٥٠ عن معاذ بن جبل). فالرب سبحانه ما لأحد عليه حق ولا يضيع لديه سعى.

ومن جملة التواضع للحق فناؤك عن نفسك فإن رسمه هى نفسه والنزول عنها فناؤه عنها حين شهود الحضرة.

منزلة الفتوة:

هذه المنزلة هى الإحسان إلى الناس وكف الأذى عنهم واحتمال أذاهم فهى استعمال حسن الخُلُق معهم وتختلف عن المروءة والمروءة أعم منها. والفتوة من أنواع المروءة والمروءة هى استعمال ما يُجمل العبد ويُزينه أو متعد إلى

رجوع للفهرس

غيره وترك ما يدنس العبد وما يشينهُ أو متعلق بغيره.

والفتوة إستعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق:

منزلة التخلق وحسن الخُلق ومنزلة الفتوة ومنزلة المروءة.

ومنزلة الفتوة عبرت عنها الشريعة بمكارم الأخلاق وفى الحديث "إن الله بعثنى لأتمم مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال" (أخرجه البخارى فى الأدب المفرد وابن سعد فى الطبقات والحاكم فى المستدرك وأحمد وابن عساكر والبيهقى وانظر صحيحه للألبانى ٤٥).

قال الله تعالى "نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى" {الكهف/١٣}، وقوله " قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ "{الأنبياء/٦٠}، وقوله " وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ "{يوسف/٣٦}.

قال الفضيل بن عياض: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.

قال الإمام أحمد: ترك ما تهوى لما تخشى.

رجوع للفهرس

قال عمر بن عثمان المكى: الفتوة حسن الخلق.

قال الجنيد: الفتوة كف الأذى وبذل الندى (شجاعة النفس).

قال سهل: الفتوة إتباع السنة وقيل الوفاء والحفاظ.

وقيل: لا ترى لنفسك فضلاً عن غيرك وقيل فضيلة تأتيها ولا ترى نفسك فيها وقيل أن لا تحتجب ممن قصدك وقيل لا تهرب إذا أقبل طالب المعروف وقيل إظهار النعمة وإسرار المحنة وقيل أن لا تدخر ولا تعتذر.

درجات الفتوة:

الدرجة الأولى: "ترك الخصومة والتغافل عن الزلة ونسيان الأذية" وهى لا يخاصم أحداً فلا ينصب نفسه خصما لأحد غيرها فهى خصمة فلا يخاصم بلسانه ولا بقلبه ولا يخطرها على باله هذا فى حق نفسه وأما فى حق ربه فالفتوة أن يخاصم بالله وفى الله ويحاكم لله وإلى الله كما فى دعاء الاستفتاح "بك خاصمت وإليك حاكمت" (أخرجه البخارى حـ٣/١١٢٠ ومسلم حـ١/مسافرين/٩٩ عن ابن عباس) وهذه درجة العلماء الدعاة إلى الله تعالى وأما التغافل عن

رجوع للفهرس

الزلة وهو غض البصر عن زلة الناس كأنه لم يرها ونسيان الأذية ممن آذاك ليصفو القلب ولا تستوحش من الذى أذاك.

الدرجة الثانية: "أن تقرب من يقصيك وتكرم من يؤذيك وتعتذر إلى من يجنى عليك سماحة لا كظماً ومودة لا مصابرة." وهى الإحسان إلى من أساء إليك ومعاملته بالضد مما عاملك به فخطك الإحسان وخطته الإساءة ويقول ابن تيمية وددت أنى لأصحابى مثله لأعدائه وخصومه وكان لا يدعو على أحد منهم قط وكان يدعو لهم. وعزَّى ابن تيمية أهل اعدائه بقوله إنى لكم مكانه ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلا مساعدة إلا وساعدتكم فيه فسروا به ودعوا له. وأما الاعتذار إلى من يجنى عليك أنك لا تؤاخذه وإنما سلط عليك بذنب كقوله تعالى "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ "{الشورى/٣٠} فإذا علمت أنك بديت الجناية فانتقم الله منك على يده كنت فى الحقيقة أولى بالاعتذار. وقوله سماحة لا كظماً ومودة لا مصابرة وهى جعل المعاملة منك صادرة عن سماحة وطيب نفس وانشراح صدر لا كظماً للغيظ وضيق ومصابرة.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "أن لا تتعلق فى السير بدليل ولا تشوب إجابتك بعوض ولا تقف فى شهودك على رسم." فيسير السالك الصادق على البصيرة واليقين والكشف لا على النظر والاستدلال وتكون إجابتك لداعى الحق خالصة. إجابة محبة ورغبة وطلب إلا للمحبوب ذاته غير مشوبة بطلب غيره من الحظوظ والأعواض. ومن أعرض عن طلب ما سوى الله ولم يشب طلبه بعوض بل كان حباً له وإرادة خالصة لوجهه يفوز بالأعواض والأقسام والحظوظ كلها. وأما قوله ولا تقف فى شهودك على رسم فلا يكون منك نظر إلى السوى عند الشهود فهو لا يكون نظر إلى السوى عند الشهود وما من دليل يستدل به إلا وحدانية الله وكماله أظهر منه ولم تحتج فيه إلى نظر واستدلال "أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ" {إبراهيم/١٠}.

منزلة المروءة:

المروءة اتصاف النفس بصفات الإنسان التى فارق بها الحيوان والشيطان. فإن للنفس داع يدعوها إلى أخلاق الشيطان كالكِبر والحسد والبغى والشر والأذى والفساد

رجوع للفهرس

والغش وداع يدعوها إلى أخلاق الحيوان كالشهوة وداع يدعوها إلى أخلاق الملك كالإحسان والنصح والبر والعلم والطاعة فحقيقة المروءة بغض الأوليين وإجابة الداعى الأخير فالإنسانية والمروءة والفتوة تبغض الداعيين الأوليين وتجيب الداعى الأخير. وقال بعض السلف إن الله خلق الملائكة عقولاً بلا شهوة وخلق البهائم شهوة بلا عقول وخلق ابن آدم بشهوة وعقل فمن غلب عقله شهوته التحق بالملائكة ومن غلبت شهوته عقله التحق بالهائم وقيل حد المروءة غلبة العقول للشهوة وقيل استعمال كل خلق حسن واجتناب كل قبيح.

وحقيقة المروءة تجنب للدنيا والرذائل من الأقوال والأخلاق والأعمال فمروءة اللسان حلاوته وطيبه ولينه ومروءة الخُلق سعته وبسطه للحبيب والبغيض ومروءة المال بذلة فى المحمود عقلا وعرفاً وشرعاً ومروءة الجاه بذلة للمحتاج إليه ومروءة الإحسان تعجيله وتسيره وعدم رؤيته حال وقوعه ونسيانه بعد وقوعه فهذه مروءة البذل.

رجوع للفهرس

درجات المروءة:

وأما مروءة الترك: ترك الخصام والمعاتبة والمطالبة والمماراة والإغضاء عن عيب ما يأخذه من حقك وترك الاستقصاء فى طلبه والتغافل عن عثرات الناس وإشعارهم أنك لا تعلم لأحد منهم عثرة وتوقير الكبير ورعاية الصغير وحفظ حرمة النظير ورعاية أدب الصغير وهى ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مروءة المرء مع نفسه وحملها قسراً على كل جميل وتركها كل مشين ولا يكشف عورته فى الخلوة كالصوت المزعج والنهم عند الأكل وبالجملة لا يفعل خالياً ما يستحيى من فعله فى الملأ إلا ما يحظره الشرع ولا يكون إلا فى الخلوة كالجماع ونحو ذلك.

الدرجة الثانية: المروءة مع الخلق مستعملا معهم شروط الأدب والحياء والخُلق الجميل ولا يظهر للناس ما يكره من غيره لنفسه وكل ما كره ونفر عنه من قول أو فعل أو خُلق فليجتنبه ويفعل ما استحسن.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: المروءة مع الحق سبحانه استحياء من الله لأنه ناظر إليك ومطلع عليه فى كل لحظة ونفس مصلحاً عيوب نفسه مجتهداً فى ذلك.

منزلة البسط:

منزلة البسط والتخلى عن القبض وهو عنوان على الحال وداعيه لمحبة الخلق وقال الله تعالى " وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاء مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ" {الأعراف/١٥٥} وكأن موسى عليه الصلاة والسلام فهم من هذا الخطاب انبساطاً بين موسى وبين الله تعالى حمله على أن قال إن هى إلا فتنتك. والفتنة ههنا هى الامتحان والاختبار كقوله تعالى "وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ" {الأنعام/٥٣}، وقوله "وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا {الجن/١٦} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ

رجوع للفهرس

عَذَابًا صَعَدًا" {الجن/١٧}، وقوله " كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ" {الأنبياء/٣٥}.

والمعنى أن هذه الفتنة اختبار منك لعبدك وامتحان للضلالة والهداية ودرجات هذه المنزلة ثلاث واحدة مع النفس والثانية والثالثة مع الله. الانبساط: إرسال السجية والتحاشى من وحشة الحشمة وهو إرسال الطبع وتجنب الوحشة الواقعة بينك وبين من تحبه وتخدمه فإن مرتبته تقتضى احتشامه والحياء منه واجلاله عن انبساطك إليه فالانبساط: إزالة تلك الوحشة ولا تسقط من عينه بل تزيدك حباً إليه ولا سيما إذا وقع فى موقعه، وقيل هو السير على ما جبل الله العبد من الأخلاق من غير تكلف.

درجات البسط:

الدرجة الأولى: " الانبساط مع الخلق وهو ألا تعتزلهم ضنًا على نفسك أو شحًا على حظك وتسترسل لهم فى فضلك وتسعهم بخلقك وتدعهم يطئونك والعلم قائم وشهود المعنى دائم." الانبساط مع الخلق لا تبخل عليهم بنفسك فيحملك ذلك على اعتزالهم وتشبع بحظك فى الخلوة وراحة العزلة

رجوع للفهرس

أن تذهب بمخالطتهم وتحملك السماحة والجود أن تترك ذلك لراحة إخوانك بك وانتفاعهم بمجالستك فتتكرم عليهم بحظك فى الخلوة وتؤثرهم على نفسك وتسترسل معهم لينالوا منك الفضل ولا تحرمهم وتحتمل ما بدا منهم من سوء العشرة وتأخذ من أخلاق الناس العفو. وتدعهم يطئونك أى يدوسونك من لينك وتواضعك وخفض جناحك وتترك الرتبة لنفسك التى يحترمونك لأجلها أى الانبساط مع الناس وهذا الاسترسال موافقًا للشرع حافظاً حالك وقلبك مع الله مقبلاً عليه بقلبك معه ولا تحمل الناس على تعدى حدود الله وتضييع حق الله وحق العبيد. وأن تحفظ حالك وقلبك مع الله بدوام قلبك على الله فتسترسل بصورتك وتفارقهم بقلبك.

الدرجة الثانية: "الانبساط مع الحق وهو أن لا يحسبك خوف ولا يحجبك رجاء ولا يحول بينك وبينه آدم ولا حواء." وهى أن لا يرى العبد لنفسه انبساطًا ولا انقباضًا بل ينطوى انبساطه ويضمحل فى صفة البسط التى للحق جل جلاله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الخلق خشية لله وتعظيمًا وإجلالاً وحاله كلها مع الله لعبوديته ولا

رجوع للفهرس

ينبسط العبد مع الله لأنه مخلوق من التراب فلا ينبسط مع الرب.

الدرجة الثالثة: الانبساط مع رب الأرباب فلا ينكر فرحه بالرب وسروره وابتهاجه وقرة عينه ونعيمه والشوق إلى لقائه فالعبد الخائف الوجل المشفق الذليل بين يدى الله ولا يرضى لربه شيئاً من عمله محتاجاً إلى عفوه ولا يرى نفسه فى نعمته إلا طفيلياً منسباً الإحسان إلى الله ومنةً من الله عليه وانبساطه فرح وسرور ورضى وابتهاج فلا ننكره.

منزلة العزم:

والعزم نوعان أحدهما هو عزم المريد على الدخول فى الطريق وهو بداية والثانى عزم السالك وهو تحقيق القصد طوعًا أو كرهًا ويتحقق القصد بعدم التردد ولا يشوبه شيئ من التردد وبتحقيق هذا القصد طوعًا ويتحقق كرهًا بالإكراه على الفعل والعزم عليه.

درجات العزم:

الدرجة الأولى: "إباء الحال على العلم لشيم برق الكشف واستدامة نور الأنس والإجابة لإماته الهوى". فكل حال لا

رجوع للفهرس

يطيع حال فاسد مبعد عن الله ومن وصل إلى حاله العلم لم يحجبه حاله إن نزل إلى درجة العلم فمراده صحيح وإن كان مراده امتناع الحال عن طلب العلم فصاحب الحال لا يلتفت إلى العلم فباطل ولا ينكر حصوله بدون العلم وصاحبه على غير بصيره. وأما شيم برق الكشف هو النظر إليه على بعد وصاحب الحال يوجب نورًا يأنس به القلب فعزيمته محفوظة ومستديمة. وأما الإجابة لإماتة الهوى فهو السالك إذا أشرف على الكشف أحس بحالة شبيهة بالموت وهذا الحال من مبادئ الفناء فتهوى نفسه العود إلى الحجاب خوفًا من الانعدام وإذا حصل العزم أُميت هذا الهوى ولم يلتفت إليه رغبة من الفناء فى الفردانية.

الدرجة الثانية: "الاستغراق فى لوائح المشاهدة واستنارة ضياء الطريق واستجماع قوى الاستقامة". والمعنى: فقدان الإحساس بغيره لاستغراقه فى مشاهدته واستنارة ضياء الطريق وظهور الجادة له ووضوحها واتصالها بمطلوبه مستجمعًا قوى الظاهر والباطن على قصد الوصول والعزم عليه لمشاهدته ما هو سائر إليه.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "نسبة العزم إلى الله والفضل من الله وإيثاره وتوفيقه متحصلاً من العزم المنسوب إلى نفسه" فهو مجرد فضل من الله عليه متخلصًا من رؤية ترك العزم.

منزلة الإرادة:

قال الله تعالى "وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى {الليل/١٩} إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى {الليل/٢٠} وَلَسَوْفَ يَرْضَى "{الليل/٢١}، الإرادة المتعلقة به إرادة التقرب إليه بطاعته الموجبة لجزائه ولا إرادة إلا الله تعالى.

وقيل الإرادة: نهوض القلب فى طلب الحق لوعة تهون كل روعة.

قال الدقاتى: الإرادة لوعة فى الفؤاد، لذعة فى القلب، غرام فى الضمير، انزعاج فى الباطن، نيران تُأجج فى القلوب.

وقيل من صفات المريد: التحبب إلى الله بالنوافل والإخلاص فى نصيحة الأمة والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام والإيثار لأمره والحياء من نظره وبذل المجهود فى محبوبه والتعرض لكل سبب يوصل إليه وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده.

رجوع للفهرس

ومن حكم المريد: أن يكون نومه غلبة وأكله فاقة وكلامه ضرورة.

مراتب الإرادة:

١- أن يكون واجدًا لله فى كل وقت.

٢- أن يكون له ملكة وحال وإرادة تامة ملبيًا إلى الله متى وجدت.

٣- أن لا يكون كذلك ويتكلف وجدانه عند الإشارة إليه.

فالمرتبة الأولى للمقربين السابقين والوسطى للأبرار المقتصدين والثالثة للغافلين. وقال يحيى بن معاذ أشد شيئ على المريد: معاشرة الأضداد (أهل الغفلة).

وإذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله ما يغنيه عن العلوم الناتجة من أفكار الناس وعن العلوم التى ليست من زاد القبر وعن العلوم الصوفية ومعرفة مفسدات الأعمال وأحكام السلوك.

رجوع للفهرس

والمريد الصادق يفتح الله على قلبه وبنوره بنور من عنده مضافًا إلى ما معه من نور العلم يعرف به الكثير من أمر دينه فيستغنى عن كثير من علم الناس فإن العلم نور وقلب الصادق ممتلئ بنور الصدق ومعه نور الإيمان والنور يهدى إلى النور والمريد الصادق هو الذى قرأ القرآن وحفظ السنة والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهمًا فى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يغنيه عن تقليد فهم غيره.

وقال الجنيد: إذا أراد الله بالمريد خيرًا أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء.

والصوفية يهذبون الأخلاق ويدلون على تزكية النفس وإزالة الأخلاق الذميمة واستبدالها بالأخلاق الحميدة ويدلون على منازل الطريق ومفازاتها وتواضعها وآفاتها وأما القراء فيدقونه بالعبادة من الصوم والصلاة ولا يذيقون الناس شيئًا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس فهذا ليس طريقهم ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف تنافر، والقراء هم أهل التنسك والتعبد.

رجوع للفهرس

قال صاحب المنازل فى باب الإرادة قال الله تعالى "قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً" {الإسراء/٨٤} ومعنى هذه الآية كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به فالفاجر يعمل على ما يليق به وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها عامل على ما يناسبه ولا يليق به سواه والمريد الصادق يعمل ما هو اللائق به والمناسب له.

الإرادة من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته وهى الإجابة لدواعى الحقيقة طوعًا وكرهًا والمعنى أن العلم مبنى على الإرادة فهى أساسه ومجمه بنائه ويشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهى حركة القلب وهو علم الباطن وعلم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ويسمى العلم الظاهر وأما الإجابة لداعى الحقيقة فهى الانقياد والإذعان والحقيقة عندهم مشاهدة الربوبية والشريعة التزام العبودية فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده دواعى الحقيقة هو صحة المعرفة فإن من عرف الله أحبه ولا بد. وأما قوله طوعًا

رجوع للفهرس

وكرهًا يشير إلى المجذوب المختطف من نفسه والسالك إرادة واختيارًا ومجاهدة.

درجات الإرادة:

الدرجة الأولى: "ذهاب عن العادات بصحة العلم والتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد وخلع كل شاغل من الإخوان ومشتت من الأوطان" وهى مخالفة العادة بترك عوائد النفس وشهواتها ودعواتها وبطالاتها وتكون بصحبة العلم فإن النور الذى يعرف العبد ما يصل به إلى طلبه وما ينبغى تركه فمن لم يصحبه العلم لم تصح له إرادة باتفاق الصادقين والتعلق بأنفاس السالكين لا العابدين لأن السالكين يراعون الأحوال. وأما قوله صدق القصد يكون بالتوحيد وتوحيد المقصود وقوله خلع كل شاغل من الإخوان ومشتت من الأوطان يكون بترك صحبة الأغيار والتعلق بالأوطان التى ألف فيها البطالة والنذالة التى تضر بالسالك لتقطع سيره إلى الله تعالى.

الدرجة الثانية: "تقطع بحصبة الحال وترويع الأنس والسير بين القبض والبسط" ويكون ذلك بقطع الوارد الذى يرد على

رجوع للفهرس

القلب كالكسل والفتور لينتقل من مقام العلم إلى مقام الكشف ومن مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأما ترويح روح الأنس لأن السالك فى البداية يجد من تعب التكاليف ومشقتها لعدم أنس قلبه بمعبوده فإذا حصل للقلب أنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق فتصير الصلاة قرة عينه يستريح بها كما فى الحديث "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" (صحيح الجامع الصغير ٧٨٩٢ عن رجل)، وأما السير بين القبض والبسط فهى حالتان تعرضان لكل سالك يتولد من الخوف تارة والرجاء تارة فيقبضه الخوف ويبسطه الرجاء ويتعرض قلب السالك قبض وبسط ويرجع القبض إلى التوبة والاستغفار لأن ذلك القبض نتيجة جناية أو جفوة والآخر الاستسلام حتى يمضى عنه ذلك الوقت ولا يتكلف رفعه ولا يستقبل وقته مغالبةً وقهرًا وكذلك إذا عارضه البسط فليحذر من الحركة والاهتزاز ويلتزم السكون.

منزلة الأدب:

قال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ

رجوع للفهرس

اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ "{التحريم/٦}، قال ابن عباس وغيره: أدبوهم وعلموهم، فالأدب: اجتماع خصال الخير فى العبد. وعلم الأدب هو علم إصلاح اللسان والخطاب وإصابة مواقعه وتحسين ألفاظه وصيانته عن الخطأ والخلل وهو شعبة من الأدب العام.

أنواع الأدب:

أدب مع الله سبحانه، وأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم وشرعه وأدب مع الخلق.

فالأدب مع الله: صيانة معاملته أن يشوبها نقص وصيانة القلب أن يلتفت إلى غيره وصيانة إرادته أن تتعلق بما يمقتك عليه.

قال أبو على الدقاق: العبد يصل بطاعة الله إلى الجنة ويصل بأدبه فى طاعته إلى الله. وقال أبو على: ترك الأدب يوجب الطرد فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

وقال يحيى بن معاذ: من تأدب بأدب الله صار من أهل محبة الله. وقال ابن المبارك: نحن إلى قليل من الأدب أحوج إلى

رجوع للفهرس

كثير من العلم. وطلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون والأدب للعارف كالتوبة للمستأنف. وسئل الحسن البصرى عن أنفع الأدب فقال التفقه فى الدين والزهد فى الدنيا والمعرفة بما لله عليك.

وقال سهيل: القوم استعانوا بالله على مراد الله وصبروا لله على آداب الله. وقال أبو حفص: حسن الأدب فى الظاهر عنوانه فى الباطن فالأدب مع الله حسن الصحبة معه وإيقاع الحركات الظاهرة والباطنة على التعظيم والإجلال والحياء.

وقال أبونصر السراج: الناس فى الأدب على ثلاث طبقات:

أهل الدنيا: فأكبر آدابهم فى الفصاحة والبلاغة وحفظ العلوم وأسمار الملوك وأشعار العرب.

أهل الدين: أكبر آدابهم رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات.

أهل الخصوص: أكبر آدابهم فى طهارة القلوب ومراعاة الأسرار والوفاء بالعهود وحفظ الوقت وقلة الالتفات إلى الخواطر وحسن الأدب فى مواقف الطلب وأوقات الحضور ومقامات القرب.

رجوع للفهرس

وقال سهل: من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص.

وقال عبدالله بن المبارك: الأدب قهر رعونات النفس وتجنبها.

وقال الشلبى: الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

وقال النووى: من لم يتأدب للوقت فوقته مقت.

وفى تأدب الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع الله فى خطابهم وسؤالهم والقرآن مليئ بذلك فقال الله تعالى فى أدب عيسى عليه السلام "وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ {المائدة/١١٦} مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {المائدة/١١٧} إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "{المائدة/١١٨}.

رجوع للفهرس

وأدب الخليل إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى "الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ {الشعراء/٧٨} وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ {الشعراء/٧٩} وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ "{الشعراء/٨٠}.

وأدب موسى عليه السلام فى قوله تعالى "فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ "{القصص/٢٤} لم يقل أطعمنى. والآيات كثيرة فى أدب الأنبياء مثل آدم وأيوب ويوسف.

وقال عبدالله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وحقيقة الأدب: استعمال الخلق الجميل.

تعريف الأدب:

الأدب هو الدين كله فإن ستر العورة من الأدب والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبث من الأدب والتزين والتجمل للمصلى كما قال الله تعالى "يَا بَنِي آدَمَ

رجوع للفهرس

خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ "{الأعراف/٣١}.

وقال ابن تيمية: من كمال الأدب فى الصلاة وقوف العبد مطرقًا خافضًا طرفه إلى الأرض لا يرفع بصره إلى فوق والأدب مع القرآن ألا يقرأ فى الركوع والسجود لأنها حال انخفاض وذل للعبد ووضع اليمنى على اليسرى والسكون فى الصلاة والدوام عليها والمحافظة عليها واستماع القراءة فيها. والأدب مع الله فى معرفة أسمائه وصفاته ودينه وشرعه وما يحب وما يكره ونفس قابلة لينة متهيئة لقبول الحق علمًا وعملاً وحالاً.

الأدب مع الرسول:

كمال التسليم والانقياد لأمره وقبول الخبر والتصديق له دون معارضة أو شبهة أو شكاً ولا نجاة للعبد من عذاب الله إلا توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول فلا يحاكم إلى غيره ولا يرضى بحكم غيره ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره دون اتباع لطائفة أو مذهب وأدب الخواص لا مخالفة أمره والشرك به ورفع الأصوات حين الصلاة والتسليم على

الرسول صلى الله عليه وسلم ومن الأدب مع الرسول أيضاً أن يتقدم بين يديه بأمر ولا نهى ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو ويأذن كما قال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "{الحجرات/١}.

فالتقديم بين يدى سنته بعد وفاته كالتقديم بين يديه فى حياته ولا فرق بينهما عند ذى عقل سليم. وعدم رفع الصوت فوق صوته لأنه محبط للعمل وعدم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم باسمه بل قولوا يا رسول الله وأيضًا لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا إن شاء أجاب وإن شاء ترك. والإستئذان على الرسول صلى الله عليه وسلم يعارض رأيه نصه بقياس بل تهدد القياسات وتلقى لنصوصه ولا يحرف كلامه للخيال والمعقول.

الأدب مع الخلق:

معاملتهم على خلاف مراتبهم بما يليق بهم فلكل مرتبة أدب والمراتب فيها أدب خاص فمع الوالدين أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به ومع العالم أدب آخر، ومع

رجوع للفهرس

السلطان أدب يليق به ومع الأقران أدب يليق بهم ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوى أنسه ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته وهناك آداب للأكل والشرب والركوب والدخول والسفر والإقامة والنوم والخلاء وللكلام وللسكون. وأدب المرأ عنوان سعادته وفلاحه وقلة أدبه عنوان شقاوته وبواره. والأدب خير للدنيا والآخرة وقلة الأدب يحرم خير الدنيا والآخرة.

قال صاحب المنازل: الأدب حفظ الحد بين الغلو والجفاء بمعرفة ضرر العدوان والانحراف إلى أحد طرفى الغلو والجفاء هو قلة الأدب والأدب هو الوقوف فى الوسط فلا يقصر فى حدود الشرع ولا يتجاوزها فكلاهما عدوان والله لا يحب المعتدين.

درجات الأدب:

الدرجة الأولى: "منع الخوف أن لا يتعدى إلى اليأس وحبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن وضبط السرور أن يضاهى الجرأة" وهو أن لا يدع الخوف يفضى به إلى حد يوقعه فى القنوط واليأس من رحمة الله فإن هذا الخوف مذموم وحد

رجوع للفهرس

الخوف كما قال ابن تيمية أن يحجزك عن معاصى الله فما زاد على ذلك فهو غير محتاج إليه والخوف الموقع فى اليأس هو إساءة الأدب مع الله. وأما حبس الرجاء أن يخرج إلى الأمن وهو ألا يخرجه الرجاء إلى الأمن من عقوبة الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرين وحد الرجاء ما طيب لك العبادة وحملك على السير وأما ضبط السرور أن يخرج إلى مشابهة الجرأة. فلا يقدر عليه إلا أرباب العزائم الذين لا تستفزهم السراء عن الشكر ولا تضعفهم الضراء عن الصبر.

الدرجة الثانية: "الخروج عن الخوف إلى ميدان القبض والصعود من الرجاء إلى ميدان البسط ثم الترقى من السرور إلى ميدان المشاهدة".

ففى الدرجة الأولى فذكر مع الخوف أن يخرجه إلى اليأس ومع الرجاء أن يخرجه إلى الأمن ومع السرور أن يخرجه إلى الجرأة وفى هذه الدرجة المحافظة على مقامات الدرجة الأولى ولا يضيعها.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "معرفة الأدب ثم الفناء عن التأديب بتأديب الحق ثم الخلاص من شهود أعباء الأدب". وهو معرفة الأدب فى الدرجتين السابقتين فإذا عرف وصار له حالاً فيفنى عنه وينسبه إليه تعالى دون نفسه ويفنى عن رؤية نفسه وقيامها بالأدب. بمنة الله عليه فهو الفناء عن التأدب بتأديب الحق ثم يفنى عن مشاهدة الأدب بالكلية لاستغراقه فى شهود الحقيقة فى حضرة الجمع التى غيبته عن الأدب ففناؤه عن الأدب فيها هو الأدب حقيقة.

منزلة اليقين:

هذه المنزلة من أهم المنازل وهو من الإيمان بمثابة الروح من الجسد وإذا تزوج الصبر باليقين ولدت الإمامة فى الدين كما قال الله تعالى "وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ "{السجدة/٢٤}، وأهل اليقين ينفعون بالآيات والبراهين كما فى قوله تعالى " وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ" {الذاريات/٢٠}، وخص الله أهل اليقين بالفلاح كما فى قوله تعالى "والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ {البقرة/٤} أُوْلَئِكَ

رجوع للفهرس

عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ "{البقرة/٥} وأخبر أن أهل النار ليسوا من أهل اليقين كما فى قوله تعالى "وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ" {الجاثية/٣٢}. فاليقين روح أعمال القلوب التى هى أرواح أعمال الجوارح وهو حقيقة الصديقية. واليقين قرين التوكل وفسر التوكل بقوة اليقين كما فى قوله تعالى "فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ "{النمل/٧٩}، "وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ"{إبراهيم/١٢}. ومتى وصل اليقين إلى القلب أشرق القلب نورًا وتخلص من كل ريب وشك وسخط وهم وغم فامتلاء محبة لله وخوفًا منه ورضى به وشكرًا له وتوكلاً عليه وإنابة إليه فهو مادة حاملة لجميع مقامات الدين.

وقال ابن خفيف: هو تحقق الأسرار بأحكام المغيبات.

وقال أبو بكر بن ظاهر: العلم تعارضه الشكوك واليقين لاشك فيه وعند القوم اليقين لا يسكن قلباً فيه سكون إلى غير الله.

رجوع للفهرس

وقال ذو النون: اليقين يدعو إلى قصر الأمل وقصر الأمل يدعو للزهد والزهد يورث الحكمة وهى تورث النظر فى العواقب.

أعلام اليقين:

قلة مخالطة الناس فى العشرة وترك المدح لهم فى العطية والتنزه عن ذمهم عند المنع والنظر إلى الله فى كل شيئ والرجوع إليه فى كل أمر والاستعانة به فى كل حال.

وقال الجنيد: اليقين هو استقرار العلم فى القلب الذى لا ينقلب ولا يحول ولايتغير فى القلب.

وقال ابن عطاء: على قدر قربهم من التقوى أدركوا من اليقين.

وقال السرى: اليقين سكونك عند جولان الموارد فى صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ولا ترد عنك مقضياً.

وقال أبو بكر الوراق: اليقين ملاك القلب وبه كمال الايمان وباليقين عرف الله وبالعقل عقل من الله.

رجوع للفهرس

وقال النهرجورى: إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة والرخاء عنده مصيبة.

وقال أبو بكر الوراق: اليقين يقين خبر ويقين دلالة ويقين مشاهدة وهو سكون القلب إلى خبر المخبر وتوثيقه به ويقين الدلالة ما هو فوقه وهو أن يقيم له مع وثوقه بصدقه. الأدلة الدالة على ما أخبر به والله سبحانه يقيم لعباده الأدلة والأمثلة على صدق أخباره فيحصل لهم اليقين من وجهة الخبر ومن جهة الدليل فيرتفعون من ذلك إلى يقين المكاشفة بحيث يصبر المخبر به كالمرئى لعيونهم.

تعريف اليقين:

"هو غاية درجات العامة وأول خطوة للخاصة". واليقين هو الذى يحمل السائر إلى الله والعلم ماستعملك واليقين ما حملك وهو المركب الذى يركبه السائر إلى الله.

درجات اليقين:

الدرجة الأولى: "علم اليقين وهو قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق" وهى أوامر الله ونواهيه وشرعه ودينه الذى ظهر لنا على ألسنة

رجوع للفهرس

رسله فنتلقاه بالقبول والانقياد والتسليم للربوبية والدخول فى العبودية والايمان بالغيب من الجنة والنار والصراط والميزان والحساب وأهوال يوم القيامة وأمور البرزخ ونعيمه وعذابه وقبول ذلك إيمانًا وتصديقًا هو اليقين بلا شك ولا شبهة وإثبات صفاته وأسمائه وهو التوحيد.

الدرجة الثانية: "عين اليقين وهو المغنى بالاستدلال عن الاستدلال وعن الخبر بالعيان وخرق الشهود حجاب العلم". فعلمنا بالجنة والنار وهو علم اليقين فإذا أُزلفت الجنة للمتقين وشاهدوها وعاينوها فذلك عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار فذلك حق اليقين وأما قوله هو المغنى بالاستدلال عن الاستدلال وهو يريد بالاستدلال: الادراك والشهود والاستغناء عن طلب الدليل. وأما الاستغناء عن الخبر بالعيان هو الدليل ليحصل له العلم المدلول. وأما قوله خرق الشهود حجاب العلم وهو رفع الحجاب والإفضاء إلى المعلوم ليكافح ببصيرته وقلبه.

الدرجة الثالثة: "حق اليقين وهو إسفار صبح الكشف ثم الخلاص من كلفة اليقين ثم الفناء فى حق اليقين". وهى

رجوع للفهرس

درجات الرسل صلوات الله عليهم فإن محمداً صلى الله عليه وسلم رأى بعينه الجنة والنار وموسى عليه السلام سمع كلام الله بلا واسطة وكلمه تكليما وتجلى للجبل وموسى ينظر فجعله دكا هشيماً.

منزلة الأنس بالله:

هى روح القلب وقال الله تعالى "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ "{البقرة/١٨٦}.

فاستحضار القلب هذا البر والإحسان واللطف يوجب القرب لله سبحانه والقرب يوجب الأنس والأنس ثمرة الطاعة والمحبة فكل مطيع مستأنس وكل عاصى مستوحش والقرب يوجب الأنس والهيبة والمحبة.

درجات الأنس:

الدرجة الأولى: "الأنس بالشواهد وهو استحلاء الذكر والتغذى بالسمع والوقوف على الإشارات". والمقصود بالشواهد وهو ما يقوم بقلب العبد حتى كأنه يشاهد ويبصر لغلبته عليه فالمريد يأنس بشاهده ويستوحش لفقده والشاهد

رجوع للفهرس

الأول الذى يأنس به المريد هو الذكر طلب لظفره فهو يستأنس بالذكر طلب لاستئناسه بالمذكور ويتغذى بالسماع كما يتغذى الجسم بالطعام والشراب، والمحب الصادق الطالب لله غذاؤه السماع القرآنى سماع أهل المعرفة بالله والاستقامة على صراطه المستقيم والمنحرف الفاسد غذاؤه السماع الشيطانى والقلب يتأثر بالسماع بحسب ما فيه من المحبة فإذا امتلأ من محبة الله سمع كلام الله واستحضره فى قلبه وأما السماع الشيطانى فهو مفسدة للقلب. وأما الوقوف على الإشارات هى المعانى التى تشير إلى الحقيقة من بعد ومن وراء حجاب وهى تارة تكون من مسموع أو مرئى أو معقول أو من الحواس كلها وقال ابن تيمية الصحيح منها ما يدل على اللفظ بالاشارة كما قال الله تعالى " لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ "{الواقعة/٧٩} وقال ابن تيمية فى تفسير هذه الآية التى تدل باشارتها على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر.

الدرجة الثانية: "الأنس بنور الكشف وهو أنس شاخص عن الأول المذكور فى الدرجة السابقة تشوبه صولة الهيمان ويضربه موج الفناء". ونور الكشف هو من باب المعارف

رجوع للفهرس

وانكشاف الحقيقة للقلب وأما الأنس فمن باب القرب والدنو والسكون إلى من يأنس إليه والطمأنينة وأما قوله شاخص عن الأنس الأول أى مرتفع عنه وقوله تشوبه صولة الهيمان هو الكشف عن أسماء الصفات التى يحصل عنها الأنس ويتعلق بها وأما قوله يضربه موج الفناء هو مطالعة مبادئ الفناء المحيطة به تقلبه كما يقلب الموج الغريق وأما قوله هو غلب قومًا على عقولهم أى سلبها إياها لمشاهدتهم فوق مدارك العقول والحواس الظاهرة والباطنة كما فى قوله تعالى "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ "{النمل/٨٨}.

الدرجة الثالثة: "أنس اضمحلال فى شهود الحضرة لا يعبر عن غيبه ولا يشار إلى حده ولا يوقف على كهنه". وهى مشاهدة الحقيقة والفناء فى ذلك الشهود ولا يحاط به عينًا ولا حدًا ولا كنهًا ولا حقيقة.

رجوع للفهرس

منزلة الذكر:

وهى منزلة القوم الكبرى التى منها يتزودون وفيها يتجرون وإليها دائمًا يترددون والذكر منشور الولاية الذى من أعطيه اتصل ومن منعه عزل وهو قوت قلوب القوم الذى متى قادتها صارت الأجسام لها قبورًا وعمارة ديارهم التى إذا تعطلت عنه صارت بورًا وسلاحهم الذين يقاتلون به قطاع الطرق ودواء اسقامهم والسبب الواصل والعلاقة بين العباد وبين علام الغيوب وبه تدفع الآفات وتكشف الكربات وتهون المصائب والملجأ عند البلاء والنوازل وهو رياض الجنة ويسر به القلب الحزين ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا عند ربه. والذكر عبدودية القلب واللسان فى كل حال وهى قيعان غراس الجنة وعمارة القلوب وجلائها ودوائها من العلل وكلما ازداد الذاكر ذكراً ازداد المذكور محبة إلى لقاء الذاكر وإذا وافق القلب اللسان حال الذكر نسى كل شيئ وحفظ الله عليه كل شيئ وكان له عوضاً من كل شيئ. وهو باب الله الأعظم بين المفتوح بين العبد وربه وبالذكر يصرع العبد الشيطان وأهل الغفلة والنسيان. وقال الحسن البصرى تفقدوا الحلاوة فى ثلاثة أشياء فى الصلاة

رجوع للفهرس

وفى الذكر وقراءة القرآن فإن وجدتم ... وإلا فاعلموا أن الباب مغلق.

وهو روح الأعمال الصالحة فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذى لا روح فيه.

الذكر فى القرآن:

الذكر فى القرآن على عشرة أوجه:

١- الأمر به مطلقاً ومقيداً كما فى قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا {الأحزاب/٤١} وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا {الأحزاب/٤٢}، وقوله "وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ" {الأعراف/٢٠٥}.

٢- النهى عن ضده من الغفلة والنسيان فى قوله تعالى "وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ" {الأعراف/٢٠٥}. "وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ

فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ "{الحشر/١٠}.

٣- تعليق الفلاح باستدامته وكثرته فى قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ "{الأنفال/٤٥}.

٤- الثناء على أهله والوعد بالجنة والمغفرة فى قوله تعالى "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" {الأحزاب/٣٥}.

٥- الخسارة لمن لها عنه بغيره فى قوله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" {المنافقون/٩}.

رجوع للفهرس

٦- الله سبحانه يذكر الذاكر جزاءً له لذكره فى قوله تعالى "فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ" {البقرة/١٥٢}.

٧- الذكر أكبر من كل شيئ فى قوله تعالى "اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ" {العنكبوت/٤٥}.

وفى تفسير هذه الآية: ذكر الله أكبر من كل شيئ وأفضل الطاعات وسرها وروحها. وذكر الله لكم أكبر من ذكركم له وذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر وقال ابن تيمية فى تفسير هذه الآية نهيها عن الفحشاء والمنكر واشتمالها على ذكر الله وتضمنها له ولما تضمنه من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

٨- الذكر خاتمة الأعمال الصالحة ومفتاحها فى قوله تعالى " شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ

رجوع للفهرس

فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {البقرة/١٨٥}، وقوله " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"{الجمعة/١٠}.

٩- الذاكرون هم المنتفعون بآيات الله وهم أولو الألباب فى قوله تعالى " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ {آل عمران/١٩٠}، " الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ "{آل عمران/١٩١}.

١٠- الذكر مقرون بالأعمال الصالحة وروحها ومتى انعدم كان الجسد بلا روح فى قوله تعالى " إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي {طه/١٤}، وقوله " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ "{الأنفال/٤٥}.

رجوع للفهرس

الذاكرون هم أهل السبق كما فى الحديث "سيروا هذا جمدان سبق المفردون قالوا وما المفردون يارسول الله قال الذاكرون الله كثيراً والذاكرات" (أخرجه مسلم حـ٤ ذكر٤، وجمدان جبل على بعد ليلة من المدينة).

"ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قالوا وما ذاك يا رسول الله قال: ذكر الله عز وجل" (أخرجه أحمد حـ٥ صـ١٩٥ والترمذى حـ٥/٣٣٧٧).

"لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده" (أخرجه مسلم حـ٤/ذكر/٣٩).

وفى الصحيحين من حديث أبى موسى: عن النبى صلى الله عليه وسلم "مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت" ويدل الحديث على أن الذاكر لله كالحى فى بيوت الأحياء والغافل كالميت فى بيوت الأموات.

رجوع للفهرس

وفى الحديث: "من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم" (أخرجه أحمد فى المسند حـ١٦/٨٦٣٥).

والذكر ثلاثة أنواع: ذكر بالقلب واللسان وهو الأعلى وذكر بالقلب وحده وهو فى الدرجة الثانية وذكر باللسان المجرد وهو فى الدرجة الثالثة.

تعريف الذكر:

الذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان والغفلة ترك بالاختيار والنسيان ترك بغير الاختيار وقال الله تعالى "وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ "{الأعراف/٢٠٥} ولم يقل ولا تكن من الناسين.

درجات الذكر:

الدرجة الأولى: "الذكر الظاهر: ثناء أو دعاء أو رعاية". والظاهر هو الجارى على اللسان مطابقًا للقلب وأما الثناء فنحو "سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" وأما الدعاء كما فى قوله تعالى "قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" {الأعراف/٢٣}، "ياحى ياقيوم برحمتك نستغيث"، وأما الرعاية نحو الله

رجوع للفهرس

ناظر إلى الله شاهدى لتقوية الحضور مع الله ورعايته لمصالح القلب وحفظًا للأدب مع الله وتحرزًا من الغفلة والاعتصام من الشيطان والنفس.

الدرجة الثانية: "الذكر بمجرد القلب بما يعرض له من الواردات وهذا ثمرة الذكر الأول". والخلاص من القيود هو التخلص من الغفلة والنسيان والحجب بين القلب والله سبحانه، والبقاء مع الشهود هو ملازمة الحضور مع الله ومشاهدة القلب كأنه يراه. ولزوم المسامرة هو مفاجأة القلب للرب تملقًا وتضرعًا وثناءً واستعظامًا وهو شأن كل محب وحبيبه.

الدرجة الثالثة: "الذكر الحقيقى وهو شهود ذكر الحق إياك والتخلص من شهود ذكرك ومعرفة افتراء الذاكر فى بقائه مع الذكر". والذكر الحقيقى هو ذكر الله لعبده وهو فيمن اختصه وقربه منه ولذكره فجعله ذاكراً له وفى الحقيقة هو الذاكر لنفسه بأن جعل عبده ذاكرًا له وأهله لذكره. والتخلص من شهود ذكرك وهو شهود ذكره لك عن شهود ذكرك له سبحانه وهذا الشهود بربح العبد من رؤية النفس ويحببه

رجوع للفهرس

بربه ويصله بخالقه. ومعرفة افتراء الذاكر فى بقائه مع الذاكر والمعنى أن الباقى مع الذاكر يشهد على نفسه أنه ذاكر وذلك افتراء منه فإنه لا فعل له ولا يزول عنه هذا الافتراء إلا إذا فنى عن ذكره فإن شهود ذكره وبقاءه معه افتراء يتضمن نسبة الذكر إليه وهى فى الحقيقة ليست له وأى افتراء فى هذا وهل إلا شهود الحقائق على ما هى عليه فإنه إذا شهد نفسه ذاكراً يجعل الله ذاكراً وتأهيله له. وتقدم ذكره للعبد على ذكر العبد له.

ونعم الافتراء أن يشهد ذلك به وبحوله وقوته لا بالله وحده والذى لا ريب فيه أن البقاء فى الذكر أكمل من الفناء فيه والغيبة به لما فى البقاء من التفصيل والمعارف وشهود الحقائق على ما هى عليه ومقام العبد ومقام الرب تعالى والعبودية والمعبود، وليس ذلك فى الفناء. والفناء لغير الله والبقاء له والفناء وصف العبد والبقاء وصف الرب والفناء عدم والبقاء وجود والفناء نفى والبقاء إثبات.

رجوع للفهرس

منزلة الفقر:

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها.

ذكر الفقر فى قوله تعالى " لِلْفُقَرَاء الَّذِينَ أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ " {البقرة/٢٧٣}. والمذكور فى الآية هم فقراء المهاجرين وهم أهل الصفة وحبسوا أنفسهم فى طاعة وحبسهم الفقر عن الجهاد ولما عادوا أعداء الله أحصروا عن الضرب فى الأرض لطلب المعاش ولكمال عفتهم يحسبهم من لم يعرفهم أغنياء وقوله تعالى "وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"{التوبة/٦١}، وقوله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ "{فاطر/١٥}. فالصنف الأول خواص الفقراء والثانى فقراء المسلمين خاصهم وعامهم والثالث الفقير العام لأهل

رجوع للفهرس

الأرض كلهم غنيهم وفقيرهم ومؤمنهم وكافرهم والله وحده هو الغنى وكل ما سواه فقير.

ومراد القوم بالفقر: الافتقار إلى الله تعالى فى كل حالة تحقيقًا للعبودية، والفقر الحقيقى هو دوام الافتقار إلى الله فى كل حال وشهود العبد فاقته التامة إلى الله تعالى من كل وجه.

وقال الشبلى: حقيقة الفقر أن لا يستغنى بشيئ دون الله.

وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة فى جميع الأحوال وطلب القوت من وجه حلال.

وإذا عرف الفقر فاعلم أن عين الغنى بالله والاستغناء بالله هو عين الافتقار إليه:

قال ابن تيمية: الفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده كما فى قوله تعالى "فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ {الفجر/١٥} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ "{الفجر/١٦}، وأن ليس كل من وسعت عليه وأعطيته أكون قد أكرمته ولا كل من ضيقت عليه وقترت أكون قد أهنته، فالإكرام أن يكرم الله العبد بطاعته

رجوع للفهرس

والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانة أن يسلبه ذلك. وقال ابن تيمية أيضًا: "لا يقع التفاضل بالغنى والفقر بل بالتقوى فإذا استوى فى التقوى استويا فى الدرجة. وقال يحيى بن معاذ: لا يوزن غدًا الفقر ولا الغنى وإنما يوزن الصبر والشكر.

وقال آخرون: الغنى والفقر لدلالة من صبر وشكر لأن الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر فقد يكون الغنى قسطه من الصبر أوفر لأنه يصبر عن قدرة فصبره أتم من يصبر عن عجز ويكون شكر الفقير أتم لأن الشكر هو استفراغ الوسع فى طاعة الله والفقير أعظم فراغاً للشكر من الغنى فكلاهما يقوم إيمانه على الصبر والشكر. فالغنى المنفق المتصدق باذلاً ماله فى وجوه القرب شاكرًا لله والفقير المتفرغ لطاعة الله بأوراد العبادات من الطاعات صابرًا على فقره وأطوعهما أكملهما فإن تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما والله أعلم.

رجوع للفهرس

تعريف الفقر:

الفقر: "اسم للبراءة من الملكة" فالله هو المالك حقيقة. ولما كانت نفس الإنسان هى ملك لله وخروج النفس وتسليمها لمالكها ومولاها هو أول قدوم الفقر. وقال بندار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك فإنها ليست لك دعها لمالكها يفعل بها ما يريد ولا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر ولا دخول عليه إلا من بابه.

درجات الفقر:

الدرجة الأولى: "فقر الزهاد وهو قبض اليد عن البسط عن الدنيا ضبطًا أو طلبًا وإسكان اللسان عنها مدحًا أو ذمًا والسلامة منها طلبًا أو تركًا وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه"، وقوله قبض اليد عن الدنيا ضبطًا وطلبًا يعنى يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له ويجود بها وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها فلا يطلب معدومها ولا يبخل بموجودها.

وأما تعطيلها عن اللسان فلا يمدحها ولا يذمها واستغاله بمدحها أو ذمها دليل على محبته ورغبته فيها ومن أحب

رجوع للفهرس

شيئًا أكثر من ذكره وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته ولا يتصدى لذم الدنيا إلا راغب محب مفارق فالواصل مادح والمفارق ذام.

"وأما تعطيل القلب منها" فبالسلامة من آفات طلبها وتركها فإن لتركها أو طلبها آفات والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك ولا يحجبه عن ربه فى طلبها وأخذها ولا فى تركها والرغبة عنها.

الآفة فى أخذها وطلبها لأنه إذا تركها وهو بشر لا ملك تعلق قلبه بما يقيته ويعيشه وما يحتاج إليه فيبقى فى مجاهدة نفسه لترك حظه من الدنيا وهذه قلة فقه فى الطريق، بل الفقيه العارف يردها عنه بلقمه ولا يقطع زمانه بمجاهدته بل يعطها حظها ويطلبها بما عليها من الحق، كما فى الحديث "إن لنفسك عليك حقاً ولربك عليك حقًا ولزوجك عليك حقًا فأعطى كل ذى حق حقه" (أخرجه البخارى حـ٤/١٩٦٨ ومسلم حـ٢/صيام/١٨٢). ومن آفات الترك تطلعه إلى ما فى أيدى الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه فاستدامتها كانت أنفع له من هذا الترك ومن آفات الترك أيضاً مداخلة العجب

رجوع للفهرس

والكبر والزهو ويقابل هذا الزهد فيها وتركها. فالفقر الصحيح السلامة من آفات الأخذ والترك.

الدرجة الثانية: "الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ويقطع شهود الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات." والمراد بذلك مطالعة فضل الله ومنته على عبده فى كل خير فهو من جود الله وإحسانه وليس للعبد من ذاته سوى العدم وذاته وصفاته كلها من فضل الله عليه ويرى أعماله كلها من الله بالله وليست من العبد ولا به. وكل ما حصل للعبد فهو من جود الله فلا يشهد حالاً ولا مقامًا ولا عملاً وعدته لقاء ربه مقدمًا على ربه بفقره متخلصًا من رؤية الأعمال والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات والحال يرد على القلب من غير اكتساب المقام يصل إليه بالكسب والطلب.

منزلة الغنى العالى:

وهو نوعان غنى بالله وغنى عن غير الله وهما حقيقة الفقر.

قال الله تعالى " وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى" {الضحى/٨} وتفسير الآية أنه أغناه بالمال بعد فقره وأيضاً أنه أرضاه بما أعطاه

رجوع للفهرس

وأغناه به عن سواه فهو غنى قلب ونفس ولا غنى مال والصحيح أن يشمل نوعى الغنى فأغنى قلبه له وأغناه من المال. والغنى هو الله وكل ما سواه فقير إليه بالذات.

درجات الغنى:

الدرجة الأولى: "غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة". والمراد: غنى القلب تعلقه بالله وحده وحقيقة فقره تعلقه بغيره فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاثة السابقة وأما سلامته من السبب أى من التعلق به لا من القيام به والغنى عند أهل الغفلة بالسبب وقلوبهم معلقة به وعند العارفين بالمسبب وأما مسالمة الحكم فهو مسالمة الحكم الدينى الأمرى بمعانقته وموافقته لا محاربته وكذلك مسالمة الحكم القدرى الذى يجرى عليه بغير اختياره ولا قدرة على دفعه وغير مأمور بدفعه. وأما الخلاص منه هو الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه وإذا خاصم بالله ولله وهو من كمال العبودية كما فى حديث الاستفتاح "اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت

رجوع للفهرس

وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت" (أخرجه البخارى حـ٣/ ١١٢٠ ومسلم حـ١/ مسافريين عن ابن عباس).

الدرجة الثانية: "غنى النفس باستقامتها على المرغوب وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة". المراد: غنى النفس فوق غنى القلب باستقامتها على المرغوب وهو الحق تعالى واستقامتها عليه استقامة لطلبه وقطع المنازل بالسير إليه. وسلامتها من الحظوظ بتعلقها الظاهرة والباطنة بما سوى الله وبراءتها من المراءاة بإرادة غير الله بشيئ من أعمالها وأقوالها. وعدم استقامتها على مطلوبها الحق أيضًا من فقرها وغير واجدة لله ولو وجدته لسادت إليه ولقطعت تعلقها وحظوظها من غيره.

الدرجة الثالثة: "الغنى بالحق بشهود ذكره إياك ودوام مطالعة أوليته والفوز بوجوده". فهو الأول ليس قبله شيئ الموجود بذاته الغنى بذاته لا بغيره والغنى بالله، والغنى بغيره عين الفقر وأما الفوز بوجوده فالكل يشير إلى هذا المعنى وهو نهاية سفر القوم. ومن لم يجد الله فليحث على رأسه الرماد وليبك على نفسه.

رجوع للفهرس

منزلة الإحسان:

هى لب الإيمان وروحه وكماله وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل وقال الله تعالى "هَلْ جَزَاءِ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ" {الرحمن/٦٠} فالإحسان جامع لجميع أبواب الحقائق وهو أن تعبد الله كأنك تراه. وقال ابن عباس فى تفسير الآية هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إلا الجنة.

درجات الإحسان:

الدرجة الأولى: "الإحسان فى القصد بتهذبه علمًا وابرامه عزمًا وتصفيته حالاً". وهو أن يكون تابعًا للعلم على مقتضاه مهذبًا به ولا يقصد إلا ما يجوز فى العلم والعلم هو اتباع الأمر والشرع ويقارنه عزم يمضى به ولا يصحبه فتور يضعفه وحال صاحبه صافيًا من الأكدار والشوائب التى تدل على كدر قصده.

الدرجة الثانية: "الإحسان فى الأحوال وهو أن تراعيها غيره وتسترها تظرفًا وتصححها تحقيقًا". والمراعاة هى الحفظ والصون غيره عليها أن تحول ودوام الوفاء وتجنب

رجوع للفهرس

الجفاء والانقياد لحكمها والاذعان لسلطانها وبسترها تظرفًا بسترها عن الناس ما أمكنه لئلا يعلموا بها ولا يظهرها إلا لحاجة أو مصلحة راجحة وإظهار الحال للناس عند الصادقين حمق وعجز ومن حظوظ النفس والشيطان وأهل الصدق والعزم لها أستر واتفقت طائفة على من أَطلع الناس على حاله مع الله فقد دنس طريقته إلا لحاجة أو ضرورة والعبد يجتهد فى تحقيق أحواله وتصحيحها وتخليصها. وكل ما يرد ونريده تقدماً إلى الله تعالى والدار الآخرة وامتثال الأمر وينير القلب ويقويه ويشرح الصدر ويبقى الإنسان نشيطًا مسرورًا فهو وارد إلهى. والوارد الإلهى لا يصرف إلا فى قربه وطاعة ويصدق بعضه بعضاً. والوارد الإلهى هو الذى يجمع العبد على الله هو من الله وأما الوارد الشيطانى هو الذى يفرق العبد عن الله ويبقى الإنسان خبيث النفس كسلان ويكذب بعضه بعضاً.

الدرجة الثالثة: "الإحسان فى الوقت وهو أن لا تزايل المشاهدة أبدًا ولا تخلط بهجتك أحدًا وتجعل هجرتك إلى الحق سرمدًا." والمعنى: هو ألا تفارق حال الشهود وقطع

رجوع للفهرس

المسافات بين النفس والقلب وبين القلب الله بمجاهدة القطاع التى على تلك المسافات وتعلق الهمة بالحق وحده لا بغيره وألا يتخلف عن الهجرة لله متوجهاً إلى الله بالصدق والإخلاص ليلحق بالله. والهجرة نوعان هجرة إلى الله سبحانه بالتوحيد والإخلاص والإنابة والحب والوفاء والرجاء والعبودية وهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالتحكيم له والتسليم والتفويض والانقياد لحكمه ظاهراً وباطناً. ومن لم يكن هاتان الهجرتان فليحث على رأسه الرماد وليراجع الإيمان إلى أصله وليرجع ليلتمس نوراً قبل أن يحال بينه وبينه ويقال له ذلك الصراط من وراء السور.

منزلة العلم:

وهذه المنزلة تصحب السالك إلى الطريق.

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى آثار الرسول صلى الله عليه وسلم ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدر به فى هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة والمذهب مقيد بأصول الكتاب والسنة.

رجوع للفهرس

وقال أبو حفص: من لم يزن أفعاله وأحواله فى كل وقت بالكتاب والسنة ولم يفهم خواطره فلا يعد فى ديوان الرجال. وقال أبو سليمان الدارانى: ربما يقع فى قلبى نكتة من نكت القوم فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة.

قال السرى: لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرمات إلى أن يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه فى الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

وقال أبو عثمان النيسابورى: الصحبة مع الله يحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة والصحبة مع الرسول صلى الله عليه وسلم باتباع سنته ولزوم ظاهر العلم ومع أولياء الله بالاحترام والخدمة ومع الله بحسن الخلق ومع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً مع الجهال بالدعاء لهم والرحمة وزاد غيره: ومع الحافظين بإكرامهما وإحترامهما وإملائهما ما يحمدانك عليه ومع النفس بالمخالفة ومع الشيطان بالعداوة.

وقال أبو عثمان: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة قال الله تعالى "قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا

رجوع للفهرس

فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ "{النور/٥٤}.

وقال أبو الحسن النووى: من رأيتموه يدعى مع الله عز وجل حال تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربوا منه. وقال محمد بن الفضل البامجى من مشايخ القوم الكبار: ذهاب الإسلام من أربعة: لا يعملون بما يعلمون ويعملون بما لا يعلمون ولا يتعلمون ما يعملون ويمنعون الناس من العلم والتعليم.

وقال أبو القاسم النصراباذى شيخ خرسان: أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع وتعظيم كرامات المشايخ ورؤية أعذار الخلق والمداومة على الأوراد وترك ارتكاب الرخص والتأويلات وقال غيره التصوف الصبر تحت الأوامر والنواهى.

قال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب فى اليوم مرة أو مرتين وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه. وقال الشافعى: طلب العلم أفضل من صلاة نافلة ووافقه أبو حنيفة وقال

رجوع للفهرس

مالك لابن وهب لما قام للصلاة ووضع ألواحه فقال ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه.

شرف العلم: فضل أهل العلم على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وأن الملائكة لتضع لهم أجنحتها وتظلهم بها وأن العالم يستغفر له من السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر وحتى النمل فى جحرها وأن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير. ولقد رحل موسى عليه السلام فى طلب العلم إلى الخضر كما جاء فى سورة الكهف. وأمر الله رسوله أن يسأل المزيد من العلم فقال "وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا" {طه/١١٤}.

تعريف العلم:

العلم ما قام بدليل ورفع الجهل وعلامة العلم قبله ما قام به الدليل وعلامته بعده رفع الجهل.

درجات العلم:

الدرجة الأولى: "علم جلى به يقع العيان واستفاضة صحيحة أو صحة تجربة قديمة." والعلم الجلى طرقه البصر (علم المعاينة) والسمع (علم الاستفاضة) والعقل (علم التجربة).

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: "علم خفى ينبت فى الأسرار الطاهرة من الأبدان الزاكية بماء الرياضة الخالصة ويظهر فى الأنفاس الصادقة لأهل الهمة العالية فى الأحابين الخالية والأسماع الصاخبة وهو علم يظهر الغائب ويغيب الشاهد ويشير إلى الجمع".

العلم الخفى هو المعرفة وينبت فى الأسرار الطاهرة ويطلق فى لسانهم وما يحصل به الإدراك والمحبة والإرادة والعلم وذلك هو الروح ومعنى قائم بالروح نسبته إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن. والمعنى الثالث ما يكون مصوناً بين العبد والرب من الأحوال والمقامات. وأما ما ينبت فى الأسرار الطاهرة من كدر الدنيا والانشغال بها وعلاقتها التى تعوق الأرواح وتخفى فيها صور الحقائق والأبدان الزاكية هى التى زكت بطاعة الله ونبتت على أكل الحلال فمتى خلصت الأبدان من الحرام وطهرت النفس عن علائق الدنيا زكت القلب بالعلوم والمعرفة وسقيت بماء الشرع النبوى المحمدى أنبتت علم وحكمة وفائدة حَصل لصاحبها الفوائد وتظهر فى أنفاس الذكر والمحبة والإرادة وهى لأهل الهمم والعزائم فى

رجوع للفهرس

ساعات الصفاء مع الله والنفحات الإلهية غير متعلقة باللغو والباطل مصغية لدعوة الحق ومنادى الإيمان ويكشف ما كان غائباً عن العارف بالله مشاهداً للحق لا سواه منفرداً حتى عن نفسه.

الدرجة الثالثة: "علم لدنى اسناده وجوده وإدراك عيونه ونعته حكمة ليس بينه وبين الغيب حجاب". ويحصل للعبد من غير واسطة بل بإلهام من الله وتعريف منه لعبده كما حصل للخضر عليه السلام فى قوله تعالى "فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا" {الكهف/٦٥}.

والعلم اللدنى: ثمرة العبودية والمتابعة والصدق مع الله والإخلاص له وبذل الجهد فى تلقى العلم من مشكاة رسوله وكمال الإنقياد له لفهم الكتاب والسنة لأمر يخصه به وهو ثمرة الموافقة والمحبة التى أوجبها التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض كما أن العلم الشيطانى هو الإعراض عن الشرع وتحكيم الهوى والشيطان. وما نعته حكمه لأن نعوته لا يوصل إليها إلا به.

رجوع للفهرس

منزلة الحكمة:

قال الله تعالى " قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ {البقرة/٦٩}، "وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا "{النساء/١١٣}، "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ "{آل عمران/٤٨}.

والحكمة فى كتاب الله نوعان مفردة فُسرت بالنبوة وفُسرت بعلم القرآن وقال ابن عباس علم القرآن ناسخه ومنسوخه وحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله. وقال الضحاك هى القرآن والفهم فيه وقال الحسن الورع فى دين الله. وأما الحكمة المقرونة بالكتاب فهى السنة كما قال الشافعى وغيره من الأئمة وقال مجاهد ومالك هى معرفة الحق والعمل به والإصابة فى القول والعمل وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن والفقه فى شرائع الإسلام وحقائق الإيمان. والحكمة حكمتان علمية وهى الاطلاع على بواطن الأشياء

رجوع للفهرس

ومعرفة ارتباط الأسباب بمسببتها خلقًا وأمرًا وقدرًا وشرعًا.

وأما الحكمة العملية هى وضع الشيئ فى موضعه.

درجات الحكمة:

الدرجة الأولى: "أن تعطى كل شيئ حقه ولا تعديه حده ولا تعجله عن وقته ولا تؤخره عنه". بأن تعطى كل مرتبة حقها الذى أحقه الله بشرعه وقدره ولا تتعدى بها حدها فتكون متعدياً مخالفاً للحكمة ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتحالف الحكمة ولا تؤخرها عن وقتها فتفوتها، ولا تعديها حقها بإعطائها أكثر من حقها ولا تعجلها عن وقتها فتخل بها وامتحن الله الرسل بما آتاهم من الحكمة فى قوله تعالى "وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا {النساء/١١٣}، "كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ "{البقرة/١٥١}.

وأركان الحكمة: العلم والحكم والأناة وآفاتها وأضدادها الجهل والطيش والعجلة.

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: "أن تشهد نظر الله فى وعده وتعرف عدله فى حكمه وتلحظ بره فى منعه". بأن تعرف الحكمة فى الوعد والوعيد وتشهد حكمه فى قوله تعالى "إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا "{النساء/٤٠} فتشهد عدله فى وعيده وإحسانه فى وعده وكل قائم بحكمته وتعرف عدله فى أحكامه الشرعية والكونية الجارية على الخلائق فلا ظلم فيها ولا جور وإن أجراها على أيدى الظلمة فهو أعدل العادلين ومن جرت على يديه هو الظالم.

وأما معرفة بره فى منعه فما منع من منعه لفضله إلا لحكمة كاملة فى ذلك فإنه الجواد الحكيم وحكمته لا تناقض جودهِ وسبحانه لا يضع بره وفضله إلا فى موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته ولو بسط الله الرزق لعباده لفسدرا وهلكوا ولو علم فى الكفار خيرًا لهداهم لنعمة الإيمان فسبحانه ما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته ولا أضل إلا بحكمته وما عمرت الجنة والنار إلا بحكمته.

رجوع للفهرس

وقال أهل الإثبات والسنة فى الحكمة: أنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره التى أمر لأجلها وقد خلق الأشياء لأجلها وهى صنعته القائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره وقدرته وإرادته وعلمه وحياته وكلامه.

الدرجة الثالثة: "أن تبلغ فى استدراك البصيرة وفى إرشادك الحقيقة وفى إشادتك الغاية". بأن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهى البصيرة التى تنسب العلوم فيها إلى القلب واختص بها الصحابة فى قوله تعالى "قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" {يوسف/١٠٨}. وأما الارشاد إلى الحقسقة بأن تبلغ فى ارشاد غيرك لك إلى الحقيقة ولاتقف دونها بالإشارة إلى الغاية المطلوبة التى ليس ورائها مرمى ولا هدف. والإشارة إلى الغاية بأن تفنى عن نفسك وهواك وحظك باقيًا بربه والأمر الدينى.

رجوع للفهرس

منزلة الفراسة:

قال الله تعالى "إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ" {الحجر/٧٥}
وفى تفسير الآية قال مجاهد المتفرسين وقال ابن عباس للناظرين وقال قتادة للمعتبرين وقال مقاتل للمتفكرين.

أنواع الفراسة:

الفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية فى هذه المنزلة.

وسببها نور يقذفه الله فى قلب عبده يفرق بين الحق والباطل والحالى والعاطل والصادق والكاذب وحقيقتها أنها خاطر يهجم على قلب ينفى ما يضاده يثب على القلب كوثوب الأسد على الفريسة وهى على حسب قوة الإيمان، فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحد فراسة. قال أبو سعيد الخراز: من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق وتكون مواد علمه مع الحق بلا سهو ولا غفلة بل حكم حق جرى على لسان عبده.

وقال عمرو بن نجيد: كان شاه الكرمانى حاد الفراسة لا يخطئ ويقول من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعمر باطنه بالمراقبة وظاهره باتباع السنة وتعود أكل الحلال لم تخطئ فراسته.

رجوع للفهرس

وقال ابن مسعود: أفرس الناس العزيز فى يوسف حين قال لأمرأته فى قوله تعالى " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا "{يوسف/٢١}، وابنة شعيب حين قالت لأبيها استأجره فى قوله تعالى "قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ "{القصص/٢٦}، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب، وامرأة فرعون حين قالت فى قوله تعالى "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" {القصص/٩}.

الفراسة الثانية: فراسة الرياضة والجوع والسهر والتخلى وهى مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا على ولاية ويفتر بها كثير من الجهال ولا تكشف عن حق نافع ولا عن طريق مستقيم.

الفراسة الثالثة: الفراسة الخلقية كفراسة الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخالق وتتعلق الفراسة بالعين لأنها مرآة القلب وعنوانه وباللسان فهى ترجمانه وأصل الفراسة

رجوع للفهرس

اعتدال الخلقة والصورة وهو من اعتدال المزاج والروح وبها يكون اعتدال الأخلاق والأفعال وبحسب انحراف الخلقة والصورة عن الاعتدال يقع الانحراف فى الأخلاق والأعمال. ولكن صاحب الصورة والخلقة المعتدلة يكتسب بالمقارنة والمعاشرة أخلاق من يقارنه ويعاشره ولو أنه من الحيوان البهيم فيصير من أخبث الناس أخلاقًا وأفعالاً وتعود لك تلك طباعًا ويتعذر أو يتعسر عليه الانتقال وكذلك صاحب الخلقة المنحرفة يكتسب بصحبته الكاملين وبخلطتهم أخلاقًا وأفعالاً شريفة تصير له طبيعته.

تعريف الفراسة:

"استئناس حكم غيب": فإذا أدركت بهذا الاستئناس حكم غيب كان فراسة وإن كان بالعين كان رؤية وإن كان بغيرها من المدارك فبحسبها.

درجات الفراسة:

الدرجة الأولى: "فراسة طارئة تسقط عن لسان وحشى فى العمر لحاجة سمع مريد صادق إليها لا يتوقف على مخارجها ولا يؤبه لصاحبها وهذا شيئ لا يخلص من الكهانة وما

رجوع للفهرس

خبأها لأنها من لم تشر عن عين ولم تصدر عن علم ولم تسبق بوجود". وهى تجرى على ألسنة الغافل الذى لم يأنس بذكر الله وحكمة إجرائها على لسانه لأنه سمعها على لسان غيره فتنبه لها بدون علم للشخص الذى نطق بها ولا سبب خروجها هذا من جنس الفأل ومن جنس الكهانة وما شابهها من جنس الحظ بالرمل وضرب الحصا والودع وفصر الطير والاستقسام بالأزلام وغير ذلك مما تعلق بالنفوس الجاهلية المشتركة التى عاقبها الله.

الدرجة الثانية: "فراسة تجنى من غرس الإيمان وتطلع من صحة الحال وتلمع من نور الكشف". وهذا مختص بأهل الإيمان وكلما كان الحال أصدق كانت الفراسة أصح ويتولد من نور الكشف وبحسب قوة هذا النور وضعفه تكون قوة الفراسة.

الدرجة الثالثة: "فراسة سرية لم تجتليها رؤية على لسان مصطنع تصريحًا أو رمزًا". والسرية من وجهين فراسة شريفة أو فراسة متعلقة بالأسرار لا بالظواهر فتكون سرية بوزن شريبة ومكيثة وتهجم على القلب بلا سبب وعلى

رجوع للفهرس

لسان مصطنع بخير بهذه الفراسة العالية عن أمور غيبية تارة بالتصريح وتارة بالتلويح ستراً لحاله أو صيانه لما أخبر به عن الابتذال ووصوله إلى غير أهله أو لغير ذلك من الأسباب.

منزلة التعظيم:

هذه المنزلة تابعة للمعرفة فعلى قدر المعرفة يكون تعظيم الرب تعالى بالقلب وأعرف الناس بالله أشدهم تعظيماً وإجلالاً وقد ذم الله من لم يعظمه ولا يعرفه ولا يصفه حق صفته فقال تعالى "وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا {نوح/١٢}، مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا "{نوح/١٣}، وقال ابن عباس ومجاهد لا ترجون لله عظمة وقال سعيد بن جبير ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته وقال الكلبى لا تخافون لله عظمة.

قال البغوى: الرجاء بمعنى الخوف والوقار والعظمة، وقال الحسن لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرون له نعمهِ، وقال ابن كيسان لا ترجون فى عبادة الله ثواباً على توقيركم اياه.

رجوع للفهرس

وروح العبادة الإجلال والمحبة متلازمان إذا اقترن الثناء على المحبوب فذلك حقيقة الحمد.

درجات التعظيم:

التعظيم معرفة العظمة مع التذلل لها وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: "تعظيم الأمر والنهى وهو أن لا يعارض بترخص جاف ولا يعارضا لتشدد غال ولا يحملا على عله توهم الانقياد". وتنافى تعظيم الأمر والنهى بترخيص يجفو بصاحبه عن كمال الامتثال ولا بغلو يجاوز حدود الأمر والنهى فالأول تفريط والآخر إفراط. وقد نهى الله عن الغلو فى قوله تعالى " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ {المائدة/٧٧}. والغلو نوعان كالزيادة فى الصلاة ركعة وصيام الدهر مع أيام النهى أو رمى الجمرات بالصخرات الكبار وغلو يخاف منه الانقطاع كقيام الليل كله وصيام الدهر كله وفى الحديث "إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيئ من الدلجة" (أخرجه

رجوع للفهرس

البخارى حـ١/٣٩ والنسائى حـ١٢٢/٢ عن أبى هريرة) وفى صحيح مسلم "هلك المتنطعون قالها ثلاثاً وهو المتعمقون المتشددون" (أخرجه مسلم حـ٤/علم/٧ من حديث عبدالله بن مسعود) واستعينوا على طاعة الله بالأعمال فى هذه الأوقات الثلاثة.

"عليكم من الأعمال ما تطيقون فوالله لا يمل الله حتى تملوا" (أخرجه البخارى فى صحيحه حـ١١٥١/٣ من حديث عائشة). وأما قوله ولا يحملا على علة توهن الانقياد بعدم التأويل فى الأمر والنهى علة للإبطال وذلك بتعليل الحكم بعلة ضعيفة يركن إليها العبد وطريقة القوم عدم التعرض لعلل التكاليف خشية هذا المحذور.

الدرجة الثانية: "تعظيم الحكم أن يبغى له عوج أو يدافع بعلم أو يرضى بعوض". برعاية العبد حكم الله الدينى بالتعظيم ولا يرى فيه عوج بل يراه مستقيمًا ولا عوج فيه لصدوره عن الحكمة. وقال السلف والجمهور إن القضاء غير المقضى فالقضاء فعله ومشيئته والمقضى وما قام به والمقضى مفعوله المباين له المنفصل عنه ويشمل الخير

رجوع للفهرس

والشر والعوج والاستقامة. فقضاؤه كله حق والمقضى منه حق ومنه باطل وقضاؤه كله عدل والمقضى منه عدل ومنه جور وقضاؤه كله مرضى والمقضى منه مرضى ومنه مسخوط وقضاؤه كله مسالم والمقضى منه ما يسالم ومنه ما يحارب ويجب مراعاة ذلك والمنحرف عنه جاهل للحكمة والقدرة ولا يجوز دفع العلم بالحكم ولا يرضى بعوض لأن العبد يعبد الله بدون عوض. ويشاهد العبد حريان حكم الله عليه وغير متصرفًا فى نفسه والمتصرف هو الحق سبحانه فهو المتحكم فى العبد ولا يطلب العوض إلا من غاب عن الحكم وذهل عنه وينافى ذلك التعظيم لله ولا يرضى العبد بعوض يطلبه بعمله.

الدرجة الثالثة: "تعظيم الحق سبحانه وهو أن لا يجعل دونه سببًا ولا يرى عليه حقًا أو ينازع له اختيارًا". وتتضمن هذه الدرجة تعظيم الحاكم سبحانه صاحب الخلق والأمر والثانية تتضمن تعظيم قضائه والأولى تتضمن تعظيم أمره.

رجوع للفهرس

وتعظيمه أن لا يجعل دونه سببًا بألا تجعل للوصل إليه سببًا غيره وهو الواصل عبده إليه ولا يوصل إلى إلا الله ولا يقرب إليه سواه ولا يدنى إليه غيره ولا يتوصل إلى رضاه إلا به.

ولا ترى لأحد من الخلق حقًا على الله بل الحق لله على خلقه وحقوق العبيد على الله تعالى من إثابته لمطيعهم وتوبته على تائبهم وإجابته لسائلهم فتلك حقوق أحقها الله على نفسه بحكم وعده وإحسانه لا أنها حقوق أحقوها هم عليه فالحق فى الحقيقة لله على عبده وحق العبد عليه هو ما اقتضاه بجوده كرمه واحسانه إليه. وأما قوله أو ينازع له اختيارًا وهو الرضى باختيار ما اختاره الله لك فذلك من تعظيم الله سبحانه وتعالى ولا يرد عليه قدره من المعاصى فإنه سبحانه وإن قدرها لكنه لم يخترها له فمنازعتها غير اختيار من عبده وذلك من تمام تعظيم العبد له سبحانه.

منزلة السكينة:

هذه منزلة المواهب لا من منازل المكاسب وذكرت فى القرآن فى سته مواضع فى قوله تعالى " وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ

رجوع للفهرس

آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {البقرة/٢٤٨}، " ثُمَّ يَتُوبُ اللّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاء وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {التوبة/٢٧}، " انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {التوبة/٤١}، " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا {الفتح/٤}، " لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا {الفتح/١٨}، " إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا {الفتح/٢٦}.

وكان ابن تيمية إذا اشتدت الأمور قرأ آيات السكينة ولها تأثير عظيم على اضطراب القلب بما يرد عليه فى تسكين القلب.

رجوع للفهرس

وأصل السكينة هى الطمأنينة والوقار والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات وأنزلها الله على رسوله وعلى المؤمنين فى أوقات الشدة كيوم الهجرة ويوم حنين ويوم الحديبية حين اضطربت قلوبهم من تحكم الكفار عليهم وحسبك بضعف عمر بن الخطاب حتى ثبته الله بالصديق رضى الله عنهما. وقال ابن عباس كل سكينة فى القرآن هى الطمأنينة عدا آية البقرة. وفى الحديث "رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ينقل من تراب الخندق حتى وارى التراب جلدة بطنه" (أخرجه البخارى حـ١٣/٧٢٣٦ ومسلم حـ٣/الجهاد/١٢٥ عن البراء بن عازب) وكان يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزل سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الأولى قد بغوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا

رجوع للفهرس

تعريف السكينة:

هم اسم لثلاثة أشياء أولها سكينة بنى إسرائيل التى أعطوها فى التابوت. فقال أهل التفسير هى ريح هفافة وذكروا صفتها وقالوا عن على رضى الله عنه "أنها ريح هفافة لها رأسان ووجه كوجه الانسان" ويروى عن مجاهد إنها صورة هرة لها جناحان وعينان لها شعاع وجناحان من زمرد وزبرجد فإذا سمعوا صوتها أيقنوا بالنصر وعن ابن عباس هى طست من ذهب الجنة كان يغسل فيه قلوب الأنبياء وعن وهب بن منبه هى روح تتكلم إذا اختلفوا فى شيئ أخبرتهم ببيان ما يريدون والثانى أنها معنى وعلى الأول يكون المعنى إن السكينة فى نفس التابوت وقال المقرون هى ما تعرفون من الآيات والطمأنينة من الله وفيها ثلاثة أشياء للأنبياء معجزة ولملوكهم كرامة وكرامات الأولياء من معجزات الأنبياء.

السكينة الثانية: هى التى تنطلق على لسان المحدثيين وهى من صنع الحق تلقى على لسان المحدث الحكمة كما يلقى الملك الوحى على قلوب الأنبياء وتنطلق بالحقائق مع ترويح الأسرار وكشف الشبه والسكينة إذا نزلت على القلب اطمأن

رجوع للفهرس

بها وسكنت إليها الجوارح وينطلق صاحب السكينة بكلام لم يكن عن فكرة منه ويستغربه من نفسه.

السكينة الثالثة: هى التى نزلت على قلب النبى صلى الله عليه وسلم وقلوب المؤمنين وهى شيئ يجمع قوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين والضَّجِر ويسكن إليه العصى والجريئ والأبى، فإذا باشرت السكينة قلباً سكنت خوفه وسلت حزنه فإنها لا حزن معها فهى سلوة المحزون ومذهبة المهموم والغموم وتبث نشوة العزم وحالت بينه وبين الجرأة على مخالفة الأمر وبين إباء النفس والانقياد للأمر.

درجات السكينة:

أما سكينة الوقار التى نزلها نعتاً لأربابها فإنها ضياء تلك السكينة الثالثة السابق ذكرها وهى درجات:

الدرجة الأولى: "سكينة الخشوع عند القيام للخدمة رعاية وتعظيمًا وحضورًا".

سكينة الوقار: هى نوع من السكينة موجبة للوقار. وقوله نزلها نعتاً يعنى نزلها الله فى قلوب أهلها ونعتهم بها وضياء

رجوع للفهرس

السكينة الثالثة فهى ثمرتها وعنها نشأت. وقوله سكينة الخشوع عند القيام للخدمة وهو الوقار الذى يحصل لصاحب مقام الإحسان لأن الإيمان موجباً للخشوع وداعياً إليه وقال الله تعالى "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ "{الحديد/١٦} فدعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ويتحقق ذلك بالخشوع لذكره الله الذى أنزله إليهم. وأما قوله رعاية وتعظيمًا وحضورًا بتحقيق الخشوع فى الخدمة ورعاية حقوقها الظاهرة والباطنة وتعظيم الخدمة وإجلالها بتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره فيقدر تعظيم الله فى قلب العبد وإجلاله ووقاره يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها وإحضار القلب كأنه يرى المعبود.

الدرجة الثانية: "السكينة عند المعاملة بمحاسبة النفوس وملاطفة الخلق ومراقبة الحق". وهى درجة أهل التصوف والعلم وتحصل بمحاسبة النفس لتعرف ما لها وما عليها وقال الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا قائماً على نفسه أى

رجوع للفهرس

محاسبًا لها مطلعًا على عيوبها ساعيًا لإصلاحها وكذلك ملاطفة الخلق بمعاملتهم بما يحب أن يعاملوه من اللطف ولا يعاملهم بالشدة والغلظة لينفرهم عنه ويفسد عليه قلبه وحاله مع الله ووقته فليس للقلب أنفع من معاملة الناس باللطف لكسب مودتهم وصحبتهم وكسر شر العداوة للعدو البغيض ومراقبة الحق الموجبة لكل صلاح وخير عاجله وآجله.

الدرجة الثالثة: "السكينة التى تثبت الرضى بالقسم وتمنع من الشطح الفاحش وتقف صاحبها على حد الرتبة والسكينة لا تزال إلا فى قلب نبى أو ولى". وتوجب لصاحبها أن يرضى بالمقسوم ولا تتطلع نفسه إلى غيره والسكينة فى القلب تمنع الشطحات ولا يتعدى صاحبها مرتبة العبودية وهى من أعظم مواهب الحق ومنحه من أجل عطاياه وجعلت فى القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ومن أعطيها فقد خلعت عليه الولاية وأعطى منشورها.

رجوع للفهرس

منزلة الطمأنينة:

قال الله تعالى "الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ {الرعد/٢٨}، "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {الفجر/٢٧} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً {الفجر/٢٨} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي {الفجر/٢٩} وَادْخُلِي جَنَّتِي "{الفجر/٣٠}.

الطمأنينة: سكون القلب إلى الشيئ وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف "الصدق طمأنينة والكذب ريبة" (أخرجه أحمد حـ٥/٢٥١٨ وقال هو حديث حسن صحيح) لأن الصدق يطمئن إليه قلب السامع والكذب يوجب له اضطرابًا ومنه "البر ما اطمأن إليه القلب" (أخرجه أحمد حـ١٩٤/٤ عن أبى ثعلبة وهو حديث صحيح) أى سكن إليه وزال عنه اضطرابه. وذكر العبد لربه يطمئن القلب ويسكنه ويزول عنه الاضطراب. وذكر الله ههنا هو القرآن الذى أنزل على رسوله وتطمئن به قلوب المؤمنين فإن سكون القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين الموجود فى القرآن فإن سكون القلب وطمأنينته من يقينه واضطرابه وقلقه من شكه

رجوع للفهرس

والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك كما فى قوله تعالى "وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ "{الزخرف/٣٦} وفى الآية إن المعرض عن القرآن يقيض الله له شيطانًا يصده عن السبيل وهو يحسب أنه على هدى. وجعل الله سبحانه الطمأنينة فى قلوب المؤمنين، وبشر أهل الطمأنينة بدخول الجنة فى قوله تعالى "يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ {الفجر/٢٧} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً "{الفجر/٢٨} ومن دعاء بعض السلف "اللهم هب لى نفسًا مطمئنة إليك".

درجات الطمأنينة:

الدرجة الأولى: "طمأنينة القلب بذكر الله وهى طمأنينة الخائف إلى الرجاء والضجر إلى الحكم والمبتلى إلى المثوبة". وتحصل الطمأنينة بذكر الله بكلامه وكتابه فهى تطمئن القلب. وطمأنينة الخائف إلى الرجاء فإذا نزلت السكينة على القلب استراح القلب إلى الرجاء والاطمئنان وسكن لهيب الخوف وأما طمأنينة الضجر إلى الحكم فهى الضجر من جملة التكاليف وأعباء الأمر وأثقاله من أقيم مقام

رجوع للفهرس

التبليغ عن الله ومجاهدة أعداء الله وقطاع الطريق إلى الله فيدرك القلب الضجر ويضعف عن البصر فينزل الله السكينة على القلب فيطمأن إلى الحكم الدينى وحكم القدر ولا طمأنينه بدون مشاهدة الحكمين وبحسب مشاهدته تكون الطمأنينة فإذا اطمأن إلى حكمه الدينى علم أن دينه الحق وصراطه المستقيم والله ناصر أهله وكافيهم ووليهم وإذا اطمأن إلى الحكم الكونى وعلم أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له فلا يجزع ولا يقلق فإذا نزل هذه النازلة فلا يضجر فهذه طمأنينة الضجر إلى الحكم. وأما طمأنينة المبتلى إلى المثوبة فإن المبتلى إذا قويت مشاهدته إلى المثوبة سكن قلبه واطمأن بمشاهدة العوض وإنما يشتد به البلاء إذا غاب عن ملاحظة الثواب وتقوى الملاحظة حتى يستلذ بالبلاء ويراه نعمة.

الدرجة الثانية: "طمأنينة الروح فى القصد إلى الكشف وفى الشوق إلى العدة وفى التفرقة إلى الجمع". وهو اطمئنان الروح فى حال قصدها ولا تلتفت إلى ما ورائها وأما الكشف الحقيقى فهو كشف عن حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ويوصل إلى المطلوب وكشف عن المطلوب المقصود بالسير

رجوع للفهرس

بمعرفة الأسماء والصفات وتفاصيل التوحيد ومراعاة ذلك حق رعايته. وأما قوله وفى الشوق إلى العدة لأن الروح تشتاق إلى ما وعدت به وشوقت إليه فطمأنينتها بتلك العدة تسكن عنها لهيب اشتياقها. وأما التفرقة إلى الجمع بأن تطمئن الروح فى حال تفرقتها إلى ما اعتادته من الجمع بأن توافيها روحه فتسكن إليه وتطمئن به.

الدرجة الثالثة: "طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف وطمأنينة الجمع إلى البقاء وطمأنينة المقام إلى نور الأزل" هذه الدرجة تتعلق بالفناء والبقاء فالتواصل إلى شهود الحضرة مطمئن إلى لطف الله وحضرة الجمع يريدون بها الشهود الذاتى. والشهود عندهم هى شهود الأفعال ثم شهود الأسماء والصفات ثم فوقه شهود الذات الجامعة إلى الأفعال والأسماء والصفات والتجلى عند القوم بحسب هذه الشهود الثلاثة وأصحاب تجلى الأفعال مشهدهم توحيد الربوبية وأصحاب تجلى الأسماء والصفات بشهودهم توحيد الإلهية وأصحاب تجلى الذات يغنيهم به عنهم وأما طمأنينة الجمع إلى البقاء فمشهد شريف فاضل فإن حضرة الجمع تعفى

الآثار وتمحو الأغيار وتحول بين الشاهد وبين رؤية القلب للخلق فيرى الحق سبحانه وحده قائمًا بذاته ويرى كل شيئ قائماً به متوحدًا فى كثرة أسمائه وأفعاله وصفاته ولا يرى معه غيره ولا يشهده فإن صاحبه فى مقام الفناء فإن لم ينتقل إلى مقام البقاء والانقطاع انقطاعًا كليًا ففى هذا المقام إن لم يطمئن إلى حصول البقاء وإلا عطل الأمر وخلع رتبة العبودية من عنقه فإذا اطمأن إلى البقاء طمأنينة من يعلم أنه لابد له منه وإن لم يصحبه وإلا فسد وهلك كان هذا من طمأنينة الجمع إلى البقاء، وأما طمأنينة المقام إلى نور الأزل فهى طمأنينة مقامه إلى السابقة التى سبق بها الأزل فلا تتغير ولا تتبدل فإذا اطمأن إلى السابقة والحسنى التى سبقت له من الله فى الأزل كانت هذه طمأنينة المقام إلى الأزل وهذا هو شهود أهل البقاء بعد الفناء والله أعلم.

منزلة الهمة:

الهمة: "ما يملك الانبعاث للمقصود صرفًا ولا يتمالك صاحبها ولا يلتفت عنها". والمراد أن همة العبد إذا تعلقت بالحق تعالى طلبًا صادقًا خالصًا محضًا فتلك هى الهمة

رجوع للفهرس

العالية التى لا يتمالك صاحبها ولا يقدر على المهلة ولا يتمالك صبره لغلبة سلطانها عليه ولا يلتفت عنها إلى ما سوى أحكامها وصاحب هذه الهمة سريع وصوله وظفره بمطلوبه ما لم تعوقه العوائق.

درجات الهمة:

الدرجة الأولى: "همة تصون عن وحشة الرغبة فى الفانى وتحمله على الرغبة فى الباقى وتصفيه من كدر التوانى". الفانى هى الدنيا وما عليها أى يزهد القلب فيها وفى أهلها وسمى الرغبة فيها وحشة لأنها وأهلها توحش قلوب الراغبين فيها وقلوب الزاهدين فيها. والراغبون فيها فأرواحهم وقلوبهم فى وحشة من أجسامهم إذا فاتها ما خلقت له فهى فى وحشة لفواتها. وأما الزاهدين فيها فيرونها موحشة لهم لأنها تحول بينهم وبين مطلوبهم ومحبوبهم. وكذلك هذه الهمة تحمله على الرغبة فى الباقى لذاته وهو الحق سبحانه والباقى بإبقائه هو الدار الآخرة وتُصفيه من كدر التوانى أى تمحصه من التوانى الذى يسبب الإضاعة والتفريط.

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: "همة تورث أنفه من المبالاة بالعلل والنزول عن العمل والثقة بالأمل". والعلل هى علل الأعمال وصاحب هذه الهمة يأنف على همته وقلبه من أن يبالى بالعلل لعلو همته حال بينه وبينها فلا يبالى بما يحصل له لأن همته وسعت مطلوبه وعلوه يأتى على تلك العلل. وأما أنفته من النزول على العمل لأنه عالى الهمة مطلوبه فوق مطلب العمال والعُبَّاد ويأنف أن ينزل من مطلبه العالى مجرد العمل والعبادة دون السفر بالقلب إلى الله لأنه طالب لربه تعالى بكل معنى واعتبار وهذا لأهل المحبة الصادقة. وأما أنفته من الثقة بالأمل لأن الثقة توجب الفتور والتوانى وصاحب هذه الهمة ليس من أهل ذلك لأنه طائر لا سائر.

الدرجة الثالثة: "همة تتصاعد عن الأحوال والمعاملات وتزرى بالأعواض والدرجات وتنحو عن النعوت نحو الذات". لأن هذه الهمة أعلى من أن يتعلق صاحبها بالأحوال التى هى آثار الأعمال والواردات أو يتعلق بالمعاملات وليس المراد تعطيلها بل القيام بها من عدم الالتفات إليها والتعلق بها وصاحب هذه الهمة لا يقف عند عوض ولا درجة لأنه

رجوع للفهرس

قصر همته على المطلب الأعلى ولا شيئ عنده أعلى من مطلبه وصاحبها لا يقتصر على شهود الأفعال والصفات بل الذات الجامعة لمتفرقات الأسماء والصفات والأفعال وهذا معنى تزرى بالأعواض والدرجات وتنحو عن النعوت نحو الذات.

منزلة المحبة:

هذه المنزلة التى فيها تنافس المتنافسون وإلى علمها شمر السابقون وعليها تفانى المحبون فهى قوت القلوب وغذاء الأرواح وقرة العيون والنور الذى من فقده فهو فى بحار الظلمات وهى روح الإيمان والأعمال والمقامات والأحوال ومتى خلت منها فهى كالجسد الذى لا روح فيه وتحمل أثقال السائرين إلى بلاد لم يكونوا بالغيها إلا بشق الأنفس وتوصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها وهى مطايا القوم ومسراهم على ظهورها دائمًا إلى الحبيب وقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة ولهم من معية محبوبهم أوفر نصيب وقد قضى الله بمشيئته أن المرء مع من أحب فيالها من نعمة على المحبين سابقة. وإذا غرست شجرة

رجوع للفهرس

المحبة المحبة فى القلب وسقيت بماء الإخلاص ومتابعة الحبيب أثمرت أنواع الثمار وآتت أكلها كل حين بإذن ربها أصلها ثابت فى قرار القلب وفرعها متصل بسدرة المنتهى ولا يزال سعى المحب صاعداً إلى حبيبه لا يحجبه دونه شيئ كما فى قوله تعالى "مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ" {فاطر/١٠}.

رسوم وحدود المحبة:

١- المحبة الميل الدائم بالقلب الهائم.

٢- إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

٣- موافقة الحبيب فى الشهود والمغيب.

٤- محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب لذاته وهذا من أحكام الفناء فى المحبة بمحو صفات المحب وتفنى فى صفات محبوبه وذاته.

٥- موطأة القلب لمرادات المحبوب.

رجوع للفهرس

٦- خوف ترك الحرمه من إقامة الخدمة وهى القيام بالخدمة خير قيام.

٧- استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك.

٨- استكثار القليل من جنايتك واستقلال الكثير من طاعتك.

٩- معانقة الطاعة ومباينة المخالفة.

١٠-دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب وهى استيلاء ذكر المحبوب وصفاته وأسمائه على قلب المحب.

١١-أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيئ.

١٢-أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

١٣-اقامة العتاب على الدوام بأن لا تزال معاتباً لنفسك فى مرضاة المحبوب.

١٤-أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك باستصغار نفسك واحتقارها أن يكون مثلك من محبيه.

١٥-ارادة غرست أغصانها فى القلب فأثمرت الموافقة والطاعة.

رجوع للفهرس

١٦- أن ينسى المحب حظه من محبوبه وينسى حوائجه إليه.

١٧- مجانبة السلو على كل حال.

١٨- توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

١٩- سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب.

٢٠- غض طرف القلب عما سوى المحبوب غيرة وعن المحبوب هيبة لأن من علامات المحبة الهيبة والتعظيم.

٢١- مَيلك للشيئ بكُليتك ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سرا وجهرًا ثم علمك بتقصيرك فى حبه.

٢٢- المحبة نار فى القلب تحرمه ما سوى مراد المحبوب.

٢٣- المحبة بذل المجهود وترك الإعتراض على المحبوب.

٢٤- سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه.

٢٥- أن لا يؤثر على المحبوب غيره وأن لا يتولى أمورك غيره.

٢٦- الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته والحرية من استرقاق ما سواه.

رجوع للفهرس

٢٧-المحبة سفر القلب فى طلب المحبوب ولهج اللسان بذكره على الدوام. وأما سفر القلب فى طلب المحبوب فهو الشوق إلى لقائه.

٢٨-المحبة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته فلا ينقص ذلك جفاؤه ولا يزيد فى ذلك بره لامتلاء القلب بالمحبة الذاتية للمحبوب.

٢٩-المحبة الانشغال الكلى بالمحبوب مع بذل الذل.

٣٠-قال الجنيد فى المحبة: عبد ذاهب من نفسه متصل بذكر ربه مؤديًا لحقوقه ناظرًا إليه بقلبه أحرقت قلبه هيبته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم فبالله وإن نطق فمن الله وإن تحرك فبأمر الله وإن سكن فمع الله فهو بالله ولله ومع الله.

الأسباب الجالية للمحبة والموجبة لها:

١- قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه.

رجوع للفهرس

٢- التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ليصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة كما فى الحديث الذى يأتى ذكره قريب.

٣- دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والحال فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

٤- إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

٥- مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها ومعرفتها معرفة جيدة فمن عرف الله بأسمائه وصفاته أحب الله.

٦- مشاهدة بره وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة فإنها داعية إلى محبته.

٧- انكسار القلب بكليته بين يدى الله تعالى.

٨- الخلوة به وقت النزول الإلهى لمناجاته وتلاوة كلامه وقوفًا بالقلب متأدبًا بأدب العبودية وختمًا بالاستغفار والتوبة.

٩- مجالسة المحبين الصادقين لالتقاط الفوائد منهم.

١٠-مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

رجوع للفهرس

طرق محبة العبد لربه وطرق محبة الرب لعبده:

ينقسم الناس إلى أربعة أقسام: فأهل يحبهم ويحبونه على إثبات الطرفين وأن محبة العبد لربه فوق كل محبة تقدر ولا نسبة لسائر المحاب إليها وهى حقيقة لا إله إلا الله ومحبة الله لأنبيائه ورسله صفة زائدة على رحمته وإحسانه وعطائه فإن ذلك أثر المحبة وموجبها ولما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه وبره أتم نصيب.

ادعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحنة فى قوله تعالى "قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "{آل عمران/٣١} هذه آية المحبة وآية المحنة وقال يحببكم تشير إلى دليل المحبة وعلامتها واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وفائدتها محبة الرسول لكم واتباع الرسول شرط فى المحبة وقال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" {المائدة/٥٤} وعلامات

رجوع للفهرس

المحبة فى هذه الآية: أنهم أزلة على المؤمنين يعنى أرقاء ورحماء مشفقين عليهم عاطفين عليهم وللمؤمنين كالولد لوالده وعلى الكافرين كالأسد على فريسته والجهاد فى سبيل الله بالنفس واليد واللسان والمال. لتحقيق المحبة ولا تأخذهم فى الله لومة لائم. وقال الله تعالى "أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا" {الإسراء/٥٧}.

فالمقامات: الحب وابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب وفى الحديث: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه من مما سواهما وأن يحب المرء لا يحب إلا الله وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار" (أخرجه البخارى حـ١/١٦ ومسلم حـ١/إيمان ٦٧ عن أنس بن مالك).

رجوع للفهرس

"يقول الله تعالى: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبدى بشيئ أحب إلىَّ من أداء ما افترضه عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أُحبه فإذا أحببتهُ كنت سمعهُ الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ولئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذنى لأعذينه" (أخرجه البخارى حـ١٦/١ ومسلم حـ١ إيمان/٦٧ عن أنس بن مالك).

"إذا أحب الله العبد دعا جبريل فقال إنى حب فلانًا فأحبه فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض" (أخرجه البخارى حـ٣٢٠٩/٦ ومسلم حـ٤ بر/١٥٧ عن أبى هريرة).

والقرآن والسنة مملوآن بذكر من يحبه الله سبحانه من عباده المؤمنين كالصابرين والمحسنين والتوابين والمتطهرين والمقاتلين فى سبيل الله والمتقين.

وأحب الأعمال فى السنة كما فى الحديث "أحب الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد فى سبيل

رجوع للفهرس

الله" (أخرجه البخارى حـ١٠/٥٩٧٠ ومسلم حـ١/إيمان/١٣٩).

"أحب الأعمال إلى الله: الإيمان بالله ثم الجهاد فى سبيل الله ثم حج مبرور" (أخرجه البخارى حـ٢٦/١ ومسلم حـ١/إيمان/ ١٣٥).

"وأحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه" (أخرجه مسلم حـ٢/صيام ١٧٧ وابن ماجه حـ٢/إيمان ٣٢٣٧ من حديث أبى هريرة).

"إن الله يحب أن يؤخذ برخصه" (أخرجه أحمد حـ٢ صـ١٠٨ وابن حبان فى صحيحه والبيهقى فى شعب الإيمان وفى السنن من حديث ابن عمر والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود وابن عباس).

وفرحة الله بتوبة عبده وهو أشد فرح وهو من محبته للتوبة والتائب. ومن لا محبة له لا إسلام له وحقيقة شهادة أن لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى يألهه العباد حبًا وذلاً وخوفًا ورجاءً وتعظيمًا وطاعة بمعنى مألوه وهو الذى تألهه القلوب أى تحبه وتذل له. وأصل التأله التعبد والتعبد آخر مراتب

رجوع للفهرس

الحب والمحبة حقيقة العبودية وهل تمكن الإنابة بدون المحبة والرضى والحمد والشكر والخوف والرجاء والصبر هو خير المحبين والمتوكل على الله لحصول محابة ومراضيه والزهد هو زهد المحبين والحياء من حياء المحبين.

مراتب المحبة:

١ ـ العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب.

٢ ـ الارادة وهى ميل القلب إلى المحبوب وطلبه.

٣ـ الصبابة: هى انصاب القلب إلى المحبوب بحيث لا يملكه صاحبه.

٤ـ العزائم: وهو الحب اللازم للقلب لا يفارقه كملازمة الغريم غريمه.

٥ـ الوداد وهو صفو المحبة وخالصها ودورها والودود من أسماء الرب سبحانه وتعالى وهو الحبيب والواد لعباده المحب لهم وقرنه باسمه الغفور لأنه يغفر الذنب ويحب التائب منه.

رجوع للفهرس

٦- الشغف وهو وصول الحب إلى شغاف قلب المحب كما قال النسوة فى إمرأة العزيز قد شغفها حباً والشغف بلوغ الحب أعلى مراتبه.

٧- العشق وهو الحب المفرط الذى لا يخاف على صاحبه منه.

٨- التتيم وهو التعبد والتذلل.

٩- التعبد فإن العبد هو الذى قد ملك المحبوب رقة فلم يبق له شيئ من نفسه بل كل عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا وهى حقيقة العبودية وتعنى الحب التام مع الذل التام والخضوع للمحبوب.

١٠- مرتبة الخلة: وانفرد بها إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما والخلة هى المحبة التى تخللت روح المحب وقلبه ولم يبق فيه موضع لغير المحبوب.

درجات المحبة:

الدرجة الأولى: "محبة تقطع الوساوس وتلذ الخدمة وتسلى عن المصائب".

رجوع للفهرس

المراد: تقطع الوساوس لأن الوساوس والمحبة متناقصان فالمحبة توجب استيلاء ذكر المحبوب على القلب والوساوس تقتضى غيبة القلب عن المحبوب حتى توسوس له نفسه بغيره فالمحبة تنفى تردد القلب بين المحبوب وغيره والمحب متفرق قلبه حاضرًا بين يدى المحبوب والوساوس لأهل الغفلة والإعراض وأما تلذ الخدمة لأن المحبوب يتلذذ بخدمة المحبوب مرتفعًا عن رؤية التعب والذى يراه الِخلىٌّ أثناء الخدمة. والتسلية عن المصائب لأن المحب يجد فى لذة المحبة ما ينسيه المصائب حتى يجد فى المصائب لذة التى يصيبه بها حبيبه أعظم من التذاذ الخلى بمحظوظه وشهواته.

ومحبة تنشأ من مطالعة العبد منة الله عليه ونعمه الباطنة والظاهرة وبقدر مطالعته تكون المحبة ومن أعظم منة الله على العبد تأهيله لمحبته ومعرفته وإرادة وجهه ومتابعة حبيبه بنور يقذفه الله فى قلب العبد لتعلو همته وتقوى عزيمته وتثبت المحبة بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فى هديهِ كله وبقدر هذا الاتباع تنشأ المحبة وتثبت وتقوى.

رجوع للفهرس

وبالمحبة يجيب الداعى بموفور الأعمال وهو خال منها كأنه لم يعملها.

الدرجة الثانية: "محبة تبعث إيثار الحق على غيره وتلهج اللسان بذكره وتعلق القلب بشهوده وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر إلى الآيات والارتياض بالمقامات".

المراد: وقوة المحبة تقتضى من المحب أن يترك لأجل الحق ما سواه فيؤثره على غيره ولا يؤثر غيره عليه ويجعل اللسان لهجًا بذكره لأن من أحب شيئًا أكثر من ذكره ويتعلق القلب وتتولى المحبة عليه كأنه لا يشاهد إلا غيره ومحبة تثبت الصفات وتعرفها وتنفى التحريف والتعطيل عن نصوصها وتنفى التمثيل عن معانيها وكلما أكثر القلب من مطالعتها ومعرفتها ازدادت المحبة. والنظر إلى الآيات المشهودة والمسموعة يقوى المحبة لأنها الدالة على صفات كماله وجلاله وتوحيد ربوبيته وعلى حكمته وبره وإحسانه ولطفه وجوده وكرمه وسعة رحمته وسبوغ نعمته ومن كانت رياضته فى مقامات الإسلام والإيمان والإحسان كانت محبته أقوى.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "محبة خاطفة تقطع العبادة وتدفع الإشارة ولا تنتهى بالنعوت".

المراد: المحبة تخطف قلوب المحبين لما يبدو لهم من جمال المحبوب وهو الفناء فى المحبة والشهود والعبارة تنقطع دون حقيقة تلك المحبة ولا تبلغها ولا تصل إليها الإشارة فإنها فوق العبارة والإشارة.

وجوب محبة الله:

هذه المحبة هى قطب هذا الشأن وما دونها محاب نادت عليها الألسن وادعتها الخليقة وأوجبتها العقول.

المراد: يدور السالكين المسافرين إلى الله على المحبة الثالثة لخلوصها من الشوائب والعلل والأغراض وصاحبها مراد ومجذوب ومطلوب وما دونها من المحاب فصاحبها باق مع إرادته من محبوبه وأما محبة الإحسان والأفعال فظاهر. ومحبة الصفات فصاحبها مع لذة روحه ونعيم قلبه بمطالعة الصفات فإن لذة الأرواح والعقول لا محالة فى مطالعة صفات الكمال ونعوت الجمال. وقوله نادت عليه الألسن أى وصفتها الألسن فأكثرت صفاتها وتمكنت من التعبير عنها وقوله

رجوع للفهرس

وادعتها الخليقة فلا يصل إليها أحد إلا بالحق. وأما قوله وأوجبتها العقول لأن العقل يحكم بوجوبها والعقول تحكم بوجوب تقديم محبة الله على محبة الأنفس والأهل والمال والولد وكل ماسواه وكل من لم يحكم عقله بهذا فلا تعبأ بعقله.

منزلة الغيرة:

قال الله تعالى "قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ "{الأعراف/٣٣}، وفى الحديث "إن الله يغار وإن المؤمن يغار وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم الله" (أخرجه البخارى حـ٩/٥٢٢٣ ومسلم حـ٤/توبة/٣٦ عن أبى هريرة). ومما يدخل فى الغيرة فى قوله تعالى "وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا "{الإسراء/٤٥}.

قال السدى الحجاب المذكور فى الآية حجاب الغيرة وإن الله تعالى لم يجعل الكفار أهلاً لفهم كلامه وجعل بين الكفار وبين

رجوع للفهرس

رسوله وكلامه وتوحيده حجابًا مستورًا عن العيون غيرة عليه أن يناله من ليس أهلاً به.

والغيرة نوعان: غيرة من الشيئ وغيرة على الشيئ، والغيرة الأولى هى كراهة مزاحمته ومشاركته لك فى محبوبه والثانية هى شدة المحرض على الحرص أن يفوز به غيرك. والغيرة أيضًا غيرة العبد من نفسه على نفسه كغيرة من نفسه على نفسه ومن تفرقته على جمعيته ومن إعراضه على إقباله وهو للنفس الشريفة الزكية العلية. وغيرة العبد لربه نوعان أيضاً غيرة من نفسه وغيرة من غيره فالتى من نفسه أن لا يجعل شيئاً من أعماله وأقواله وأحواله وأوقاته لغير ربه والتى من غيره أن يغضب لمحارمه إذا انتهكت.

باب الغيرة:

قال الله تعالى " رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ" {ص/٣٣}، ووجه الاستشهاد بهذه الآية أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل فشغلته عن صلاته فغار لله من الخيل فذبحها.

الغيرة: "سقوط الاحتمال ضنًا والضيق عن الصبر نفاسة".

رجوع للفهرس

وهو عجز الغيور عما يشغله عن ربه ويحجبه عنه ضنًا أى بخلاً به أن يعتاض عنه بغيره. وأما الضيق عن الصبر نفاسة فهو أن يضيق ذرعه بالصبر عن محبوبه لمغالاته بمحبوبه لمنافسته ورغبته فلا يسامح نفسه بالصبر عنه والمنافسة هى كمال الرغبة فى الشيئ، وقال الله تعالى "خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ" {المطففين/٢٦}.

درجات الغيرة:

الدرجة الأولى: "غيرة العبد على ضائع يستر ضياعه ويستدرك فواته ويتدارك قواه". العابد هو العامل بمقتضى العلم النافع للعمل الصالح فغيرته على ما ضاع عليه من عمل صالح فيسترد ضياعه بأمثاله من الأوراد والنوافل والقرب بفعل أمثالها من جنسها وغير جنسها فيقضى ما ينفع فيه القضاء ويعوض ما يقبل العوض. وأما قوله يستدرك فواته أن يأتى بالعمل الذى فاته كالحج إذا فاته وأما الفائت فيستدرك بنظيره كقضاء الواجب المؤقت إذا فات وقته أو باسترداد الضائع واستدراك الفائت. ونوعى التفريط

رجوع للفهرس

فى الأمر والنهى فيسترد ضائع هذا بقضائه وفعل أمثاله ويستدرك فائت بالتوبة والندم. وأما تدارك قواه فيتدارك قوته ويبذلها فى الطاعة قبل ضعف قوته فهو يغار عليها أن تذهب قوته فى غير طاعة الله ويتدارك العمل الذى فتر عنه بأن يكسوه قوة ونشاطًا غيرة له وعليه فهذه غيرة العباد على الأعمال.

الدرجة الثانية: "غيرة المريد وهى غيرة على وقت فات وهى غيرة قاتلة فإن الوقت وحى التقضى أبىَّ الجانب بَطِىَّ الرجوع". والمريدون هم أرباب الأحوال والعباد أرباب الأوراد والعبادات وكل عابد مريد وكل مريد عابد ولكن المريدين هم أهل المحبة وأذواق حقائق الإيمان والعابد هو صاحب العمل المجرد والوقت عند العابد هو وقت العبادة والأوراد وعند المريد هو وقت الإقبال على الله عاكفاً عليه بقلبه. وقوله هى غيرة قاتلة لأن حسرة فوت العمل قاتلة خاصة إذا كانت لا تستدرك. وأما قوله فإن الوقت وحى التقضى لأنه سريع الإنقضاء فالوقت منقض بذاته منصرم بنفسه فمن غفل عن نفسه تصرمت أوقاته وتحسر على

رجوع للفهرس

فواتها وطلب الرجعى فحيل بينه وبين الاسترجاع وكيف يرد الأمس فى اليوم فالوقت لا يعود أبدًا.

الدرجة الثالثة: "غيرة العارف على عين غطاها غين وسر غشية رين ونفس علق برجاء أو التفت إلى عطاء". أى يغار على بصيرة سترها الحجاب فإن الغين بمنزلة الغطاء والحجاب وفوقه الغيم للمؤمنين وفوقه الرين والران للكفار وقوله سر غشية رين أى حجاب أغلظ من الغيم الأول وأما قوله نفس علق برجاء والتفت إلى عطاء لأن صاحب النفس يغار على نفسه إذا تعلق برجاء من ثواب منفصل ولم يتعلق بمحبة الله وإرادته ولا يلتفت إلى عطاء من غير الله فريضى به ولا ينبغى أن يتعلق بغير الله ولا يلتفت إلا لله.

منزلة الشوق:

قال الله تعالى "مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ "{العنكبوت/٥}، تشير الآية إلى تسلية المشتاقين وإعلام لهم أن من كان يرجو لقائى فهو مشتاق إلى فقد أجلت له أجلاً يكون عن قريب فإنه آت لا محالة وكل

رجوع للفهرس

آت قريب وكان النبى صلى الله عليه وسلم دائم الشوق إلى لقاء الله.

تعريف الشوق:

الشوق أثر من آثار المحبة وحكم من أحكامها وهو سفر القلب إلى المحبوب فى كل حال. وقيل هو اهتياج القلوب إلى لقاء الله وقيل هو احتراق الأحشاء ومنها يتهيج ويتولد ويلهب القلوب ويقطع الأكباد.

قال يحيى بن معاذ: علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

وقال أبو عثمان: علامته حب الموت مع الراحة والعافية كحال يوسف لما تولى ملك مصر قال "توفنى مسلماً"

وقال ابن خفيف: الشوق ارتباح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب.

قال الجنيد: سمعت السرى يقول: الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقق فيه وإذا تحقق فى الشوق لها عن كل شيئ يشغله عمن يشتاق إليه وعلى هذا: فأهل الجنة دائماً فى شوق إلى الله مع قربهم منه ورؤيتهم له.

رجوع للفهرس

الشوق حركة فى القلب واهتياج للقاء المحبوب يعقبه مشاهدة جمال المحبوب وسمى الأول شوقاً والثانى اشتياقاً.

وقال النصراباذى: للخلق كلهم مقام الشوق وليس هم مقام الاشتياق ومن دخل إلى حال الاشتياق هام فيه.

قال الدقاق فى قول موسى " وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى "{طه/٨٤} قال معناه شوقاً إليك فستره بلفظ الرضى.

درجات الشوق:

الدرجة الأولى: "شوق العابد إلى الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الأمل."

المراد: حصول الأمن الباعث على الأمل فإن الخوف المجرد عن الأمل من كل وجه لا يبعث صاحبه على العمل إن لم يقارنه أمل والحزن المجرد إن لم يقترن به الفرح قتل صاحبه فلولا روح الفرح لتعطلت قوى الحزين وإذا قعد به الحزن قام به روح الفرح. والأمل إذا لم يصاحبه روح الظفر مات أمله.

الدرجة الثانية: "شوق إلى الله عز وجل زرعه الحب الذى ينبت على حافات المنن فعلق قلبه بصفاته المقدسة فاشتاق

رجوع للفهرس

إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وأعلام فضله وهذا شوق تغشاه المبار وتخالجه المسار ويقاومه الاصطبار."

المراد: الشوق إلى الله لا ينافى الشوق إلى الجنة لأن أطيب ما فى الجنة القرب إلى الله تعالى ورؤيته وسماع كلامه وشوق المحبين إلى الله تعالى له درجتان الأولى شوق زرعه الحب بسبب الإحسان والمنة وقوله تنبت على حافات المنن أى جوانبه وأنها من نبات الحافات التى هى جوانب المنن لا من نبات الأسماء والصفات، وقوله فعلق قلبه بصفاته المقدسة وهى الصفات المختصة بالمنن والإحسان كالبر والمنان والمحسن والجواد وغيرها وقوله المقدسة يعنى المطهرة عن المنزهة عن تأويل المحرفين، والشوق الثانى جعل ثمرة التعلق شوق العبد إلى معاينة لطائف كرم الرب ومننه وإحسانه وآيات بره وهى علامات بره بالعبد وإحسانه إليه.

وأما قوله شوق تغشاه المبار ليس خالصاً لذات المحبوب، وأما قوله تخالجه المسار هى المجازفة فإن خالط الشوق الفرح كان ممزوجاً بنوع من الحظ. وأما قوله يقاومة

رجوع للفهرس

الاصطبار: أى يقوى على الصبر ليقاوم صبره شوقه ولا يغالبه.

الدرجة الثالثة: "نار أضرمها صفو المحبة فنغصت العيش وسلبت السلوة ولم ينهنهها معزى دون اللقاء."

المراد: أن الشوق فى هذه المرتبة شبيه بالنار التى أضرمها صفو المحبة وشبهه بالنار لالتهابه فى الأحشاء وهذه المحبة لم تكن لأجل المنة والنعم ولكنها متعلقة بالذات والصفات وتمنع صاحبها من السكون إلى لذيذ العيش والتنغيص قريب من التكدير. وأما وسلبت السلوة أى نهبت السلو وأخذته قهراً. وأما قوله هى الخلاص من كرب المحبة وإلقاء حملها عن الظهر والإعراض عن المحبوب تناسياً. وأما قوله لم ينهنهها معزى دون اللقاء أى لم يكفها ويردها قرار دون لقاء المحبوب وهذه لا يقاومها الاصطبار لأنه لا يكفها دون لقاء من يحب قرار.

منزلة الوجد:

جاء فى الحديث "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء

رجوع للفهرس

لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى فى النار" (أخرجه البخارى حـ١/١٦ ومسلم حـ١/إيمان -٦٧).

وأحسن الإستدلال والاستشهاد فى قوله تعالى فى قصة أصحاب الكهف "وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَـهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا "{الكهف/١٤} فإن أهل الكهف كانوا بين قومهم الكفار فلما وجدوا حقيقة الإيمان وذاقوا حلاوته وباشر قلوبهم فقاموا من بين قومهم، والربط على قلوبهم يتضمن الشد عليها بالصبر والتثبيت وتقويتها بنور الإيمان.

الوجد: هو ما يصادف القلب ويرد عليه من واردات المحبة والشوق والإجلال والتعظيم فإن الوجد مصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد.

الوجود: هو الظفر بحقيقة المطلوب ولا يكون إلا بعد خمود البشرية وانسلاخ أحكام النفس انسلاخًا كليًا:

رجوع للفهرس

مراتب الوجد:

١- التواجد وهو نوع تكلف وتعمل واستدعاء. والتكلف والتعمل فى أوائل السير والسلوك لابد منه إذ لا يطالب صاحبه بما يطالب به صاحب الحال.

٢- المواجيد وهى نتائج الأوراد وثمراتها.

٣- الوجد وهو ثمرة أعمال القلوب من الحب فى الله والبغض فيه.

٤- الوجد وهى أعلى ذروة مقام الإحسان فمن مقام الإحسان يرقى إليه فإنه إذا غلب عليه مشاهدة معبوده حتى كأنه يراه وتمكن فى ذلك صار له ملكة أخمدت أحكام نفسه وتبدل بها أحكاماً أخر وطبيعة ثانية حتى كأنه أنشئ نشأة أخرى.

درجات الوجد:

الدرجة الأولى: "وجد عارض يستفيق له شاهد السمع أو البصر أو الفكر أبقى على صاحبه أثرًا أو لم يبق". هذه الشواهد الثلاث من انتباه السمع بالخطاب من الخارج أو من نفسه وما يشاهده البصر ومعاينة من آيات الله وما يفتح من

رجوع للفهرس

معانى التأويل والتفكر كما فى قوله تعالى " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ {الحج/٤٦}، " أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ {المؤمنون/٦٨}، " أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا {محمد/٢٤}، " قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ {يونس/١٠١}، " أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاء رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ {الروم/٨}، " بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ "{النحل/٤٤}. فإن استفاق شاهد السمع والبصر والفكر وجد حلاوة الإيمان.

وأما قوله أبقى على صاحبه أثر أو لم يبق أى أن هذا الوجد قد يبقى أثرا من أحكامه بعد مفارقته وقد لا يبقى أثراً والظاهر أنه لابد أن يبقى أثرًا.

رجوع للفهرس

الدرجة الثانية: "وجد تستفيض له الروح بلمع نور أزلى أو سماع نداء أوْلى أو جذب حقيقى إن أبقى على صاحبه لباسه وإلا أبقى عليه نوره." وهو استيقاظ الروح ومحلها فى الأول السمع والبصر والفكر لأن الروح هى الحاملة لهذه الحواس فْعلو الوجد متعلق بوجد السمع والبصر والفكر: الآيات والبصائر ومتعلق وجد الروح لتعلقها بالمحبوب ذاته بسبب لمع نور أزلى ينبر الأسماع والأبصار يأتى من نور الروح وصاحب هذه الحال يسمع بالله ويبصر بالله وأما قوله سماع نداء أولى وهو تعرف الحق إلى عباده بواسطة ألسنة رُسلهِ.

وأما قوله وجد أو جذب حقيقى وهو انجذاب العبد إلى ربه لأن روح العبد استفاقت واستنارت. وأما قوله إن أبقى على صاحبه لباسه وإلا أبقى عليه نوره واللباس هو المقام الذى يورثه عز أو مهابة وخلافة نبوة ومنشور صديقية وأثره يورثه حلاوة وسكينة وأنسًا فى نفسه وأنسًا للقلوب وهوى الأفئدة إليه.

رجوع للفهرس

الدرجة الثالثة: "وجد يخطف العبد من الكونين ويمحص معناه من دون الحظ ويسلبه من رق الماء والطين وإن سلبه أنساه اسمه وإن لم يسلبه أعاره رسمه." المراد من ذلك: أن يستغنى العبد عن ما سوى الله من كونى الدنيا والآخرة ويخلص العبد من عبوديته بقلب حى وروح حية بموت نفسها وحظوظها ويتمرد العبد من تركيبة الجسم من الماء والطين إلى رق رب العالمين فينسى العبد اسمه لأن الاسم تابع لحقيقته فإذا سلب الحقيقة نسى اسمها وإن لم يسلبه بالكلية بقى منه رسمًا فهو معار عنده بصدد الاسترجاع.

الدعاء والقدر:

ذكر الشيخ فى منزلة اللحظ: إن العبد إذا ما قدره الله له قد سبق تقديره فهو واصل إليه لا محالة ولابد أن يناله اطمأن قلبه وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وأنه ما يفتح الله له وللناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده فإذا تيقن من ذلك وذاق طعم الإيمان به قطع ذلك عليه طريق الطلب من ربه لأن ما سبق له به القدر كائن واصل لا محالة.

رجوع للفهرس

ولكن العبد لابد له من سؤال ربه والطلب منه ولا يعتقد أن سؤاله وطلبه يجلب له ما ينفعه ويدفع عنه ما يحذره لأن القدر السابق قد استقر بوصول المقدور إليه سأله أو لم يسأله ويكون السؤال على وجه التذلل واظهارًا للعبودية وذلها بين يدى عز الربوبية لأن الرب سبحانه يحب من عبده السؤال لأن وصول البر والإحسان موقوف على سؤاله. وهو المتفضل به بلا سبب من العبد ولا توسط سؤاله وطلبه وقدر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد ثم أمره بسؤاله والطلب منه إظهارًا لمراتب العبودية واعترافًا بالربوبية وكمال غنى الرب وهو المتفضل بالإحسان ولا غنى للعبد عن فضله طرفة عين فيأتى بالطلب والسؤال على العبد أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله منه كما فى قوله تعالى " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ {غافر/٦٠}، " وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ {البقرة/١٨٦}، " وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ

رجوع للفهرس

شَيْءٍ عَلِيمًا {النساء/٣٢}، " قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا {الفرقان/٧٧}، " ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ {الأعراف/٥٥} وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ {الأعراف/٥٦}.

وفى الحديث: "من لم يسأل الله يغضب عليه" (حديث حسن-رواه الترمذى حـ٥/٣٣٧٣ وابن ماجه حـ٢/٣٨٢٧ وأحمد حـ٢ صـ٤٤ عن أبى هريرة).

"ليس شيئ أكرم على الله من الدعاء" (أخرجه الترمذى حـ٥/٣٣٧٠ وابن ماجه حـ٢/٣٨٢٩ وحسنه الترمذى وصححه ابن حبان موارد).

"ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا

رجوع للفهرس

أبالى فاستغفرونى أغفر لكم" (أخرجه مسلم حـ٤-بر/٥٥ من رواية أبى ذر الغفارى).

"وأما السجود فاجتهدوا فيه فى الدعاء فقمن أن يستجاب لكم" (أخرجه مسلم حـ١ صلاة/٢٠٧ وأبو داود حـ١/٨٧٦).

وقال عمر بن الخطاب: "إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء فإذا الهمت الدعاء علمت أن الإجابة معه".

وقال الإمام أحمد: تذاكرت ماجماع الخير فإذا الخير كثير الصيام والصلاة وإذا هو فى يد الله تعالى وإذا أنت لا تقدر على ما فى يد الله إلا أن تسأله فيعطيك فإذا جماع الخير الدعاء".

ومن أسباب المطلوب: الدعاء والطلب اللذين إذا وجدا وجد ما ترتب عليهما كما أن من أسباب الزرع البذر.

الدعاء شفاء ([1])

الدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء يدفعه ويعالجه ويمنع نزوله ويدفعه أو يخفيه إذا نزل وهو سلاح المؤمن وله مع البلاء ثلاث مقامات:

[1] الداء والدواء لابن القيم الجوزية حـ ١٩- ٣٢.

رجوع للفهرس

١- أن يكون أقوى من البلاء فيدفعه.

٢- أن يكون أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصيب العبد ولكن قد يخفف وإن كان ضعيفاً.

٣- أن يمنع كل منهما الآخر.

وفى الحديث "لا يغنى حذر من قدر والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء ينزل فيلقاه الدعاء فيعتجلان إلى يوم القيامة" (صحيح الجامع الصغير ٧٧٣٩ حديث حسن).

"لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البر" (صحيح الجامع الصغير ٨٦٨٧ عن سليمان-حديث حسن).

الإلحاح من أسباب الإجابة ([1])

من أنفع الأوردة الإلحاح فى الدعاء كما فى الحديث "من لم يسأل الله يغضب عليه" (حديث حسن رواه الترمذى حـ٥/ ٣٣٧٣ وابن ماجه حـ٢/ ٣٨٢٧ وأحمد حـ٢ صـ٤٤ عن أبى هريرة).

أوقات الإجابة وصفة الداعى ([1])

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى حـ٢ صـ٢٤٠.

رجوع للفهرس

إذا اجتمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة وهى: الثلث الأخير من الليل وعند الأذان وبين الأذان والإقامة وأدبار الصلوات المكتوبات وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم وآخر ساعة بعد العصر.

وذكر الإمام القرطبى ([٢]) فى أوقات الإجابة أيضاً وقت السحر ووقت الفطر وما بين الظهر والعصر يوم الأربعاء وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرض وعند نزول المطر والصف فى سبيل الله وعند الشعور بالقشعريرة يستجاب الدعاء وقال جابر بن عبدالله دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد الفتح ثلاثاً يوم الاثنين ويوم الثلاثاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين.

فإذا صادف القلب خشوعاً ([١]) وانكساراً بين يدى الرب وتذللا وتضرعاً ورقة واستقبل الداعى القبلة وكان على طهارة ورفع يديه إلى الله وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم صلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم قدم

رجوع للفهرس

بين يدى حاجته التوبة والاستغفار ثم دخل على الله وألح عليه فى المسألة وتملقه ودعاه رغبة ورهبة وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدى دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبداً ولا سيما إن صادف الأدعية التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة والمتضمنة للاسم الأعظم كما فى الأحاديث التالية:

"اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال لقد سأل بالإسم الذى إذا سئل به أعطى وإذا دعى به أجاب" وفى لفظ لقد سألت الله باسمه الأعظم" (رواه أبو داود (١٤٩٣) وابن ماجة ٣٨٥٧ والترمذى ٣٤٧٥ وصححه الألبانى).

"اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام ياحى يا قيوم فقال النبى صلى الله عليه وسلم" لقد دعا الله باسمه العظيم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى" (رواه النسائى ٥٢/٣ وأبو داود ١٤٩٥ وابن ماجه ٣٨٥٨ وأحمد فى مسنده ١٥٨/٣ وصححه الألبانى).

رجوع للفهرس

"اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين "وَإِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" وفاتحة آل عمران"، "اللّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ" (صحيح الجامع الصغير ٩٨٠ عن أسماء بنت يزيد ـحديث حسن).

"اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث سور من القرآن فى البقرة وآل عمران وطه" هى آية يا حى يا قيوم" (صحيح الجامع الصغير ٩٧٩ عن أبى أمامة).

"ألظوا بيازا الجلال والإكرام" (صحيح الجامع الصغير ١٢٥٠ عن أنس). ألظوا: الزموه واثبتوا عليه وأكثروا من قوله فى دعائكم.

"كان إذا كربه أمر قال: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث" (حديث حسن- صحيح الجامع الصغير٤٧٧٧ عن أنس).

"دعوة ذى النون إذا دعا بها وهو فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين لم يدع رجل مسلم فى شيئ إلا استجاب الله له" (صحيح الجامع الصغير ٣٣٨٣ عن سعد).

رجوع للفهرس

"لا إله إلا العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض ورب العرش الكريم" (أخرجه البخارى ٥٩٨٥، ٦٩٩٤ ومسلم ٢٧٣٠)، ما أصاب أحداً قط هم أو حزن فقال: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضائك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أوعلمته أحداً من خلقك أو أنزلته فى كتابك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب غمى إلا أذهب الله عز وجل همه وحزنه وأبدله مكانه فرحاً فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها قال "بلى ينبغى لمن سمعها أن يتعلمها" (مسند أحمد ٣٩١/١، ٤٥٢ والحاكم فى المستدرك ٦٩٠/١ وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة ١٩٩).

وقد ذكر الإمام القرطبى ([١])

قال سهل بن عبدالله التسترى شروط الدعاء سبعة:

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبى حـ٢ صـ٢٣٩.

رجوع للفهرس

أولها التضرع والخوف والرجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال. وقال ابن عطاء: أن للدعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً فإن وافق أركانه قوى وإن وافق أجنحته طار فى السماء وإن وافق مواقيته فاز وإن وافق أسبابه أنجح فأركانه حضور القلب والرأفة والاستكانة والخشوع وأجنحته الصدق وموافقته الأسحار وأسبابه الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وقيل شرائطه أربع: أولها حفظ القلب عند الوحدة وحفظ اللسان مع الخلق وحفظ العين عن النظر إلى ما لا يحل وحفظ البطن من الحرام وقيل إن من شرط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن.

وقيل لإبراهيم بن أدهم ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا قال: لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سننه وعرفتم القرآن فلم تعلموا به وأكلتم نعم الله فلم تؤدوا شكرها وعرفتم الجنة فلم تطلبوها وعرفتم النار فلم تهربوا منها وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ودفنتم الأموات فلم تعتبروا وتركتم عيوبكم وانشغلتم بعيوب الناس.

رجوع للفهرس

وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء ويكون موقناً بالإجابة ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً وقال سفيان بن عيينه. لا يمنعن أحداً من الدعاء ما يعلمه من نفسه فإن الله قد أجاب دعاء شر الخلق ابليس، قال ربى أنظرنى إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين.

من موانع الإجابة:

١ ـ الاستعجال فى الإجابة وفى الحديث:

"يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت ولم يستجب لى" (أخرجه البخارى ٥٩٨١ ومسلم ٢٤٣٧).

"لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله وما الاستعجال قال يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجابُ لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء" (أخرجه مسلم ٢٧٣٥).

"ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له فإما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يدخر له فى الآخرة ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل يقول دعوت ربى فما استجاب لى" (صحيح الجامع الصغير ٥٧١٤ عن أبى هريرة).

رجوع للفهرس

والدعاء من أقوى الأسباب فى دفع المكروه وحصول المطلوب ولكن قد يختلف أثره عنده إما لضعفه فى نفسه بأن يكون الدعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته وقت الدعاء وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام ورين الذنوب على القلوب واستيلاء الغفلة والشهوة واللعب وغلبتها عليها كما فى الحديث:

"ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" (صحيح الجامع الصغير ٢٤٥ عن أبى هريرة، حديث حسن).

"يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيب وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {المؤمنون/٥١}، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" {البقرة/١٧٢}. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء

رجوع للفهرس

يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك" (أخرجه مسلم ١٠١٥).

أحوال الدعاء:

يستجاب للدعاء عند الضرورة والإقبال على الله أو تقديم الحسنات

ذم التوكل على القدر مع ترك الأسباب

إن المدعو به إذا كان قدر قدر لم يكن يد من وقوعه دعا به العبد أو لم يدع وإن لم يكن قد قدر لم يقع سواء سأله العبد أو لم يسأله. فضلت طائفة وتركت الدعاء وقال أخرى إن الاشتغال بالدعاء من باب التعبد لله ويثيب عليه من غير أن يكون له تأثير فى المطلوب بوجه ما. وقالت طائفة أكيس من الطائفتين السابقتين: بل الدعاء علامة مجردة نصبها الله سبحانه وتعالى أمارة على قضاء الحاجة فمتى وفق الله العبد للدعاء كان ذلك علامة له وأمارة على أن حاجته قد انقضت.

قالوا: وهكذا حكم الطاعات مع الثواب والكفر والمعاصى مع العقاب هى أمارات محضة لوقوع الثواب والعقاب لا أنها أسباب له.

رجوع للفهرس

والصحيح: أن المقدور قدر بأسباب ومن أسبابه الدعاء فلم يقدر مجردًا عن سببه ولكن قدر سببه فمتى أتى العبد بالسبب وقع المقدور ومتى لم يأت بالسبب انتفى المقدور كما حصول الزرع بالبذر. والدعاء حينئذ من أقوى الأسباب فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة فى الدعاء وقد قال عمر بن الخطاب "إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء فإذا أُلهمتم الدعاء فإن الإجابة معه".

ومن أُلهم الدعاء فقد أريد به الإجابة كما فى الآيات السابقة ذكرها "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" {البقرة/١٨٦}. والتقرب إلى رب العالمين وطلب مرضاته والبر والإحسان إلى خلقه من أعظم الأسباب الجالبة لكل خير فما استجلبت نعم الله تعالى واستدفعت نقمه بمثل طاعته والتقرب إليه والإحسان إلى خلقه.

ارتباط الأسباب بالمسببات:

رجوع للفهرس

قد رتب الله سبحانه حصول الخيرات فى الدنيا والآخرة وكذلك حصول الشرود فى دار الدنيا ودار الآخرة على الأعمال وترتيب الجزاء على الشرط والمسبب على السبب وهذا فى القرآن يزيد على ألف موضع منها على سبيل المثال لا الحصر كما فى قوله تعالى " فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ "{الأعراف/١٦٦}، "فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ" {الزخرف/٥٥}، "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاء بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" {المائدة/٣٨}.

والفقيه كل الفقه الذى يرد القدر بالقدر ويدفع القدر بالقدر ويعارض القدر بالقدر ولا يمكن للإنسان أن يعيش إلا بذلك فمثلاً الجوع والعطش والخوف والبرد من القدر والبشر كلهم ساعون إلى دفع هذا القدر بالقدر ومن وفقه الله وألهمه رشده يدفع قدر العقوبة فى الآخرة بالتوبة والإيمان والأعمال الصالحة فى الدنيا قرب الدارين واحد وحكمته واحدة ولا يناقض بعضها بعضاً ولا يبطل بعضها بعضاً وهذه

رجوع للفهرس

من أشرف المسائل لمن عرف قدرها ورعاها حق رعايتها والله المستعان.

باب الغربة:

قال الله تعالى "فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ "{هود/١١٦}.

الغرباء هم أهل الصفة المذكورة فى الآية السابقة وأشار إليهم الحديث التالى:

"بدأ الإسلام غريب وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله قال الذين يصلحون إذا فسد الناس" (أخرجه مسلم حـ١/إيمان/٢٣٢ عن أبى هريرة).

وقال نافع عن مالك: دخل عمر بن الخطاب المسجد فوجد معاذ بن جبل جالسًا إلى بيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فقال له عمر ما يبكيك ياأبا عبدالرحمن هلك أخوك قال لا ولكن حديثًا حدثنيه حبيبى صلى الله عليه وسلم وأنا فى هذا المسجد فقال ما هو قال:"إن الله يحب الأخفياء الأحفياء

رجوع للفهرس

الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا وإذا حضروا لم يعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل فتنة عمياء مظلمة".

فهؤلاء هم الغرباء الممدوحين المغبوطين قليلون فى الناس ولقلتهم سموا غرباء فإن أكثر الناس على غير هذه الصفات فأهل الإسلام فى الناس غرباء والمؤمنون فى أهل الإسلام غرباء وأهل العلم فى المؤمنين غرباء وأهل الذين يميزونها من البدع والأهواء فهم غرباء والداعون إلى السنة والصابرين على أذى المخالفين هم أشد الغرباء وهم أهل الله حقًا فلا غربة عليهم وغربتهم بين الأكثرين أنظر قول الله تعالى "وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ" {الأنعام/١١٦} فأولئك هم الغرباء من الله ورسوله ودينه وغربتهم غربة موحشة.

أنواع الغربة:

النوع الأول: غربة أهل الله وأهل السنة بين هذا الخلق ومدحها الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث المذكور

رجوع للفهرس

فى أول هذا الباب وهذه الغربة قد تكون فى مكان دون مكان ووقت دون وقت وبين قوم دون قوم وهؤلاء هم أهل الله حقًا المتمسكون بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها.

النوع الثانى: غربة مذمومة وهى غربة أهل الباطل وأهل الفجور.

النوع الثالث: الغربة عن الوطن فلا تحمد ولا تذم والناس فى هذه الدار غرباء فإنها ليست لهم بدار المقام ولا هى الدار التى خلقوا لها وفى الحديث "كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" (أخرجه البخارى حـ ٦٤١٦/١١ عن ابن عمر).
الاغتراب: أمر يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء.

درجات الاغتراب:

الدرجة الأولى:

"الغربة عن الأوطان وهذا الغريب موته شهادة ويقاس له فى قبره من مدفنه إلى وطنه ويجمع يوم القيامة إلى عيسى ابن مريم عليه السلام".

رجوع للفهرس

وفى الحديث "ليته مات فى غير مولده" فقال رجل ولم يا رسول الله فقال "إن الرجل إذا مات قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة" (أخرجه النسائى حـ٤ صـ٨٢٧ وابن ماجة حـ١/١٦١٤ وأحمد حـ٢ صـ١٧٧).

ويشير الحديث الذى رواه الإمام أحمد: حدثنا القاسم بن جميل حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عثمان بن عبدالله بن إدريس عن سليمان بن هرمز عن عبدالله بن عمرو قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أحب شيئ إلى الله الغرباء قيل وما الغرباء يا رسول الله قال "الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم يوم القيامة".

الدرجة الثانية:

غربة الحال وهذا من الغرباء طوبى لهم وهو رجل صالح فى زمان فاسد بين قوم فاسدين أو عالم بين قوم جاهلين أو صديق بين قوم منافقين.

وغريب الحال المتمسك بالسنة وهو العالم بالحق والعامل به والداعى إليه وهم ثلاثة أنواع: صاحب صلاح ودين بين قوم فاسدين وصاحب علم ومعرفة بين قوم جاهلين وصاحب

رجوع للفهرس

صدق وإخلاص بين أهل كذب ونفاق وصفاتهم تنافى صفات من هم بين أظهرهم وهم كمثل الطير الغريب بين الطيور.

والصديق هو الذى صدق فى قوله وفعله وصدق الحق بقوله وعمله انقياداً لله ورسوله بعكس المنافق الذى ظاهره بخلاف باطنه وقوله خلاف عمله.

الدرجة الثالثة:

غربة الهمة وهى غربة طلب الحق وهى غربة العارف فغربة العارف غربة الغربة لأنه غريب الدنيا والآخرة وهذه الدرجة أعلى مما قبلها لأن الغربة الأولى غربة الأبدان والثانية غربة بالأفعال والأحوال والثالثة غربة بالهمم لأن غربة العارف فهو غريب فى أبناء الآخرة فضلاً عن أبناء الدنيا كما أن طالب الآخرة غريب فى أبناء الدنيا.

وغريب الدنيا وغريب الآخرة لأن أبناء الدنيا لا يعرفونه لأنه ليس منهم وأهل الآخرة من العباد والزهاد لا يعرفونه لأن شأنه وراء شأنهم لأن همتهم متعلقة بالعبادة وهمته متعلقة بالمعبود مع قيامه بالعبادة فهو يرى الناس والناس لا يرونه.

رجوع للفهرس

باب المكاشفة:

قال الله تعالى " فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى" {النجم/١٠} والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كشف لعبده ما لم يكشفه لغيره وأطلع على ما لم يطلع عليه غيره وانكشفت الحقائق التى لا تخطر على بال غيره وخصه الله بها. والإيحاء هو الإعلام السريع الخفى.

المكاشفة: مهاداة السر بين متباطنين ويريد أن المكاشفة إطلاع أحد المتحابين المتصافين صاحبه على باطن أمره وسره. ومن المكاشفة بلوغ ما وراء الحجاب وجودًا.

المكاشفة الصحيحة:

علوم يحدثها الرب سبحانه وتعالى فى قلب العبد ويطلعه بها على أمور تخفى على غيره وقد يواليها وقد يمسكها عنه بالغفلة عنها ويواريها عنه بالغبن الذى يغشى قلبه وهو أرق الحجب أو بالغيم وهو أغلظ منه أو بالران وهو أشدهما فالأول يقع للأنبياء عليهم السلام والثانى للمؤمنين والثالث لمن غلبت عليه الشقوة قال الله تعالى "كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى

رجوع للفهرس

قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ" {المطففين/١٤} وقال ابن عباس هو الذنب بعد الذنب يغطى القلب حتى يصير كالران عليه.

والحجب عشرة:

١- حجاب التعطيل ونفى حقائق الأسماء والصفات وهو أغلظها فلا يتهيأ لصاحب هذا الحجاب أن يعرف الله ولا يصل إليه إلا كما يتهيأ للحجر أن يصعد إلى فوق.

٢- حجاب الشرك وهو أن يتعبد قلبه لغير الله.

٣- حجاب البدعة القولية كحجاب أهل الأهواء والمقالات الفاسدة على اختلافها.

٤- حجاب البدعة العملية كحجاب أهل السلوك المبتدعين فى طريقهم وسلوكهم.

٥- حجاب أهل الكبائر الباطنة كحجاب أهل الكبر والرياء والحسد والفخر والخيلاء وغيرهم.

٦- حجاب أهل الكبائر الظاهرة وحجابهم أدق من أهل الكبائر الباطنة مع كثرة عباداتهم وزهاداتهم واجتهاداتهم فكبائر هؤلاء أقرب إلى التوبة من كبائر أولئك. وأهل

رجوع للفهرس

الكبائر الباطنة لهم مقامات لا يتحاشون من إظهارها وإخراجها فى قوالب عبادة ومعرفة.

٧- حجاب أهل الصغائر.

٨- حجاب أهل الفضلات والتوسع فى المباحات.

٩- حجاب أهل الغفلة عن استحضار ما خلقوا له وما أريد منهم وما لله عليهم من شهود من دوام ذكره وشكره وعبوديته فهم غافلون عن ذلك.

١٠-حجاب المجتهدين السالكين المشمرين فى السير عن المقصود.

فهذه حجب بين القلب وبين الله سبحانه وتعالى تحول بينه وبين هذا الشأن وتنشأ من عناصر النفس والشيطان والدنيا والهوى ولا يمكن كشفها مع بقاء أصولها وعناصرها فى القلب وهى تفسد القول والعمل والقصد والطريق بحسب غلبتها وقلتها فتقطع طريق القول والعمل والقصد أن يصل إلى القلب وما وصل منه إلى القلب انقطع عليه الطريق أن يصل إلى الرب فبين القول والعمل وبين القلب مسافة يسافر فيها العبد إلى قلبه ليرى عجائب ما هنالك وفى هذه المسافة

رجوع للفهرس

قطاع طريق فإن حاربهم وخلص العمل إلى قلبه دار فيه وطلب النفوذ من هناك إلى الله فلا يستقر دون الوصول إليه قال الله تعالى "وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى" {النجم/٤٢}، فإذا وصل إلى الله أثابه عليه مزيداً فى إيمانه ويقينه ومعرفته وعقله وجمل به ظاهره وباطنه فهداه به لأحسن الأخلاق والأعمال وصرف به عنه سيئ الأخلاق والأعمال وأقام الله به من ذلك العمل للقلب جنداً يحارب به قطاع الطريق للوصول إليه ولا يمنع ذلك من قوة يقينه بالآخرة يحارب الشيطان يترك الاستجابة لداعى الهوى لأن الشيطان مع الهوى ويحارب الهوى بتحكيم الأمر المطلق وافيًا معه غير مبقيًا لهواه ويحارب النفس بقوة الاخلاص. وإذا وجد العمل منفذًا من القلب إلى الرب وإن لم يجد منفذًا وثبت عليه النفس فأخذته وصيرته جندًا لها فتراه من العباد وهو أبعد ما يكون عن الله وأصحاب الكبائر أرق قلوبًا إلى الله منه وأدنى منه إلى الإخلاص والخلاص.

فالكشف الصحيح أن يعرف الحق الذى بعث الله به رسله وأنزل به كتبه معاينة لقلبه ويجرد إرادة القلب له فيدور معه

رجوع للفهرس

وجودًا أو عدمًا فهذا هو التحقيق الصحيح، وما خالفه فغرور قبيح.

باب الحياة:

قال الله تعالى "أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" {الأنعام/١٢٢}.

إن المراد بهذه الآية من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التى أحيا بها بدنه وهى روح معرفته وتوحيده وعبادته وحده لا شريك له ولا حياة للروح إلا بذلك وقال الله تعالى "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" {النمل/٨٠}، وسمى وحيه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح وقال الله تعالى "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" {الشورى/٥٢}، فأخبر أن روح تحصل به الحياة وأنه نور تحصل به الإضاءة وقال الله تعالى "رَفِيعُ

الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ" {غافر/١٥}، فالوحى حياة الروح كما أن الروح حياة البدن ومن فقد هذه الروح فقد فقد الحياة الفانية فى الدنيا والآخرة وحياته فى الدنيا كالبهائم وفى الآخرة فله جهنم. وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته فقال الله تعالى "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ" {النحل/٩٧} والحياة الطيبة بالقناعة والرضا والرزق الحسن والصواب أنها حياة القلب ونعيمه وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه وجعل الله المعيشة الضنك لمن أعرض عن ذكره. والحياة الطيبة تدور فى دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والمعيشة الضنك تكون فى هذه الدور الثلاث فالأبرار فى نعيم والفجار فى جحيم وأطيب الحياة لأهل محبته وطاعته والإقبال عليه والمعيشة الضنك فى الدنيا والآخرة لأهل الغفلة والمعصية والإعراض عنه.

رجوع للفهرس

مراتب الحياة:

الحياة الأولى: حياة العلم من موت الجهل ولها ثلاثة أنفاس نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبة.

المرتبة الأولى: حياة الأرض بالنبات قال الله تعالى " وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ الْسَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ {النحل/٦٥}، "رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ {ق/١١}، "وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا {الفرقان/٤٨} لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا" {الفرقان/٤٩}، وجعل هذه الحياة دليلاً على الحياة يوم الميعاد.

المرتبة الثانية: حياة النمو والاغتذاء وهى مشتركة بين النبات والحيوان قال الله تعالى "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ" {الأنبياء/٣٠}.

المرتبة الثالثة: حياة الحيوان المتغذى بقدر زائد على نموه.

رجوع للفهرس

المرتبة الرابعة: حياة الحيوان الذى لا يتغذى بالطعام والشراب كحياة الملائكة وحياة الأرواح بعد مفارقة الأبدان قال الله تعالى " يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ" {الأنبياء/٢٠}.

المرتبة الخامسة: حياة العلم من موت الجهل فإن الجاهل ميت القلب والروح قال الله تعالى " أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ {الأنعام/١٢٢}، "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ {يس/٦٩} لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ {يس/٧٠}، "فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ {الروم/٥٢}، "وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ" {فاطر/٢٢}. وشبههم الله فى موت قلوبهم بأهل القبور فقد ماتت أرواحهم وصارت أجسامهم قيوداً لها.

ذكر الإمام أحمد فى كتاب الزهد من كلام لقمان أنه قال لابنه "يابنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى

رجوع للفهرس

القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل القطر". وقال معاذ بن جبل: "تعلموا العلم فإن تعلمه خشية لله وطلبه عباده ومذاكرته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة لأنه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة وهو الأنيس فى الوحشة والصاحب فى الغربة والمحدث فى الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الأعداء والزين عند الأخلاء يرفع الله بها أقواماً فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة تقتص آثارهم ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم وترغب الملائكة فى خلتهم وبأجنحتهم تمسحهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه لأن العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الأبصار من الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة. التفكير فيه يعدل الصيام ومدارسته تعدل القيام وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال من الحرام وهو إمام العمل والعمل تابع له يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء" رواه الطبرانى وابن عبدالبر وغيرهما وقد روى مرفوعًا إلى النبى صلى الله عليه وسلم والوقف أصح.

رجوع للفهرس

والعلم حياة القلوب من الجهل فالقلب ميت وحياته بالعلم والإيمان.

المرتبة السادسة: حياة الإرادة والهمة وضعف الإرادة والطلب من ضعف حياة القلوب وكلما كان القلب أتم حياة كانت همته أعلى وإرادته ومحبته أقوى وقوة الإرادة دليل على قوة الحياة وضعفها دليل على ضعفها وكما أن علو الهمة وصدق الإرادة والطلب من كمال الحياة والحياة الطيبة تنال بالهمة العالية وأخس الناس حياة أخسهم همة وأضعفهم محبة وحياة البهائم خير من حياته.

والمقصود من ذلك أن حياة القلب بالعلم والإرادة والهمة وإذا شاهد الناس ذلك من الرجل قالوا هو حى القلب وحياة القلب بدوام الذكر وترك الذنوب كما قال عبدالله بن المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب   وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب   وخير لنفسك عصيانها

وقال ابن تيمية: من واظب على "يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت" كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر أربعين مرة أحيى الله بها قلبه.

رجوع للفهرس

والله جعل حياة البدن بالطعام والشراب فحياة القلب بدوام الذكر والدوام إلى الله وترك الذنوب والغفلة الجاثمة على القلب والتعلق بالرذائل والشهوات ولا يزال الضعف يتوالى حتى يموت القلب وعلامة موته لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

المرتبة السابعة: حياة الأخلاق والصفات المحمودة مثل العفة والجود والسخاء والمروءة والصدق والوفاء ونحوها وكلما كانت الأخلاق فى صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم وأكمل الناس حياة أكملهم حياء وخلق الحياء مشتقًا من الحياة. والروح إذا ماتت لم تحسن بما يؤلمها من القبائح فلا تستحى منها.

المرتبة الثامنة: حياة الفرح والسرور وقرة العين بالله وتكون بعد الظفر بالمطلوب الذى تقربه عين طالبه وبحرمانها يضعف العقل والتمييز والبصيرة وضعف الهمة والإرادة وهذه أعلى مراتب الحياة ولا يصل إليها المستغرق فى الشهوات والملذات الغارق فى المعاصى والمخالفات وأسوأ العادات وهمته مشتقة من السفليات وعقيدته غير

رجوع للفهرس

منتقاة من مشكاة النبوات فهو معرض عن كل نصح وإرشاد وهو عن السراء نائم وقلبه فى كل واد هائم ولو خرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم ومن الهوى إلى الهدى وطهر نفسه لزادت قوته ولعلت همته.

وأول الطريق المعرفة بالله والطريق الموصل إلى الله فيبصر بقلبه شواهد الآخرة وينجذب إليها ويدأب فى تصحيح التوبة وترك المنهيات الشرعية ولا يخطر على قلبه ما يكره الله ويصفو قلبه عن حديث النفس ووسواسها فحينئذ يخلو قلبه بذكر ربه ومحبته والإنابة إليه ويخلوا بربه فحينئذ يجتمع قلبه وخواطره وحديث نفسه على إرادة ربه وطلبه والشوق إليه فيرزق محبة الرسول صلى الله عليه وسلم جاعله إمامه ومعلمه فيطالع سيرته ومبادئ أمره ونزول الوحى عليه ويعرف صفاته وأخلاقه وآداب حياته جميعها وعبادته حتى يصير كأنه معه من بعض أصحابه ويتخلص من الصفات المذمومة عنده.

وإذا شاهد صفات الرب جل جلاله مستوياً على عرشه مدبراً لمُلكهِ وتكليمه الوحى وتكليمه لعبده جبريل به وإرساله إلى

رجوع للفهرس

من يشاء بما يشاء ويشاهد قلبه قاهراً لعباده آمراً ناهياً باعثاً لرسله والأمر كله له والنفع والضر والعطاء وإذا استكمل جميع صفات ربه وصفات القيومية فتح الله له مشهد القرب والمعية معه قريب منه له الخلق والأمر والتدبير معطى لربه متقرب إليه بكل الطاعات ذاكراً لربه معتكفاً على مرضاته بجميع جوارحه فإن سمع سمع بحبيبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به والسالك إلى ربه مستغرقاً قلبه فى صدق الحب وبذل لجهد فى امتثال الأمر مشاهداً لمعرفة ربه وصفاته وأسمائه متعلقاً بالرب المحبوب محباً لله عاكفاً على مزيد من محبته فتعلو همته ويحصل له منزلة "كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به" يكون محبوباً لحبيبه متقرباً إلى ربه حفظاً لمحبته واستدعاء محبة ربه له ولا يفتر عن التقرب إلى ربه.

التقرب بالأعمال الظاهرة: وهو ظاهر التقرب ثم يترقى إلى حال التقرب وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه وعقله وبدنه ثم يترقى إلى حال الإحسان فيعبد الله كأنه يراه ثم يتقرب من باطنه بأعمال القلوب من المحبة والإنابة

رجوع للفهرس

والتعظيم والإجلال والخشية ثم يجود من باطنه ببذل الروح ومحبة حبيبه بلا تكلف فيجود بروحه ونفسه وإرادته وأعماله لحبيبه فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بالتقرب سره وباطنه وإن لم يجد فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط فليدم على ذلك وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام ليحظى بحال التقرب.

وأفضل التقرب إلى الله كما فى الحديث: "من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتانى يمشى أتيته هرولة" (أخرجه البخارى حـ١٣/٧٥٣٨ ومسلم حـ٤/توبة/٢ عن أبى هريرة).

ويدل الحديث على مراحل التقرب الثلاث وهى تقرب العبد بالشبر ثم بالذراع ثم بالمشى والتقرب الأخير هو الانبعاث بالكلية إلى الحبيب. ومن تقرب بشيئ جوزى على ذلك بقرب هو أضعافه وأعلى أنواع التقرب تقرب العبد بجملته ظاهراً وباطناً والتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف ما تقرب به وكلما جاد لحبيبه بنفسه يكون ربه سبحانه حظه ونصيبه وعوضه عن كل شيئ مصداقاً لقوله تعالى " فَإِذَا بَلَغْنَ

رجوع للفهرس

أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا {الطلاق/٢} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا" {الطلاق/٣}، " فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ" {البقرة/١٥٢}. وفى الحديث "من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه" (أخرجه أحمد فى مسنده حـ٢ صـ٤٠٥).

المرتبة التاسعة: حياة الأرواح بعد مفارقتها للأبدان وخلاصها من هذا السجن الضيق فإن من ورائه فضاء وروحًا وريحانًا وراحة ويكون مرافقًا للرفيق الأعلى مع النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أؤلئك رفيقا فى جواد الرب والرحمن الرحيم. ويرحل الكاذبين المكذبين إلى الدار التى أعدت للكافرين بالله ورُسله وكتبه.

المرتبة العاشرة: الحاية الدائمة الباقية بعد فناء هذا العالم وذهاب الدنيا وهى الحياة التى يتسابق إليها المتسابقون

رجوع للفهرس

ويتنافس فيها المتنافسون وتضمنتها الشرائع السماوية فقال الله تعالى " كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا {الفجر/٢١} وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا {الفجر/٢٢} وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى {الفجر/٢٣} يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي {الفجر/٢٤} فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ {الفجر/٢٥} وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ"{الفجر/٢٦}، " وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" {العنكبوت/٦٤}. ولما كانت حياة أهل الإيمان والعمل فى الدار الآخرة حياة طيبة برؤية وجه ربهم وسماعه فما سبب تخلف النفس عن طلب هذه الحياة فليرجع إلى الأسباب التالية: ضعف الإيمان لأن الإيمان هو روح الأعمال والباعث عليها والآمر بأحسنها والناهى عن أقبحها وعلى قدر قوة الإيمان يكون إمتثال الأوامر واجتناب النواهى فإذا قوى الإيمان اشتد الشوق إلى الحياة الآخرة الباقية وكذلك يرجع استيلاء الغفلة على القلب وتجد اليقظان نائمًا فى الحقيقة فتحسبهم أيقاظًا وهم رقود كالقلب اليقظان وهو فى الحقيقة نائم وإذا قويت الحياة فى القلب فلا ينام إذا نام البدن ومن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسالته على

رجوع للفهرس

بصيرة من ذلك بحسب نصيبه منها. فالغفلة واليقظة فى الحس والعقل والقلب فمستيقظ القلب وغافله كمستيقظ البدن ونائمه ويكون القلب على نوعين فالنوع الأول من يقظة الحس وصاحبها ينفذ فى الأمور الحسية ويتوغل فيها بكسبه وفطانته والنوع الثانى أن يقبل على نفسه وقلبه وذاته فيعتنى بتحصيل كماله ملاحظًا عوالى الأمور وسفاسفها فيؤثر الأعلى على الأدنى ويقدم خير الخيرين ويفوت أدناهما ويرتكب أخف الشرين خشية حصول أقواهما متحلياً بمكارم الأخلاق ومعالى الشيم فيكون ظاهره جميلاً وباطنه أجمل وسريرته خيرًا من علانيته مزاحمًا لأصحاب المعالى فيستعد للنوعين السابقين أولاً بيقظة تبعثه على اقتباس الحياة الدائمة من الحياة الفانية والمقتبس للحياة الدائمة من الحياة الفانية إنما ينتقل من الدار المنقطعة إلى الدار الباقية والموت متوسط بينهما يعبر عليها إلى الدار الآخرة وعلى قدر نور الإيمان فى الدار الفانية يكون نور العبد فى الدار الباقية ويضيئ للعبد فى الحياة البرزخية وفى موقف يوم القيامة وأهوالها وثانياً بيقظة تبعث على حياة المحب مع حبيبه الذى لا قوام لقلبه وروحه وحياته إلا به ولا يستغنى

رجوع للفهرس

عن حبيبه طرفة عين ولا قرة لعينه ولا طمأنينة لقلبه ولا سكون لروحه إلا بحبيبه فإن حياته بدون حبيبه عذاب وآلام فهو أحوج إلىحبيبه من سمعه وبصره وحياته موقوفة على قربه وحبه ومصاحبته وعذاب حجابه عنه أعظم من العذاب الآخر ونعيم القلب بها بإزالة ذلك الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشرب والحور العين وجمع الله لأوليائه بين النعيمين فى قوله تعالى "لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" {يونس/٢٦} فالحسنى الجنة والزيادة رؤية وجهه الكريم فى جنات عدن.

والمقصود أن الغفلة هى نوم القلب عن طلب تلك الحياة وهى حجاب عليه والذكر يكشف حجاب الغفلة وإلا تكاتف حتى يصير حجاب بطالة ولعب واشتغالاً بما لا يفيد فإن بادر بكشفه وإلا تكاشف وصار حجاب معاصى وذنوب تبعده عن الله فإن بادر وكشفه وإلا صار حجاب كبائر توجب مقت الله وغضبه. فإن بادر وكشف وإلا صار حجاب بدع عملية يعذب العامل فيها نفسه ولا تجدى عليه شيئاً فإن بادر إلى كشفه

رجوع للفهرس

وإلا صار حجاب بدع قوليه اعتقادية تتضمن الكذب على الله ورسوله والتكذيب بالحق الذى جاء به الرسول فإن بادر إلى كشفه وإلا صار حجاب شك وتكذيب يقدح فى أصول الإيمان الخمسة وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه (اليوم الآخر) فلغلظ حجابه وكثافته وسواده لا يرى حقائق الإيمان ويتمكن منه الشيطان يعده ويمنيه والنفس الأمارة بالسوء تهوى وتشتهى وأغلق باب اليقظة وأقام عليه أبواب الغفلة فقد اجتمعت على القلب كل هذه الأمور الداعية للغفلة مع دقة الإيمان وقلة الأعوان والإعراض عن ذكر الله وطول الأمل المفسد للإيمان.

أنفاس الحياة:

الحياة الأولى: نفس الخوف ونفس الرجاء ونفس المحبة، أما نفس الخوف مصدره مطالعة الوعيد وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة والمخلوق على الخالق والهوى على الهدى. ونفس الرجاء ومصدره مطالعة الوعد وحسن الظن بالرب تعالى وما أعد الله لمن آثر الله ورسوله والدار الآخرة وحكم الهدى على الهوى والوحى على الآراء والسنة على

رجوع للفهرس

البدعة واتباع الرسول وأصحابه على عوائد الخلق. وأما نفس المحبة فمصدرها مطالعة الأسماء والصفات ومشاهدة النعماء والآلاء.

ميزان الإيمان هى أنفاس الخوف والرجاء والمحبة فهى ميزان إيمان العبد فإذا ذكر العبد ذنوبه تنفس بالخوف وإذا ذكر رحمة ربه وسعة مغفرته وعفوه تنفس الرجاء وإذا ذكر جماله وجلاله وإحسانه وإنعامه تنفس بالحب.

الحياة الثانية: حياة لجمع من موت التفرقة ولها ثلاثة أنفاس نفس الاضطرار ونفس الافتقار ونفس الإفتخار.

نفس الاضطرار انقطاع الأمل مما سوى الله فيضطر حينئذ بقلبه وروحه ونفسه وبدنه إلى ربه ضرورة تامة فيجد فى نفسه مضطراً إلى ما غنى له عنه طرفة عين وهو خالقه وفاطره وناصره وحافظه ومعينه ورازقه وهاديه ومعافيه والقائم بجميع مصالحه وهو معبوده وإلهه وحبيبه ولا تكتمل حياته إلا أن يكون الله وحده أحب إليه من كل شيئ وهذا هو الاضطرار وهو اضطرار إياك نعبد والاضطرار الأول إياك نستعين وأما نفس الافتقار فهى توسط بين

رجوع للفهرس

الاضطرار وهى قطع الخلق من قلبه ونفس الافتقار هى تعلق قلب العبد بربه ونفس الافتخار هى نتيجة النفسين لأنهما إذا صحا للعبد حصل له القرب من ربه والأنس به والفرح به وبالخلع التى خلعها ربه على قلبه وروحه.

الحياة الثالثة: حياة الوجود وهى حياة بالحق ولها ثلاثة أنفاس نفس الهيبة وهو يميت الاعتدال ونفس الوجود وهو يمنع الانفصال ونفس الانفراد وهو يورث الاتصال وهى حياة الواجد وهى أكمل من النوعين السابقين ووجود العبد لربه هو الذى أشار إليه الحديث:

"فإذا أحببته كنت سمع الذى يسمع به وبصره الذى بصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها" فربى يسمع ربى يبصر ربى يبطش ربى يمشى. وهذه الحياة هى حياة الوجود وهى أكمل حياة لشرفها وكمالها بموجودها وهو الحق سبحانه وتعالى فمن حُبِىَ بوجوده فقد فاز بأعلى أنواع الحياة وتفسر حياة الوجود بشهود القيومية حيث لا يرى شيئًا من الأشياء إلا وهو بالله وهو الذى أقامه ولا يلتفت بقلبه إلى شيئ سوى الله وقد قصر خوفه ورجاءه وتوكله

رجوع للفهرس

وإنابته على الحى القيوم فمتى حصل له هذا الشهود فقد حصلت له حياة الوجود.

فتارة يتنفس بالهيبة وهى سطوة نور الصفات فيقع القلب فى هيبة تستغرق حسه عن الالتفات إلى شيئ من عوالم النفس وذلك هو الاعتلال الذى يميته. النفس الثانى وهو قوله نفس يميت الاعتلال فتموت منه علل أعماله وآثار حظوظه وشهود إنيته. وقوله نفس الوجود وهو يريد وجه العبد لربه فيتنفس بهذا الوجود كما يسمع به ويبصر به ويبطش به ويمشى به. وقوله وهو يمنع الانفصال عند القوم انقطاع القلب عن الرب وبقاؤه بنفسه وطبيعته والاتصال هو بقاؤه بربه وفناؤه عن أحكام نفسه وطبعه وهواه أو الفناء فى شهود القيومية وبالانفصال الغيبة عن هذا الشهود. ونفس الانفراد هو المصحوب بشهود الفردانية وهى تفرد الرب سبحانه بالربوبية والإلهية والتدبير والقيومية ويفرده بذلك فى شهوده وهذا النفس يورثه الاتصال بربه بحيث لا يبقى له مراد غيره ولا إرادة غير مراده الدينى الذى يحبه

رجوع للفهرس

ويرضاه فيستفرغ حبه قلبه وتستفرغ مرضاته سعيه وليس وراء ذلك مقام يلحظه النظارة لا بالقلب ولا بالروح.

باب الفناء:

الفناء هو ذهاب القلب وخروجه من هذا العالم وتعلقه بالله وحده الذى له البقاء فلا يدركه الفناء ومن فنى فى محبته وطاعته وإرادة وجهه أوصله هذا الفناء إلى منزلة البقاء والعبد لا يتعلق بمن هو فان ويذر من له البقاء وهو ذو الجلال والإكرام ويتعلق بمن هو باق لا يفنى. والفناء هو انقطاع عما سوى الرب تعالى من كل وجه.

الفناء عن أهل التوحيد والاستقامة يكون بأمرين:

الأمر الأول: الفناء فى شهود الربوبية والقيومية فيشهد تفرد الرب تعالى بالقيومية والتدبير والخلق والرزق والعطاء والمنع والضر والنفع والعبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فالله هو المدبر وهو القيوم الذى بيده تدبير الأمور وفقاً لمشيئته وحكمته وإرادته فإنه شاهد لربه ولا يشهد ما سواه ساعياً فى طلب الوصول إلى الله بالقيام بالواجبات والنوافل.

رجوع للفهرس

الأمر الثانى: الفناء فى مشهد الإلهية وحقيقته الفناء عن إرادة ما سوى الله ومحبته والإنابة إليه والتوكل عليه وخوفه ورجائه فيفنى عن حب ما سواه وبخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه وحقيقة هذا الفناء إفراد الرب سبحانه بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والإجلال بالآتى:

إذا خلا القلب من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها وتعلق بالآخرة والتأهب للقدوم على الله فذلك أول الفتح فيتحرك القلب لمعرفة ما يرضى الله فيفعله ويتقرب به إليه وما يسخطه منه فيجتنبه وهذا عنوان صدق إرادته لأن العبد سيسأل ماذا كنت تعبد وبماذا أجبت المرسلين فلابد للعبد أن يتنبه لمعرفة ربه والطريق الموصلة إليه فإذا تمكن فى ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة جامعًا لقلبه وإرادته ويغلق الأبواب التى تفرق همه وتشتت قلبه فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة ويجد فيها اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده فى لذة اللهو واللعب والشهوات بحيث

رجوع للفهرس

إذا دخل فى الصلاة لا يود أن يخرج منها ثم يفتح له باب حلاوة سماع كلام الله فلا يشبع منه ثم يهدأ قلبه ثم يشهد عظمة الله وجلاله فى كلامه وكمال صفاته وحكمته فيغيب قلبه فى ذلك ثم يفتح له باب الحياء من الله وهو نور فى القلب فيستحى من ربه فى خلواته مراقبًا لربه متطلعًا إلى حضرة الرب حتى كأنه يراه فوق سماواته مستويًا على عرشه قائمًا بخلقه ناسيًا هموم الدنيا فهو فى وجود غير وجود الناس بين يدى ربه ناظرًا إليه بقلبه محجوب عن الدنيا لا يراه أهل الدنيا وهو يراهم ثم يفتح له باب الشعور بالقيومية فله الضر والنفع والخلق والرزق والموت والحياة فيرضى بربه مدبرًا مستدلاً بمخلوقاته على خالقه وبارئه وصفاته ونعوته يناديه كل المخلوقات ثم يفتح له باب القبض والبسط لقوة وإرادة ثم يقبض وعاءه بأنوار الوجود فيفنى عن وجوده فلا يبقى فى قلبه إلا الله ثم تفيض أنوار المعرفة والمعاملة والصدق والإخلاص والمحبة من قلبه وهذا من علم اليقين فإذا استمر على حاله متمسكًا بها لا يجيب غير من يدعوه إلى الله وأنه لم يصل البد ومتى توهم أنه قد وصل انقطع عنه المزيد. رجى أن يفتح له فتح آخر فوق ما كان

رجوع للفهرس

فيه مستغرقاً قلبه فى أنوار الجلال بعد ظهور أنوار الوجود الحق ماحيًا وجوده مبطلاً لوجوده النفس الطبيعى إلى وجود قلب روحانى ملكى سائحًا فى بحر من أنوار آثار الجلال فتنبع الأنوار من باطنه واجداً الملكوت الأعلى فى باطنه وقلبه صاعداً إلى أنوار الإكرام بعدما شهد أنوار الجلال متذوقاً المحبة الخاصة الملهبة للأرواح والقلوب مستغرقاً من أنوار أشعة الجمال مأسوراً قلبه فى يد ربه محبوبه ممتحناً بحبه مترقياً لأعلى درجات المحبة مقترباً من ربه فإن المرء مع من أحب ولكل عمل جزاء.

المقصود: أن هذا العبد لا يزال الله يرقيه طبقًا بعد طبق ومنزلاً بعد منزل إلى أن يوصله إليه ويمكْن له بين يديه أو يموت فى الطريق فيقع أجره على الله فالسعيد كل السعيد والموفق كل الموفق من لم يلتفت عن ربه تبارك وتعالى يمينًا ولا يسارًا ولا اتخذ سواه ربًا ولا وكيلاً ولا حبيبًا ولا مدبرًا ولا حكمًا ولا ناصرًا ولا رازقًا. فإذا قرب الرب تعالى من قلب عبده بقيت الأكوان كلها تحت مشهد قلبه فيطلع فى أفقه شمس التوحيد فيغيب العبد عن نفسه ويفنى وفى

رجوع للفهرس

الحقيقة هو باق غير فان ولكنه ليس فى سره غير الله قد فنى فيه عن كل ما سواه ولا يحب شيئاً غير الله.

باب المعرفة:

قال الله تعالى " وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ"{المائدة/٨٣}، "الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ" {البقرة/١٤٦}، المعرفة: إحاطة بين الشيئ كما هو. ولفظ العلم فى قوله تعالى:

"فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ" {محمد/١٩}، " شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" {آل عمران/١٨}، " أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ" {الأنعام/١١٤}، "فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى" {طه/١١}، "أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ

رجوع للفهرس

الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ" {الرعد/١٩}، "وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" {الروم/٥٦}، " وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ {القصص/٨٠}، " وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ {العنكبوت/٤٣}، " قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ {النمل/٤٠}، " اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {الحديد/١٧}، " اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ {الحديد/٢٠}، " نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ

رجوع للفهرس

الْمُؤْمِنِينَ {البقرة/٢٢٣}، " فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ {هود/١٤}.

الفرق بين العلم والمعرفة:

والفرق بين العلم والمعرفة لفظاً ومعنى، أما اللفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد كما فى قوله تعالى "فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ" {يوسف/٥٨} وقال " يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ" {البقرة/١٤٦}. وفعل العلم يقتضى مفعولين كقوله تعالى " فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ" {الممتحنة/١٠}. وإذا وقع على مفعول واحد كان بمعنى المعرفة كقوله تعالى "وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" {الأنفال/٦٠}. وأما الفرق المعنوى فمن وجوه: أحدهما أن المعرفة تتعلق بذات الشيئ والعلم يتعلق بأحواله فتقول عرفت أباك وعلمته صالحاً كما فى قوله تعالى " فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ

رجوع للفهرس

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ {محمد/١٩}، "اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {المائدة/٩٨}، "فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ" {هود/١٤}. فالمعرفة حضور صورة الشيئ ومثاله العلمى فى النفس والعلم حضور أحواله وصفاته ونسبتها إليه فالمعرفة تشبه التصور والعلم يشبه التصديق. والآخر: أن المعرفة فى الغالب تكون لما غلب على القلب بعد إدراكه فإذا أدركه قيل عرفه أو تكون لما وصفه بصفات قامت فى نفسه كما فى قوله تعالى "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ" {يونس/٤٥}، "وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ {يوسف/٥٨}، " الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {البقرة/١٤٦}، "وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ {البقرة/٨٩}، فالمعرفة تشبه الذكر

رجوع للفهرس

للشيئ. والوجه الثالث: من الفرق أن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره. الفرق الرابع: أنك إذا قلت علمت زيدًا فإنك تخبر المخاطب على حاله مثل كريمًا أو شجاعًا وإذا قلت عرفت زيدًا فإنك تكون ميزته عن غيره. الفرق الخامس: المعرفة علم بعين الشيئ منفصلاً عما سواه بخلاف العلم الذى يتعلق بالشيئ مجملاً.

العارف: من عرف الله سبحانه وصفاته وأفعاله ثم صدق الله فى معاملته ثم أخلص فى قصوده ونياته ثم انسلخ من أخلاقه الرديئة وآفاته ثم تطهر من أوساخه ومخالفاته ثم صبر على أحكام الله فى نعمه وبلائه ثم دعا إليه على بصيرة بدينه وآياته ثم جرد الدعوة إليه وحده بما جاء به رسوله ولم يشبها بآراء ومقاييس ولم يزن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقالوا فى المعرفة:

المعرفة توجب السكون فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته، المعرفة أنس القلب بالله وعلامتها القرب من الله،

رجوع للفهرس

المعرفة الصحيحة تقطع من القلب العلائق كلها ويتعلق بالله فلا يبقى فيه علاقة بغيره، من كان بالله أعرف كان له أخوف كما فى قوله تعالى "وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ" {فاطر/٢٨}.

من عرف الله ضاقت عليه الدنيا بسعتها واتسع عليه كل ضيق.

من عرف الله صفا له العيش فطابت له الحياة وهابه كل شيئ وذهب عنه خوف المخلوقين وأنس بالله.

من عرف الله قرت عينه بالله وقرت عينه بالموت وقرت به كل عين ولم يبق له رغبة سوى الله.

ومن لم يعرف الله تقطع قلبه على الدنيا حسرات ومن عرف الله أحب الله على قدر معرفته وخافه ورجاه وتوكل عليه وأناب إليه وذكره واشتاق إلى لقائه واستحيا منه وأجله وعظمه على قدر معرفته بالله. وعلامة العارف أن يكون قلبه مرآة لغيب الإيمان فيرى الله سبحانه والدار الآخرة والجنة والنار والملائكة والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

رجوع للفهرس

ومن علامات العارف لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرى له على أحد فضلاً ولا يرى له على أحد حقًا ولا يأسف على ما فات ولا يفرح لآت ويعتزل الخلق بينه وبين الله حق كأنهم أموات لا يملكون له ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ويكون بينهم بلا نفس. والعارف ابن وقته فهو مشغول بوظيفة وقته عما مضى وما لم يدخل بعد فى الوجود فهمه عمارة وقته الذى هو مادة حياته الباقية وأنه مستأنس بربه مستوحش ممن يقطعه عنه والعارف من أنس بالله فأوحشه من الخلق وافتقر إلى الله فأغناه عنهم وذل لله فأعزه فيهم وتواضع لله فرفعه بينهم واستغنى بالله فأحوجهم إليه والعارف لا ينقطع عن الله ويفتح الله عليه وعلامة العارف لا يطفى نور معرفته نور ورعه ولا يعتقد باطنًا من العلم ينقضه بظاهر من الحكم ولا تحمله كثرة نعم الله على هتك محارمه. والعارف يبكى فى سيره إلى الله فإذا اقترب وذاق طعم الوصول من بره زال عنه البكاء.

نوم العارف يقظة وأنفاسه تسبيح ونوم العارف أفضل من صلاة الغافل لأن قلب العارف حى ولا تنام عينه وروحه

رجوع للفهرس

ساجدة بين يدى ربها ونومه أفضل من صلاة الغافل لأن بدن الغافل واقف فى الصلاة وقلبه سائح فى الدنيا لموت قلبه فكانت يقظته نوم. ومجالسة العارف تدعوك من الشك إلى اليقين ومن الرياء إلى الإخلاص ومن الغفلة إلى الذكر ومن الرغبة فى الدنيا إلى الرغبة فى الآخرة ومن الكبر إلى التواضع ومن سوء الطوية إلى النصيحة.

ولا يستقر للعبد قدم فى المعرفة ولا فى الإيمان حتى يؤمن بصفات الرب جل جلاله ويعرفها معرفة جيدة تخرجه عن حد الجهل بربه فالإيمان بالصفات ومعرفتها هو أساس الاسلام وقاعدة الإيمان وثمرة شجرة الإخلاص ومن جحد الصفات هدم الإسلام والإيمان والإحسان. وأحب شيئ إلى الله سبحانه حمده ومدحه والثناء عليه بأسمائه وصفاته وأفعاله وإنكارها إلحاد وكفر وشرك وأرسل الله الرسل بعباده للدعوة إلى الله وبيان الطريق الموصل إليه وبيان حال المدعوين بعد وصولهم إليه وهذه القواعد جاءت على لسان الرسل فعرفوا الرب المدعو إليه بأسمائه وصفاته وأفعاله كأن العباد يشاهدون الرب وينظرون إليه فوق سماواته على عرشه:

رجوع للفهرس

يكلم الملائكة ويدبر أمر الملك ويسمع أصوات الخلق ويرى أفعال الخلق مشاهداً للباطن والظاهر منهم يأمر وينهى ويرضى ويغضب ويسخط ويضحك من قنوط عباده ويجيب دعواهم ويغيب ملهوفهم وبعين المحتاج ويجير المنكسر ويغنى ويفقر ويحيى ويميت ويمنع ويعطى ويؤتى الحكمة من يشاء ويؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء يعز ويذل ويغفر ويفرج الكرب وينصر مظلومًا ويفك عانيًا ويقصم ظالمًا ويرحم مسكينًا ويغيث ملهوفًا ويقدر الأقدار بمواقيتها ويقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء وهذا هو مقصود الدعوة التى جاء بها الرسل لعباده والقاعدة الثانية تعريفهم بالطريق الموصل إليه وهو الصراط المستقيم الذى نصبه لرسله وأتباعهم بامتثال الأمر واجتناب النواهى والإيمان بالوعد والوعيد. والقاعدة الثالثة الإيمان باليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب والحوض والميزان والصراط بين الجنة والنار.

رجوع للفهرس

باب الوجود:

أطلق الله سبحانه اسم الوجود على نفسه صريحًا فى القرآن فقال تعالى " وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا {النساء/٦٤}، " وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا" {النساء/١١٠}، وقوله " وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ" {النور/٣٩}.

الوجود: الظفر بحقيقة الشيئ وهو "وجود علم لدنى يقطع علوم الشواهد فى مكاشفة الحق ووجود الحق وجود عين منقطعًا عن مساغ الإشارة ووجود مقام اضمحلال رسم الوجود بالاستغراق فى الأولية." وهذا العلم استدلوا عليه بالآيات ففى آيات سورة النساء والسابق ذكرها فالوجود مقيد بظفرهم بمغفرة الله ورحمته لهم وأما الوجود المشار إليه فى سورة النور فهو وجود الكافر لربه عند حسابه وليس الوجود الذى يشير إليه القوم وفى الحديث الشريف

رجوع للفهرس

"إن الله تعالى يقول يوم القيامة عبدى استطعمتك فلم تطعمنى قال يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين قال استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى، عبدى استسقيتك فلم تسقنى قال يارب كيف اسقيك وأنت رب العالمين قال استسقاك عبدك فلان فلم تسقه أما لو سقيته لوجدت ذلك عندى، عبدى مرضت لم تعُدنى قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين قال مرض عبدى فلان ولم تعده أما لو عدته لوجدتنى عنده" (أخرجه مسلم حـ٤- بر/٤٣ من حديث أبى هريرة).

والناس ثلاثة: سالك وواصل وواجد.

والمثل فى ذلك لو كان كنزاً فى مكان ما فالسائر فى الطريق إلى الكنز هو السالك والذى وجد كنز فهو واصل والواجد هو الذى أخذ الكنز وأدخله إلى داره.

أقوال فى الوجود:

الوجود: اسم للظفر بحقيقة الشيئ كالذى وجد ضالته وجداناً كما قال الله تعالى " أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا

رجوع للفهرس

عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى {الطلاق/٦}، والواجد فى أسمائه بمعنى ذو الوجد والغنى.

باب التوحيد:

قال الله تعالى " شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" {آل عمران/١٨}.

تنزيه الله عز وجل عن الحدث دائمًا نطق العلماء بما نطقوا به وأشار المحققون بما أشروا به فى هذا الطريق: لقصد تصحيح التوحيد وما سواه من حال أو مقام فكله مصحوب بالعلل. والتوحيد دعوة الرسل وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى، قال الله تعالى " لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ {الأعراف/٥٩}، " وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ {الأعراف/٦٥}، " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

رجوع للفهرس

فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" {الأعراف/٨٥}، "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {النحل/٣٦}. وفى الحديث حين بعث الرسول صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن "إنك تأتى قومًا أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة" (أخرجه مسلم حـ١/إيمان/ ٢٩-٣١ عن معاذ بن جبل وعبدالله بن عباس).

"أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" (أخرجه البخارى حـ١/٢٥ عن ابن عمرو ومسلم حـ١/إيمان/٣٢).

فالتوحيد أول ما يدخل به الإسلام وأول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله وآخر ما يخرج به من الدنيا

رجوع للفهرس

كما فى الحديث "من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة" (أخرجه أبو داود حـ٣/٣١١٦ عن أبى سعيد الخدرى وعلقه البخارى حـ٣/كتاب الجنائز باب ١). فالتوحيد أول واجب وآخر واجب.

قال الجنيد عن التوحيد: إفراد القديم عن المحدث وهو شرط التوحيد ومن نفى مباينة الله لخلقة فوق سماواته على عرشه وجعله فى كل مكان بذاته لم يفرده عن المحدث وهذا الإفراد نوعان، أحدهما إفراد فى الاعتقاد والخبر بإثبات مباينة الرب تعالى للمخلوقات وعلوه فوق عرشه من فوق سبع سماوات كما نطقت به الكتب الإلهية وإفراده بصفات كماله كما أثبتها لنفسه وأثبتها له رسله منزهة عن التحريف وتثبت له حقائق الأسماء والصفات وتنفى عنه فيها مماثلة المخلوقات إثبات بلا تمثيل وتنزيه بلا تحريف، وقال الله تعالى "فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ" {الشورى/١١}، ويكون بإفراده سبحانه بعموم قضائه وقدره لجميع المخلوقات وكلها واقعة

رجوع للفهرس

بمشيئته وقدرته وعلمه وحكمته والثانى افراد القديم عن المحدث بالعبادة من التأله والحب والخوف والرجاء والتعظيم والإنابة والتوكل والاستعانة وابتغاء الوسيله إليه فهذا الإفرد بعثت به الرسل وأنزلت الكتب وشرعت الشرائع وخلقت السموات والأرض والجنة والنار والثواب والعقاب فتفريد القديم سبحانه عن المحدث فى ذاته وصفاته وأفعاله ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والنذر له والتوبة إليه والسجود له والتعظيم والإجلال.

توحيد رسل الله:

هو توحيد فى المعرفة والإثبات وتوحيد فى المطلب والمقصد فالأول هو حقيقة ذات الرب تعالى وأسمائه وصفاته وعلوه فوق سماواته على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لمن شاء من عباده وإثبات قضائه وقدره وحكمه وجاء به القرآن فى أول سورة الحديد وسورة طه وآخر سورة الحشر وأول سورة السجدة وأول سورة آل عمران وسورة الاخلاص بكمالها والنوع الثانى فى سورة الكافرون وفى قوله تعالى "قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ

رجوع للفهرس

نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ" {آل عمران/٦٤}، وأول سورة الأعراف وأول سورة يونس. والقول إن كل آية فى القرآن تضمنت التوحيد شاهدة به داعية إليه لأن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله فهى التوحيد الخبرى وإما دعوة لعبادته وحده لا شريك له وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادى وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيد وطاعته وما فعل بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة فهو جزاء توحيده وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم فى الدنيا من النكال وما يحل بهم من العذاب فى الآخرة فهو خير عمن خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله فى التوحيد وحقوقه وجزائه وفى شأن الشرك وأهله وجزائهم. ففى سورة الفاتحة الآية من ١ـ٥ توحيد وفى الآية السادسة توحيد لسؤال الهداية والآية السابعة الذين فارقوا التوحيد. وشهد الله والملائكة والأنبياء والرسل بالتوحيد فى قوله تعالى "شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ

رجوع للفهرس

وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" {آل عمران/١٨}. تضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد بشهادتها وأعظمها وأعدلها من أجل شاهد بأجل مشهود به ومراتبها العلم والمعرفة والاعتقاد لصحة الشهود به وثبوته، تكلمه بذلك ونطقه به وإن لم يعلم به غيره ، أن يعلم غيره بما شهد به ويخبره ويبينه له ، أن يلزمه بمضمونها ويأمره به فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط وتضمنت: علم الله سبحانه بذلك وتكلمه به وإعلامه وإخباره لخلقه به وأمرهم وإلزامهم به.

أوجه التوحيد:

أوجه التوحيد هى: توحيد الخاصة – توحيد العامة – توحيد خاصة الخاصة ويتفاوت أهل التوحيد على قدر علمهم ومعرفتهم وحالهم فأكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ثم المرسلون ثم أولو العزم من الرسل وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فهم أكمل الناس توحيداً. وأكملهم الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم وأمر الله سبحانه

رجوع للفهرس

محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم فى قوله تعالى " أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ {الأنعام/٨٩} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ" {الأنعام/٩٠} فلا أكمل من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بهم فجعلهُم الله أئمة للخلائق يهدون بأمره ويدعون إليه ويأمر الخلائق بأمرهم وخص أتباعهم بالسعادة والفلاح ومخالفيهم بالشقاء والضلال وقال لإبراهيم خليله عليه الصلاة والسلام " وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ "{البقرة/١٢٤}. فملة إبراهيم التوحيد ودين محمد عليه الصلاة والسلام ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً وكلمة الإخلاص أن لا إله إلا الله ونظرة الإسلام ما فطر الله عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة فهذا هو توحيد خاصة الخاصة ومن رغب عنه فهو من أسفه السفهاء قال الله تعالى "وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي

رجوع للفهرس

الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {البقرة/١٣٠} إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ" {البقرة/١٣١}.

ينقسم الخلائق إلى سفيه ورشيد فالسفيه من رغب عن ملته إلى الشرك والرشيد من تبرأ من الشرك قولاً وعملاً وقال الله تعالى "يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ {المؤمنون/٥١} وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ" {المؤمنون/٥٢}، " وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ {الزخرف/٤٥}، " أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ {الأنبياء/٢١} لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ {الأنبياء/٢٢} لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ {الأنبياء/٢٣} أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ {الأنبياء/٢٤} وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" {الأنبياء/٢٥}.

رجوع للفهرس

قال ابن تيمية: التوحيد الأول الذى جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وأمر الله به الأولين والآخرين وقال الله تعالى " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {الأعراف/٨٥}. وفى الحديث "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله" (أخرجه البخارى حـ١/٢٥، عن ابن عمر وأخرجه مسلم حـ١/إيمان ٣٦).

حقيقة التوحيد: إخلاص الدين كله لله والفناء فى هذا التوحيد وتثبيت إلهية الحق فى قلبك وتنفى الهية ما سواه والحقيقة أن تفنى بعبادة الله عن عبادة ما سواه وبمحبته عن محبة ما سواه وبخشيته عن خشية ما سواه وبطاعته عن طاعة ما سواه وبموالاته وسؤاله والاستغناء به والتوكل عليه والإنابة إليه ورجائه ودعائه والتفويض والتحاكم إليه واللجوء إليه والرغبة فيما عند الله وقال الله تعالى " قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ

رجوع للفهرس

وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ {الأنعام/١٤}، " أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {الأنعام/١١٤}، " قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" {الأنعام/١٦٢}، "قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ" {الأنعام/١٦٤}، "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ"{الزمر/٣٨}، "قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ {الزمر/٦٤} وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ {الزمر/٦٥} بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ" {الزمر/٦٦}، "فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ" {الشعراء/٢١٣}، "وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ

رجوع للفهرس

كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" {يونس/١٠٧}.
وفى القرآن آيات كثيرة جداً وكمال التوحيد أن لا يبقى فى القلب شيئ لغير الله أصلاً ويبقى العبد موالياً لربه فى كل شيئ يحب من أحب ويبغض من أبغض ويوالى من يوالى ويعادى من يعادى ويأمر بما يأمر به وينهى عما نهى عنه.

توحيد العامة:

توحيد العامة الذى يصح بالشواهد وهى الأدلة والبراهين وأوضحته الآيات والبراهين. والتوحيد الظاهر الجلى الذى نفى الشرك الأعظم فأرسل الله به رسوله وأنزل كتبه وأمر الله به الأوليين والآخريين من عباده وهو من أعلى مراتب التوحيد الذى نفى الشرك الأعظم وهو مستتر فى قلوب أهله ولا يحسنوا الاستدلال عليه فليس من وجد شيئًا وعلمه وتيقنه أحسن أن يستدل عليه وكثيرًا من أهل الإسلام أعظم توحيدًا وأكثر معرفة وأرسخ إيمانًا من أكثر المتكلمين وأرباب النظر والجدال وأهل الإسلام عندهم من الأدلة والآيات أوضح وأصح مما عند المتكلمين وهذه الآيات

رجوع للفهرس

المندوب إليها الدالة على التوحيد وثبوت الصفات والأفعال وصدق الرسل وفى القرآن الكثير من ذلك. وأهل التوحيد ليس عندهم شك ولا ريبة وهم أصحاب القلب السليم ولا يفلح إلا من أتى الله به فيسلم من الشبه والإرادات المعارضة لأمره منقادًا إلى الخبر بصدق ويقين وهم السالمون من الشبهه والحيرة والريبة بصدق شهادة تواطأ عليها القلب واللسان قولاً واعتقادًا. وأما الشواهد فهى الآيات المتلوة والآيات المرئية هى صنائع الله.

والتوحيد يوجب بالسمع ويوجد بتبصير الحق وينمو على مشاهدة الشواهد. وهذا التوحيد وجوبه ثابت بالعقل والسمع والقرآن يدل على ذلك ويذكر الأدلة والبراهين عليه ويبين حسن التوحيد وقبح الشرك عقلاً وفطرة ويأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك وقال الله تعالى "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" {الزمر/٢٩}، " ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ

رجوع للفهرس

أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ {النحل/٧٥} وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {النحل/٧٦}، "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ {الحج/٧٣} مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ" {الحج/٧٤} ولكن العقاب على ترك هذا الواجب لحين ورود الشرع كما فى قوله تعالى "مَّنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً "{الإسراء/١٥}، " تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ {الملك/٨} قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ" {الملك/٩} والشرك قبيح بعلم العقل وبقوله عقب ذلك أفلا تعقلون، أفلا تذكرون وينفى العقل عن أهل الشرك وأنهم خرجوا عن موجب السمع والفعل فى قوله تعالى " وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء

رجوع للفهرس

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ {البقرة/١٧١} وأخبر أن سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم لم تغن عنهم شيئًا.

وقبح الشرك والكفر مستقر فى العقول والنظر وقال الله تعالى "وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ {الزمر/٢٧}، "وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ" {العنكبوت/٤٣}، "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ "{ق/٣٧}، ومن بعض الأدلة العقلية ما أبقاه الله تعالى من آثار عقوبات أهل الشرك وآثار ديارهم وما حل بهم وما أبقاه من نصر التوحيد واعزاؤهم وجعل العاقبة لهم فى قوله تعالى "وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ" {العنكبوت/٣٨}، "} فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {النمل/٥٢} وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ {النمل/٥٣}.

والتوحيد يوجب بتبصير الحق فهو تبصير الحق تعالى وهو التبصير التام الذى لا تختلف عنه الهداية وقد يبصر العبد

رجوع للفهرس

الحق ولا توجد منه الهداية فى قوله تعالى "وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" {فصلت/١٧}، " وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ {العنكبوت/٣٨}، "وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" {التوبة/١١٥}، وأما التبصير التام فإنه يستلزم وجود الهداية وهو الذى أمرنا أن نسأله وإياه فى صلاة وقال فيه أهل الجنة " وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {الأعراف/٤٣}، "وَاللّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ وَيَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ {يونس/٢٥}.

والتوحيد ينمو على مشاهدة الشواهد وهو الإجابة لداعى الحق ولا يكفى مجرد مشاهدة الشواهد فى نموه فى قوله

رجوع للفهرس

تعالى "وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ" {يوسف/١٠٥}، فيمر عليها العبد ولا ينمو ولا يزيد بل ينقص إيمانه وتوحيده فإذا أجاب الداعى وتبصر فى الشواهد نما توحيده وقوى إيمانه وقال الله تعالى "وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ " {محمد/١٧}، "وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ" {التوبة/١٢٤}، واتفق الصحابة والتابعون أن الإيمان والتوحيد ينموان ويتزايدان وهذا أعظم أصول السنة.

اعتماد التوكل على التوحيد:

حقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب واعتقاد أنها بيده فإن شاء منعها اقتضاءها وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها وإن شاء أقام لها موانع وصوارف تعارض اقتضاءها وتدفعه.

والموحد المتوكل: لا يلتفت إلى أسباب ولا يطمئن إليها ولا يرجوها ولا يخافها ولا يركن إليها ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها ولا يصح التوكل إلا على الله وكل شيئ فى الوجود

رجوع للفهرس

بمشيئته وحده فهو مسبب الأسباب وجعل فيها القوى والاقتضاء لآثارها ولم يجعل منها سببًا يقتضى وحده أثره بل لابد من سبب آخر يشاركه وجعل لها أسبابًا تضادها وتمانعها بخلاف مشيئته سبحانه، وإن الله قد يبطل حكم مشيئته فيشاء الأمر ثم يشاء ما يضاده ويمنع حصوله والجميع بمشيئته واختياره فلا يصح التوكل إلا عليه ولا اللتجاء إلا إليه ولا الخوف إلا منه ولا الرجاء إلا فيه ولا الطمع إلا فى رحمته كما فى الحديث " أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك" (أخرجه مسلم حـ١ صلاة/٢٢٢) وفى الحديث أيضًا "لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك" (جزء من حديث فى الصحيحة، صحيح البخارى حـ١/٢٤٧، وصحيح مسلم حـ٤/ذكر/٥٦، ٥٧ عن البراء بن عازب).

وواجب على العبد أن يفعل ما أمره الله به ويتوكل على الله معتقداً أن الأمر كله بمشيئته سبق به علمه وحكمه وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع ولا يقضى ولا يحكم ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ولا

رجوع للفهرس

يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم فيأتى بالأسباب إتيان من لا يرى النجاح والفلاح إلا بها ويتوكل على الله وتوكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود فيعزم القيام بها حرصاً واجتهاداً غير معتمد عليها ولا يركن إليها معتمداً على الله وحده مصداقاً للحديث الصحيح الذى يوضح ذلك كله "أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز" (حديث حسن – أخرجه ابن ماجة حـ٧٩/١) فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز بالتقصير فى الأسباب وعدم الحرص عليها وتقصير فى الاستعانة بالله. وقد سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن إسقاط الأسباب نظراً إلى القدر فرد ذلك ونفاه وألزم القيام بالأسباب كما فى الحديث الصحيح "ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة ومقعده من النار وقالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب فقال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له" (أخرجه البخارى حـ٤/٤٩٤٥ ومسلم حـ٤/قدر ٦-٨) وفى الحديث الصحيح أيضًا أنه قيل يا رسول الله أرأيت ما يكدح الناس فيه اليوم ويعملون أمر قضى عليهم ومضى أم فيما يستقبلون مما أتاهم فيه الحجة

رجوع للفهرس

فقال بل شيئ قضى عليهم ومضى فيهم قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على كتابنا قال لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له" (أخرجه مسلم حـ٤/قدر ١٠ وأحمد حـ٤ صـ٤٣٨). وفى السنن أنه قيل له: "أرأيت أدوية نتداوى بها ووقى تسترنى بها وتقاة نتقى بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هى من قدر الله" (أخرجه الترمذى حـ٤/٢٠٦٥).

جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية:

أهل الاستقامة عند الجمع الصحيح هو جمع توحيد الربوبية وجمع توحيد الإلهية فيشهد صاحبه قيومية الرب تعالى فوق عرشه يدبر أمر عباده وحده من الخلق والرزق والعطاء والمنع والمحيا والممات وهو المدبر لأمر المملكة ظاهرًا وباطنًا فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يجرى حادث إلا بمشيئته ولا يغرُب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا أحصاها علمه وأحاطت بها قدرته ونفذت بها مشيئته واقتصتها حكمته فهذا اجمع توحيد الربوبية.

رجوع للفهرس

وجمع توحيد الإلهية فهو أن يجمع قلبه وهمه وعزمه على الله وإرادته وحركاته على أداء حقه تعالى والقيام بعبودية سبحانه فتجتمع شئون إرادته على مراده الدينى الشرعى. وهذا الجمعان هما حقيقة "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ "{الفاتحة/٥}. فإن العبد يشهد من قوله "إياك" الذات الجامعة لجميع صفات الكمال التى لها كل الأسماء الحسنى ثم يشهد من قوله نعبد جميع أنواع العبادة ظاهراً وباطناً قصداً وقولاً وعملاً وحالاً واستقبالاً ثم يشهد فى قوله "إياك نستعين" جميع أنواع الاستعانة والتوكل والتفويض فيشهد منه جميع الربوبية ويشهد من إياك نستعين جميع الإلهية ويشهد من إياك الذات الجامعة لكل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

ويشهد من "إهدنا" عشر مراتب إذا اجتمعت حصلت له الهداية:

١- هداية العلم والبيان فيجعله عالما بالحق مدركاً له.

٢- أن يقدره عليه. ٣- أن يجعله مريداً له. ٤- أن يجعله فاعلاً له.

رجوع للفهرس

٥- أن يثبته على ذلك ويستمر به عليه.

٦- أن يصرف عنه الموانع والعوارض المضادة له.

٧- أن يهديه فى الطريق نفسها هداية خاصة أخص من الهداية الأولى.

٨- أن يشهده المقصود فى الطريق وينبهه عليه فيكون مطلعاً له فى سيره ملتفتاً إليه غير محتجب بالوسيلة عنه.

٩- أن يشهد فقره وضرورته إلى الهداية.

١٠- أن يشهد الطرفين المنحرفين عن اتباع الحق وهما طريق أهل الغضب وطريق أهل الضلالة ثم يشهد جمع الصراط المستقيم وهو جمع الأنبياء والرسل وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين.

فهذا هو الجمع الذى عليه رسل الله وأتباعهم فمن حصل له هذا الجمع فقد هدى إلى الصراط المستقيم.

تم بحمد الله وتوفيقه والله المستعان

والحمد لله رب العالمين وصلى الله عليه وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمد وعلى آله أجمعين

رجوع للفهرس

رجوع للفهرس



عندما قرأت كتاب مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية عجبت بمادته العلمية الدينية النافعة للدنيا والآخرة فهو الكتاب الغانى المغنى فى علوم الدين والهادى إلى طريق الحق الموصل لمرضاة الله ومحبته فهو يعلى الهمم ويقوى الإرادة ويجعل العبد على طريق الاستقامة لله ويحبب إليه الطاعة ويقربه من خالقه سبحانه وتعالى ويبعده عن طريق الهوى وطريق الشيطان .

المؤلف

